صلاح نيازي

غصن مطعم بشجرة غريبة

مكتبة الفكر الجديد

الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

مكتبة الأدب العراقي المعاصر

غصن مطعم بشجرة غريبة

صلاح نيازي

الانتشار العربي

ص. ب. 113/5752 ر. ب. 1103 2070
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

لوحة الغلاف : ذاظم الخليفة

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

مكتبة الفكر الجديد

المحتويات

١ ـ الناصرية ٧
٢ ـ بغداد ٢٥
٣ ـ حلب ٤١
٤ ـ تركيا ٤٥
٥ ـ ميلان ٥١
٦ ـ لندن ٥٥

مكتبة الفكر الجديد

١

الناصرية

وُلدت عام ١٩٣٥ (على أفضل تقدير) بمدينة الناصرية.

أوّل ما وَعَتْه ذاكرتي ـ وكان عمري حوالي سنتين ـ جانب السلّم من بيت كبير بالموصل، حيث كان والدي ضابطاً في الجيش.

غابت الذاكرة بعد ذلك، وعادت على مشهد والدي على فراش أبيض في غرفةٍ بمفرده. ربّت على رأسي وقبّلني، ثم مشهد والدتي جالسة في طارمة مفتوحة تبكي وحيدة بنشيج (كانت تلك مستشفى)، ثم تغيب الذاكرة نهائياً. هل مات؟ أين دُفِن؟ كيف عدنا إلى الناصرية؟ أين أخواي؟ هل كان لديَّ أخَوان؟

سكنّا في البداية، وسط المدينة ـ على امتداد شارع البيطرة ـ في زقاق غير نافذ. البيت كبير، يضمُّ ثلاث عوائل أخرى. في وسط البيت سدرة كبيرة، لها ما للأولياء الصالحين من تبجيل، أجمل ما فيها خضرتُها وحنانها وثمرها الذي له مفعول دواء ناجع. (هي المعنيّة بقصيدة «السدرة» التي كتبتها بمالقة في ٢٤ ـ ٥ ـ ١٩٨٧).

مكتبة الفكر الجديد

انتقلنا من هذا البيت، إلى بيت مستقل في شارع الهوى، أو الهوا (سمّي فيما بعد بشارع الحبّوبي)، وهو شارع عريض تتوسطه حديقة مسيّجة على امتداده، ممتلئة بأوراد القطيفة والدفلى، ويبيض فيها الدجاج الآتي إليها من البيوت الفقيرة، والدخول إليها ممنوع. هذا الشارع أصبح فيما بعد مسرح قصائد «نحن» الذي طُبع عام ١٩٧٨.

إلى شرق الشارع، وغير بعيد عنه ماخور، بيوت رثّة متناثرة، وقابعة على نفسها. لا تثير فضول الأطفال، ولا تنافس أخلاقيات الكبار، الترف وحده، هو ما كان يثير حسد المدينة. المومسات شبه محجورات، لا يقفن بباب أو شباك، أو ينادين وراء المارّة. إلى الشمال، مستشفى جديد، ومستشفى للعزل، نخاف من هواء نوافذه البارد، فلا نقرب منه.

إلى يمين المستشفى، يقع «المغيسل»، حيث غسل الأموات قبل دفنهم، باب المغيسل مفتوح دائماً، ومظلم دائماً، لأنه بلا شبابيك. كنّا نخاف الدخول إليه، فالأشباح والجنّ بمدينة الناصرية، أُمّة معترف بها.

كانت مراهناتنا في اللعب على أغلفة علب السجائر، أغنانا مَنْ يمتلك عدداً منها أكثر. خلوّ الجيوب منها فقر مؤذٍ، يدلّ على سوء الحظّ وقلة الدهاء والذكاء ويورث الشماتة والإحن. كانت تلك بداية عملية الربح والخسارة.

تعارفنا ـ ولا أدري كيف تعارفنا ـ فيما بيننا على أن علبة سجائر PLAYER'S (ونسميها أبو لحية) هي أنفس العلب.

في وسط غلاف العلبة دائرة، في وسطها رجل أزرق العينين، ملتحٍ. تميل وضعيته إلى اليسار قليلاً، على رأسه «بيريه» سوداء كُتبتْ

مكتبة الفكر الجديد

على حافتها الأمامية حروف يظهر منها (MARI فقط = MARINE) جندي بحري بريطاني. لحيته مقصوصة بعناية، ليس فيها حتى شعرة واحدة ناتئة. ينظر نظرة أفقية، توحي بالنظر إلى شيء بعيد، لكنها نظرة تخلو من أيّ تأمّل. خلفه بحر أزرق متموج تمخر فيه سفينتان متعددتا الأشرعة. تلك أوّل مرّة أرى فيها رجلاً ملتحياً ولا يعتمر عمامة وعباءة. كما لم أرَ من قبل بزّة عسكرية زرقاء. كذلك لم أرَ صورة بحر، وسفينة بأكثر من صارية.

جذبتني صورة الغلاف لحدّ الحلم. لماذا أخذني البحر؟ لماذا طارت بي الأشرعة؟ هل للأغاني الشعبية، ولم اكن أعي مراميها، وما فيها من سفر وفراق وتلوّع، علاقة بذاك التلوّع؟ هل سمعتُ شيئاً ـ دون فهم ـ عن مغامرات السندباد. لابدَّ من وجود أسباب أخرى لا أعرفها.

لماذا أخذني البحر؟ لماذا طارت بي الأشرعة؟ هل كانت تنعكس عليَّ مرارة الزمان، وعقم المكان، حتى في تلك السنّ المقهورة؟ أو عن طريق انعكاسهما على الأهل؟ كبرتُ على اللعب في الشارع، وإن بقيتُ حافياً.

التنافس على ما نحفظ من شعرٍ هذه المرّة. سألني صديق أكبر مني سنّاً، وملابسه أكثر جدّة ونعومة وطراجة، إن كنتُ قرأتُ قصيدة عبد الوهاب البياتي، التي نشرها في إحدى المجلاّت بالقاهرة:

«غليونه القذر المدمّى والضباب

وكوّة الخان الصغير

ورفاقه المتآمرون يثرثرون

«البحر مقبرة الضمير»

مكتبة الفكر الجديد

ويقلّبون كؤوسهم ويقهقهونْ

«هذا العجوز ألا يكفُّ عن الشخير»...

بالتأكيد، ما من علاقة لهذا الغليون القذر، بتلك الصورة للجندي البحري، مع ذلك فقد ارتبطتا بذهني تماماً. ما أذكره أنني أُعجبت بالصورة الشعرية، بمباشرتها، حيويّتها، شخوصها وهم من لحم ودم نراهم رأي العين. شخوص لم يخرجوا من كتب، بل من حيَاةٍ نعيشها. بدا لي الشاعر يضرب بعيداً في الافق، وجغرافية القصيدة على امتداد مستوى النظر، أي مواجهة الموضوع وجهاً لوجه، وهو غير ما ألفت مما حفظتُ من الشعر القديم، ذلك لأن تراكيب جمله الصعبة، وكلماتها الحوشية، تلهي كثيراً عن استملاح الصورة الشعرية، تماماً كما تشغل ترجمة حوار أجنبي على الشاشة عن التمعن باللقطات.

انتهت الصورة بـ «الشخير» فشعرت بآدمية الجملة وبشريّتها. لم أقرأ من قبل هذه الكلمة في محفوظاتي، كما لم أقرأ كلمة: «غليون»، وان كنت أراه يومياً بمئات الافواه. الأبيات إلى ذلك، رغم سرديّتها وروان موسيقاها رفعتني بطريقة ما، من الكتاب ورمتني في أتون الحياة، كما أعانيها وأعيشها. مع ذلك لم أحاول تقليد هذا النوع من الشعر، لأنني كنتُ هائماً هيام عشق بالشعر القديم وايقاعاته الفخمة، وهو ما يناسب درس الإنشاء، والمحافل المأساوية في مدينة الناصرية.

مدينة الناصريّة حين وعيتها محاصرة أوّلاً بالفرهود (هجوم الريفيين أيام القحط والجفاف على المدينة ونهب بيوتها بضراوة وتوحش). ربما لهذا السبب لم أُغنَ بالفلاحين، ولا بأغانيهم المشبعة بالأنين والبطء والارتخاء. كانت محاصرة ثانياً بطائرة

مكتبة الفكر الجديد

انكليزية، أخرجت المدينة من جلدها هلعاً. رجال بكامل ملابسهم ينبطحون على امتداد مجاري الأرصفة، حالما يسمعون صافرة الإنذار. امرأة عجوز تعيط، وتعيط ولا ترى الأمان إلاّ في قنّ الدجاج. قبل أن تفرّ المدينة برمّتها إلى الأرياف كان الناس يذهبون أفواجاً لمشاهدة مخ جمجمة رجل من بيت «العضاض»، مزّقتها صلية من الجوّ، على أحد حيطان زقاق ضيّق. ثم بدأ التموين، وانقطع السكّر. ارتبكت المدينة أكثر وأصيبت بصداع وذهول. المدينة محاصرة ثالثاً، بالسلّ والرمد والبلهارسيا والملاريا.

مع ذلك لم تكن الناصرية عجوزاً راكدة، وإن بدتْ كذلك. الطبقة المتوسطة في بداية تكوينها. ومعها دخلت الثياب الفرنجية والأدوية المطموغة بكتابة انكليزية، والعطور الأجنبيّة، وعطور ما بعد الحلاقة وصابون لوكس، وسكائر «أبو لحية»، كما دخل الكعب العالي، والتنّورة والبودرة والديتول.

مدينة الناصرية، في الواقع، هي أربع مدن في اليوم الواحد. تستيقظ صباحاً استيقاظ مريض، لا تقوى على غسل وجهها، وفي الظهيرة تبيضّ فيها الشمس السمتية، فتنام وهي تنزُّ عرقاً، لدرجة الموت. وعند العصر يدبّ في أوصالها الغزل، فتندفع إلى النهر، الذي هو سلال من طيور ونهود، وفيه يمشّط النخيل سعفه المضفور، وفي الليل تغنّي غناء حزيناً، ممتلئاً بالقلوب الجريحة والتأوه والنجوم والقمر وخذلان الزمان، وأهمّ من كلّ ذلك الضياع. لماذا الضياع؟ يخاصر المدينة من جهة الغرب، نهر الفرات، وهو أقوى إله بين آلهتنا. تشرب منه بكفيك كأنك تشرب رحمة، كأنك تسمعه يقول هنيئاً. وهو إلى ذلك صاف ترى أسماكه، أسراباً أسراباً، لا تشبع من الحركة واللعب.

مكتبة الفكر الجديد

إلى شمال الناصرية تقع أطلال «أور» السومريّة، وإلى جنوبها يسكن الصابئة المندائيون الذين يُعرفون بمهاراتهم بالأشغال الفضّية، ولغتهم السريّة، وملابسهم البيضاء والسحر. لكن المدينة منقطعة عن سومريّتها ولا تفتخر بها، ربما لأنها لا تعرفها.

يسكن اليهود في وسط المدينة، في أغلى البيوت وأعلاها، يلبسون أرقى الثياب، ولهم لهجة خاصة، ووجوههم بيضاء.

أما المسيحيون فعددهم قليل لا يتجاوز خمس عوائل، إحداها تمتلك صيدلية يوسف (عن سمير بن يوسف الصيدلي كتبتُ قصيدة «وهم الأسماء» بلندن في ١٢/ ٣/ ٩١) ولها واجهة زجاجية، وربما كانت هي البناية الوحيدة بواجهة زجاجية كبيرة.

الغرباء الوحيدون في المدينة هم الجنود. هؤلاء يأتون من مختلف المدن. تقع ثكنتهم العسكرية على الجانب الغربي من النهر، وهي المبنى الوحيد هناك.

الجنود هؤلاء فئة خاصة جداً، ولهم امتيازات حكومية على السكان. فمن ناحية، إنهم فاشلون في الدراسة عموماً أو فقراء، لم يكملوا الدراسة ومن ناحية ثانية، يأكلون ويشربون وينامون مجاناً، وهم إلى ذلك بعيدون عن أهليهم وعن الرقابة الاجتماعية التي نشؤوا عليها، فما من رادعٍ إن عاثوا فساداً في مدينة أخرى، وعاثوا فساداً.

يندفع الجنود إلى المدينة يوم الخميس بعد الظهر، ويوم الجمعة وكأنهم خرجوا من محبس مذلّ ومهين.

يحتلّون المقاهي والشوارع أفواجاً أفواجاً، ويتجمهرون في رؤوس الشوارع بعيون صيادين. ولكونهم غرباء، ومنعزلين عن الحياة العادية تقريباً، فإنهم لا يراعون الأعراف وما من أحد بقادر

مكتبة الفكر الجديد

على الاعتراض. فالجندي يُدرَّب وراء جدران تلك الثكنة على نصرة أخيه الجندي ظالماً أو مظلوماً. يتلصصون على الفتيات الشابّات، ويطاردون الصبيان خاصة بالحاح كلاب (ذكرت إحدى عمليات الاغتصاب في قصيدة «الجندي وبنات نعش» في ٢/ ١/ ٩٨).

على الرغم من أن المدينة كانت مضاءة، إلاّ أن قلة من البيوت فيها تيّار كهربائي. الراديوات موجودة في المقاهي الكبيرة فقط، المدينة تجترّ أيامها وشؤونها وأحاديثها مرّة بعد مرّة بتنعّم. نفس النكتة تعاد عشرات المرات ونضحك لها عشرات المرّات، نفس الحدث تعاد وقائعه عشرات المرات، وفي كلّ مرة نأسى.

أصبح ذهاب الطلاب إلى المدارس من شتّى الازقة، أنهاراً صغيرة لاغطة لم تعهدها المدينة من قبل.

رغم افتتاح أوّل مكتبة مقابل صيدلة يوسف، ورغم الإقبال العجيب على التهام الكتب، إلاّ أن حركة أدبية لم تظهر بعد، اقتصر النثر على كتابة المقالة فقط. كان في المدينة ثلاثة شعراء، على رأسهم رشيد مجيد. وهو شخصية غريبة.

مصوّر فوتوغرافي. لم يكمل دراسته، يطالع بقلّة ويتمثل ما يقرأ. لا يعرف الاوزان الشعرية تقطيعاً، ولكنه لا يخطئ في الوزن. أميل إلى الطول، ممتلئ الجسم، سريع المشي، وجهه مشرّب بالحمرة ويداه وشفتاه ترتجفان انفعالاً. كان شيوعياً. وكنّا نهابه. شاعر موهوب فعلاً، في بيئة غير موهوبة. قصائده الأولى مصنوعة من نيران واقتحام وكلمات شرر. مع ذلك لم يكن يحسن الكلام عن الشعر. إنما يقتصر قوله على: قصيدة جيدة أو قصيدة غير جيّدة.

مكتبة الفكر الجديد

كان لهذين الحكميْن وقع مدير مدرسة وهو يعلن النتائج: ناجح، راسب.

أحبَّ يهوديَّة، فكاد يهلك احتقاناً وتزداد حبسة لسانه. كتب عنها ملحمة شعرية وهو في السجن، وكان يرسلها أجزاءً إلى صديقه. وحينَ هُجّرت إلى إسرائيل، ظلَّ يُعيد طباعة صورتها الفوتوغرافية، يزيدها رتوشاً، حتى شككنا أنه يرتّيها وأنها تناغيه. ثمة شاعر كردي غادر إلى بغداد اسمه عبد القادر رشيد الناصري. ما تزال أنباؤه طرية في المجالس الأدبية. أصبح مشهوراً ببغداد، وكان ينشر في مجلة «الرسالة» القاهرية.

لا يفوتني أن أذكر شاعراً رقيقاً لدرجة الذوبان وانسانياً لدرجة نكران ذاته. اسمه فاضل السيد مهدي. لم يكمل الدراسة، وكان بقّالاً، لأن أهله موسرون ولم يجد وظيفة. شيوعي متكتم لا يبشّر بفكره. انفعاله الشديد يفسد عليه التحكّم ببناء القصيدة العموديّة، يقرأها علينا والدموع تملأ عينيه، ولكن ما من دموع في القصيدة. الغريب أنه كان يكتب قصيدة النثر، ببراعة صغيرة محببة، هي أقرب إلى اللقطة منها إلى القصيدة، وكان ينشر تباعاً. لم يكن مثقفاً لذا بقيت فطرته صافية، لم تخدشها الكتب.

هؤلاء الثلاثة أكبر منّا سناً، أي أكبر من جيلنا.

معي في الصف السادس الابتدائي طالب اسمه محمد فائز (محمد الفائز فيما بعد) قيل إن والده نجدي غني، وإن أمّه ماتت أو طلّقت، وأن زوجة أبيه تهمله وتهمل تنظيف ملابسه. كان يُتأتئ. لا أثر للتأتأة حين يغنّي، أو حين يرتّل القرآن. لم يتوفق في الدراسة لأسباب لا علاقة لها بالذكاء. ترك المدرسة وعَبَد جبران خليل جبران ونيتشه.

مكتبة الفكر الجديد

لم ألتقِ به لمدّة طويلة إلى حدّ ما، إلاّ حينما نشر أوّل قصيدةٍ له وكانت على بحر «السريع». اكتشفت خطأين في الوزن، تقطيعاً وايقاعاً. فقد تعلّمتُ أوزان الشعر ـ ربما كلّها ـ في الصف الأوّل المتوسط.

أراني محمد الفائز في تلك الفترة المبكرة، رسالة من أحد المحررين لإحدى المجلاّت ببغداد. يقول له المحرر فيها إنه سينشر الحِكَم التي أرسلها لو أرفقها بأسماء قائليها من الفلاسفة والحكماء. كتب الفائز له رسالة يختمها بالقول «هذه للعبد الفقير كاتب السطور» ونُشِرتْ فيما بعد، كانت تلك هي المرة الأولى التي اسمع فيها «العبد الفقير» فكبر في عيني.

أصبح محمد الفائز فيما بعد وكيل وزارة بالكويت ومن أهمّ شعراء البلد.

يجدر بي أن أذكر الشاعر العماري حامد العزّي الذي درّسنا اللغة العربية. شديد الحيوية والتواضع، لا يقارع أو يكابر بمعلومات. عيناه صغيرتان نافذتان وفيهما حوَل قليل. يصف أنفه بأنه روماني ويضحك.

العزّي يتدفق شعراً. ينظم القصيدة بسرعة متأنية، وبثمل. يرنم الشعر، بتلذذ وصوتٍ عميق موسيقي. (تأثرتُ بطريقة إلقائه ومازلت)

أوصلنا العزّي إلى الشعر الرومانسي وهو الذي عرّفنا بإلياس أبي شبكة وعمر أبي ريشة، كان يقرأ علينا قصائد مترجمة عن الفارسية، ويدعي أنها ترجمته. نحترمه بالتأكيد لكبر سنّه، ولكنه لم يعاملنا إلاّ ندّاً لندّ. من تواضعه أنه يرينا القصيدة قبل إلقائها أو نشرها، ويطلب منّي بودّ أن أنبهه ان كان ثمة خلل وزني فيها، وما من خلل، لأنه يوزن الشعر عن طريق الأذن. باختصار، لقد غرس

مكتبة الفكر الجديد

العزي بمدينة الناصرية، أينع الألفاظ وأرق الموسيقى. كانت موضوعاتنا قبل مجيئه ممتلئة بالبَشَر، وداعاً ولقاءً، قرعاً سياسيّاً، ورثاءً وهجاءً، ندور عليها بلا ملل، نجترّها. لكن بمجيء العزّي، تغيّرت الصورة فعلاً، أضاف إلى أدواتنا الشعرية ريشة رسام، ورشٌ أمام أعيننا الألوان في الافق، والألق والنور. حرّك الريح بالأنسام والأشذاء وكانت قبل ذلك ساخنة بالآه والآه نحمّلها السلام إلى عشيقات مجهولات. أصبحت الصورة الشعرية أكثر طراوة بالأنداء. وبين عشية وضحاها، قلّدناه، فارتفعت خيالاتنا الشعرية إلى أعلى، وكأن بأجنحة مسحورة.

كان حامد العزي صديقاً أستاذاً، وصديقاً أباً، لا يخجل مني حافياً وبالدشداشة وأنا أسير معه على النهر. وهو الذي نصح أخي الكبير بأن يُسمعني الموسيقى الغربية الكلاسيكية. تأتي من إذاعة بغداد، مشوشة، وحين تخرج من مذياعنا القديم تصبح مجرد مطارق تعلو وتخفت، تغيب وتزحف من جديد.

لم يكن ذلك كل النسيج الثقافي لمدينة الناصرية في أوائل الاربعينات. على أية حال، في بيتنا في شارع الهوى، حديقة مستطيلة فيها شجرة راسقي. ورودها الصغيرة البيضاء كاللؤلؤ الرطب. لم أشمَّ عطراً كعطرها. تملأ حتى أقصى زوايا البيت. لا أدري لماذا أستحثُّ كلما ذكرتها وأشعر بذنب. ذنب مَنْ جفا حبيبته وندم بعد فوات الأوان. لماذا أشعر بذنب يا رب! لم أفارقها ولكني اقتلعتُ عنها مجبراً. لو كانت تقرأ وتكتب، لبعثت لها رسائل الآن. بالتأكيد إنها انثى مسحورة .أحسّتها للآن تعرش فوق صدري. فراقُها عليَّ أمضُّ فراق. كان يجب أن تسجّل كأحد أفراد العائلة في دائرة النفوس.

مكتبة الفكر الجديد

كنّا نسكن في البيت ـ غير شجرة الراسقي ـ أربعة، أمّي الأرملة، وجميل الأخ الأكبر، وجليل الأخ الأوسط، وصلاح أي أنا. كلّنا يتامى بكلّ ما يعنيه اليتم. كنّا شبه أغنياء. والدي ضابط في الجيش ومنحدر من عائلة إقطاعية تمتلك أراضي شاسعة. وها نحن الآن فقراء نعيش على بيع أثاث قديم. البيت ملكنا. جعنا ولم نسأل أحداً. بنظافة الهندام، عوّضتنا الوالدة عن رثاثة الملابس. في البيت دجاجات، عشت معهنّ قبل الذهاب إلى المدرسة، كلدات. تعرفت عن كثب على ألوانهن بالتفصيل، وعلى أخلاقهنّ، كيف تنمو الفرخة لتصبح أنثى بيوضاً، وكيف يحمرُّ عرف الذكر الصغير يوماً بعد يوم. البيض يفقس أمام عيني، ثم تدرج معهم الأمّ تعلمهم النقر والنبش، وتدافع عنهم باستماتة، وقوقأة صارخة.

في البيت كذلك قطة. قفزت مرّة، فقلبت الفانوس النفطي، فكاد البيت يحترق. (منذ ذلك اليوم وأنا أحذر من القطط).

مع القطة لدينا كلبة سوداء ودود، ألفناها حتى صارت فرداً منّا. أعطتني أنا بالذات، الحماية والأمان. من سوء الطالع أنها تكره المسبحات إذا كانت سوداء، فما أن يمرُّ رجل وبيده مسبحة سوداء حتى تنطلق، تقطعها وهي تنبح، وكأنها تشتم صاحبها. اشتكى بعض رجال الدين منها، وحين لم تنفع الشكوى، تفادوا المرور بشارعنا.

بعد حوالي ثلاث سنين، أصيبت بداء الكلب، هكذا قيل.

تبرّع أحد الجيران بقتلها. كانت فرصة أخرى له لأن يستعرض عضلاته أمام فتيات الحارة. ضربها على رأسها بلوح حديدي ثقيل. بطّت ولم تصدق ما حدث. المفاجأة أكبر من الألم. دارت على نفسها عدّة مرات. حاولت أن تعضّ ذنبها. تصوّرت ذنبها هو

مكتبة الفكر الجديد

المسؤول. تدور وذنبها يدور معها. عاطت ثانية، ثم تواصل عياطها. ضربها ثانية، فاندلق دمها من فمها، ووقعت على الأرض. حاولت أن تتنفس، شرقت، رفست، شهقت، ارتجفت أطرافها وبقيت عيناها نصف مفتوحتين، كأنها تتوسل، كأنها تتوسل، كأنها تستنجد، جُرِّتْ من ذنبها بعيداً. يومها ثُلِمت الحياة. بقيت مكسورة لحدّ الآن.

من باب الصدف، أن سكرتيرتي الانكليزية، أهدت لي كلبة سوداء من نوع كلبتي الأولى، عاشت معنا خمسة عشر عاماً. بعد ذلك أصيبت بالعمى والصمم والشلل. كان لابدَّ مما ليس منه بدّ. حملتها إلى الطبيب، فاختار لها الموت شفقة ورحمة. تورمت حنجرتي، وتنمل رأسي. شرح الطبيب لي مراسم الموت ومساحة القبر، ونوع الآجر، وشاهدة القبر. (رثيتها في قصيدة «في رثاء لولو» عام ١٩٩٨).

لم أرَ ببيتنا بالناصرية يوماً، جريدة أو مجلة أو كتاباً حتى ولا القرآن الذي لم يدخل في أحاديث كبارنا كاستشهاد. مع ذلك كان خوفنا من الله عظيماً، ونخيف به الآخرين. نار الله بيننا أشهر من جنّته.

تشكلتْ معلوماتي مما كنت أسمعه من خرافات، ومن أغانٍ وما أكثر المغنين بمدينة الناصرية! ومن تهاويد ونواح. وفي المدرسة حفظنا الأناشيد والقصائد وبعض التمثيليّات عن الحيوانات. في الصف السادس كنتُ أحفظ مسرحية مجنون ليلى بكاملها لأنني اشتركتُ في أحد الأدوار.

شعرنا ونحن ننتقل إلى المدرسة المتوسطة، بأن مرحلة جديدة من النضج ابتدأتْ، أو أن نهاية الطفولة خُتمتْ. بناطيلنا الآن

مكتبة الفكر الجديد

طويلة. ما من اصطفاف يومي وانا‌شيد، وما من تفتيش على أظافر اليد وما من قصاص.

عن طريق درس الإنشاء ظهرت الحاجة إلى قراءة النثر.

لا أدري من أين جاءتني الفكرة الغريبة، بأن الكلمات الصعبة العويصة هي التي تزيد الإنسان رفعة ومقاماً. (مازلت أحمل نفس الفكرة، وهذا سبب تلذذي بقراءة القاموس وكأنه رواية من أعلى المستويات).

على هذا الأساس انكببتُ ولمدة ثلاثة أشهر على قراءة «البيان والتبيين» للجاحظ، ولم أقرأ منه، إلاّ ستين صفحة. تجربة مريرة. كلما ذكرتها ضاق نفسي.

مع ذلك، فربما عرفتُ عن هذا الطريق، أن إتقان الأدب يحتاج إلى عناء وجلد ومثابرة.

الكتابان اللذان حبّبا لي القراءة، وأثّرا فيّ تأثيراً لم ينقطع حتى الآن، هما أولاً كتاب لا أذكر عنوانه ولا اسم مؤلفه. يدور الكتاب حول مجرمين ولصوص واقعيين، أي محضر شرطة. كتبه معاون شرطة كمذكرات. الأحداث تتطور بصورة فعليّة بواسطة الاسئلة والأجوبة. ليس في الكتاب حشو كما اذكر، وليس فيه انتقال من حاضر إلى ماض أو تطلع إلى مستقبل. لا أهمية للزمن. من خلال إفادات المتهمين، تظهر الجريمة، كنتُ فرحاً بهذا الكتاب، أعدت قراءته عدّة مرات، وفي كلّ مرّة تغمرني نشوة جديدة. تعلّمت منه ان للأدب غاية ملموسة. تعلّمت منه كذلك نشوة الانتصار على الشّر. (مازلتُ لحدّ الآن أراقب بشغف وخوف لذيذ، البرامج التلفزيونية التي تصف آثار الجريمة وتطلب من المشاهدين المساعدة في كشف الجاني).

مكتبة الفكر الجديد

هكذا تغلّبت لديَّ فكرة تفضيل الحقائق الواقعية ذات النتائج الملموسة على الحدوس الغيبيَّة. ربما كانت تلك، البذرة الأولى التي تطوّر عنها ولعي بالاهتمام في وضع الانسان في المجتمع، وعدم اهتمامي بوضعه في الوجود.

الكتاب الآخر الذي قرأته بلهاث حقيقي، وعلى ضوء القمر حرفياً، هو «سيرانو دي برجاك»، ترجمة المنفلوطي. رشَّ هذا الكتاب في جسدي كلّه لذّة حزينة، وخدراً، لم أجد لهما مثيلاً فيما بعد، إلاّ حين تعرفت على دستويفسكي. غرس هذا الكتاب، منذ ذلك التاريخ المبكّر، فكرة الحبّ المقدَّس، الحب الذي هو أقوى من أية رابطة أخرى. ربما بسبب علاقتي بأمّي الارملة من ناحية، وبسبب هذا الكتاب، فإني ما كتبتُ غزلاً، إلاّ وأحطتُ المرأة بهالة من القدسية، والتعبد والأمومة.

في عطلة الصف السادس الابتدائي، انكببت على حفظ الشعر القديم بصورة ببغاوية وعشوائية تأثراً بالشيخ حسين. حاولتُ أن أكونه. الشيخ حسين شبه أعمى. يأتي إلى الناصرية في أيّام عاشوراء لإلقاء الخطب والمراثي الحسينيَّة. كان هذا الرجل يحفظ دواوين برمّتها، حتى بات انطباعنا عنه، أنه ما من قصيدة إلاّ ويحفظها. كنت أحد المداومين على حضور المآتم الحسينيَّة في أيام عاشوراء. لم أكن متديناً، كما لم يكن مقتل الحسين وعائلته، والملابسات السياسية، من همومنا نحن الأطفال. شعرنا أنها خاصة بالكبار وهي مسؤوليتهم. كنت فقط مندهشاً باللغة الفصحى وايقاعاتها، ومنسحراً بالحنجرة البشرية وهي تئنّ بالقصائد الرثائية الشجية. طريقة التطويح، لا المعاني هي التي تخمش سويداء القلب. الصوت لا الكلمات. مع ذلك، قد أجوِّز لنفسي القول: إن

مكتبة الفكر الجديد

شعري اصطبغ بصورة عفوية بالآلام الجسدية الشيعيّة التي لم أعِ مصدرها إلاّ قبل سنوات.

على أية حال، في هذه الفترة بدأتُ أكتب الشعر بعسرٍ شديد، الكتابة وحدها تدلّك على فقرك الأدبي، ونقاط ضعفك. القصيدة لا تزيد ـ مهما حاولتُ ـ عن سبعة أبيات، تنضب أفكاري تماماً، وأصفرُ. ما العمل؟

قلت لأنظر في قصائد الجواهري، كيف يبدؤها؟ كيف يطوّرها؟ كيف يختمها؟ قرأتُ ديوانه على هذا الضوء حبّة حبّة، لأتعرف على تقنياته. (ما يسحرني بالشاعر حتى الآن تقنيته). بهذه الوسيلة طالت قصائدي إلى العشرين بيتاً، وفي مرّةٍ بلغت إحدى القصائد سبعة وثلاثين بيتاً، فأصابني الزهو، وحين نُشرت في نشرة مدرسية وعُلّقت على الحائط، نظرتُ إليها وأصابني الخوف.ابتعدت عنها متنصلاً عن مسؤوليتها وهو شعور يلازمني حتى الآن كلما نشرتُ شيئاً، نثراً أو شعراً.

قبل أن انتقل إلى مرحلة أخرى، قد يكون من المفيد ذكر بعض الحقائق:

١ ـ أُصبت في طفولتي بالتراخوما لأشهر، ولم أراجع طبيباً، وبالملاريا والبلهارسيا والتيفوئيد، بفضل جهل والدتي. تُركت لعناية الله والموت. مغمًى عليَّ، ولا أصحو إلاّ على بكاء والدتي. كانت تردد على مسمعي الذابل: سأشتري لك خروفاً أبيض إذا شفيت. أبيض أبيض وتبكي. بالصدفة المحض، سكن طبيب شاب جديد في بيت جدّتي. وعن طريقها عالجني مجاناً، وزرقني بعدّة أبر لأيام، فتعرفت بخدر على الدنيا من جديد. مشى البرء في الأوصال.

مكتبة الفكر الجديد

٢ ـ كانت مصيَدَتي بجيبي دائماً. أعتدي على حرمة كل أنواع الطيور وأعشاشها وبيوضها. الفخر بإصابة الهدف شغلتني عن أية رحمة إنسانية. حلمت مرّة أنني وسط غابة وأمامي بحيرة داكنة. تلصصت على طير من بين الأغصان المتشابكة ومططت المصيَدَة. فاذا بعليّ بن أبي طالب يضربني بكف كبيرة على مساحة ظهري كلّه. مازلتُ أشعر بالألم، ومنذ ذلك الحلم تُبتُّ توبة نصوحاً.

٣ ـ ضاقت بنا الحال تماماً، فاستقرّ الرأي على أن يشتغل أخي الأكبر جميل وهو في الصف الثالث في المتوسطة، كعرضحالجي، مقابل دائرة البريد. كانت ترسلني والدتي لأرى، هل لدى أخي زبون ما. كان مع أخي خمسة آخرون من العرضحالجية، وهو أصغرهم، وأقلّهم حرفية، وطاولته خالية من بقع الحبر الدالّة على طول التجربة في المهنة.

في إحدى المرّات، كنت أقف إلى جانب أخي وإذا بقرويّ بائس، طلب من أحد العرضحالجية، أن يكتب له برقية مستعجلة. كانت دائرة البريد تفرض عشرة فلوس على الكلمة الواحدة. أملى القروي البائس صفحة كاملة، كلفته كثيراً. لكن ما أنْ ذهب، وانعطف في الشارع، حتى قفز العرضحالجية الخمسة المحترفون من أماكنهم بابتهاج، وقرأوا البرقية ثانية. قرروا حذف الكلمات الزائدة ليقبضوا ثمنها. تبدأ البرقية مثلاً: «إلى ابن العم السيد فلان الفلاني المحترم»، حذفوا أولاً ابن العم، تناقشوا حول كلمة السيد هل لها ضرورة؟ قرّروا إما إبقاء السيد وحذف

مكتبة الفكر الجديد

المحترم، أو إبقاء المحترم وحذف السيد. قرروا حذف «إلى» الأولى، فأصبحت الجملة «السيد فلان الفلاني» وهكذا ربحوا بجملة واحدة ثمن أربع كلمات، ثم أضافوا إليها ثمن كلمتين أخريين، حينما شطبوا بالإجماع «إما بعد»، كان النقاش يدور حول كلّ كلمة، هل لها لزوم أم لا. ولم يُبقوا من الصفحة الكاملة، إلاّ على ستّ عشرة كلمة.

كانت تلك عملية نقدية تحليليّة تطبيقية ظلّت معي في العقل الباطن حتى الآن. فما كتبت شيئاً، إلاّ وصار فوق رأسي هؤلاء العرضحالجيون المحترفون الخمسة. على أية حال، لم أرَ يوماً أخي يكتب عريضة لأحد. أُغلق هذا المشروع، «وما أضيق العيش! وما من فسحة لأمل».

٤ ـ كنت مولعاً، ربما بالفطرة ـ بالإلقاء. وحين نصطفّ نحن الطلاب ونقرأ الاناشيد المدرسية، يختارني المعلمون لإلقاء إحدى المحفوظات. في الصف السادس الابتدائي، فزت بالجائزة الأولى للخطابة لمدارس المدينة. كان مهرجاناً حاشداً نظمته مديرية التربية، وامتلأت ـ حرفياً ـ صالات سينما الأندلس بالحضور. ثمّ كانت إدارة المدرسة الثانوية، تنظّم كل يوم خميس صباحاً، ساعة كاملة لأفضل المتبارين. في الشهر الأوّل فزت بالجائزة. إلاّ أن المدير ارتأى ان اشترك ما شئت، على أن لا أُعتبر من المتبارين. كان ذلك أكبر تكريم حملته بتلك السنّ.

لم يكن صوتي عريضاً أو جوهرياً، أو عميقاً. ربما طريقة الإلقاء هي التي كانت تغطي على أية عيوب صوتية. ولم يأت ذلك اعتباطاً. فقد كنت أقلّد الكبار الناجحين في

مكتبة الفكر الجديد

الإلقاء، من حيث السرعة والبطء، من حيث الصعود والهبوط لتجسيد المعنى. وكانت في أنفي خنّة. قرأت في المتوسطة كتاب «ديموستين بطل اثينا» لقدري قلعجي، كيف استطاع ديموستين التخلص من تأتأته؟ ومن الحبسة في لسانه، رحت أقلّد ما قام به من تمارين، فأذهب بعيداً عن المدينة، وأبدأ بالقراءة بصوت عالٍ. تمارين كادت تكون يومية، خاصة إذا خلا البيت لي. ثم قرأت لماذا كان هتلر يؤثر في الجماهير؟ كيف ينظر إليهم واحداً واحداً وكأنه يخاطب كل واحد على حدة. وما هي إشارات يديه؟ مع ذلك فإلقاء المرحوم حامد العزّي من أفضل ما سمعتُ من إلقاء للشعر الرومانسي الشفاف. ينظر إلى الحضور بتركيز، ولكنه لا ينظر إليهم في نفس الوقت، يستبطن الكلمات، وكأنك تسمعها وهي تقرأ نفسها.

٥ ـ نُشِرتْ وأنا في المدرسة المتوسطة أول قصيدة لي في جريدة «الفيلسوف» التي كانت تصدر بمدينة العمارة! نُشِرت لي بعض القصائد (أو ربما قصيدة واحدة) ببغداد في جريدة الاستقلال. كما نُشِرت لي أوّل مقالة نقدية في جريدة «الهاتف» الأدبية. في هذه الاثناء، كنت شبه معروف في الكتابة عن آل البيت ومقتل الحسين على وجه الخصوص. فلقد أدخل في رأسي بعض شيوخ الدين، أنّ سيكون لي قصر في الجنة عن كلّ بيت أكتبه في آل البيت. صدقتهم ولم أصدّقهم، فقد كان هوسي بكتابة الشعر أكبر من أيّ ثواب. لابدَّ أن لي الآن محلة كاملة من القصور هناك. ولكن ماذا لو دخلت جهنم (وهو أكثر احتمالاً!) فلمن ستكون تلك القصور؟

مكتبة الفكر الجديد

٢

بغداد

أكملت الصف الخامس الثانوي في الإعدادية المركزية ببغداد.

تزوّدت من الناصرية بهمّين هما النهر ومحطة القطار.

كنت منذ بدء وعيي الأول، نهب فكرةٍ لم أقلْها إلى أحد. ولأني كتمتها استفحلت، وبصورة ما عزلتني عما يحيط بي، وصبغت نظرتي إلى الحياة بسوداوية.

كنتُ أتساءل: ماذا نفعل لو جفَّ النهر؟ أرقتني الفكرة، لاسيّما وان الحسين وذويه ماتوا عطشاً. تصَورت أن موتنا عطشاً، هو أعسر موت. رحتُ أبني في ذهني الصهاريج والأحواض وأجمع المطر. أنظر إلى السماء وما من غيمة. أمطار الشتاء لا تكفي. لا تكفينا، لا تكفي حيواناتنا، لا تكفي نباتاتنا. رحماك أيّها النهر لا تجفّ.رحماك. الموت عطشاً أعسر موت. اذن بهذه البساطة يمكن أن نزول، بكل تاريخنا ومدارسنا وأحلامنا، ونصبح أثراً بعد عين. هكذا أصبحت اللاجدوى نظرة واقعية استحوذت على كلّ ما كتبت واكتب. ظاهرة طبيعيّة واحدة تكفي لزوالنا.

مكتبة الفكر الجديد

أمّا محطة القطار فلها فعل اقتلاع الجذور.

محطة قطار الناصرية فرعيّة. فالقطار من بغداد إلى البصرة يتوقف عند المقيّر، ومن المقيّر قطار فرعي يصل إلى الناصرية صباحاً، وفي المساء يغادر القطار إلى المقيّر للالتقاء بالقطار من البصرة إلى بغداد.

مشهد القطار جليل مهيب، وعضلاته الحديدية جبروت هائل، أصبح معه السفر على القدمين أو على ظهور الدواب أو حتى في السيّارات شيئاً رثّاً وخطراً ومملاً. حديد لا يشتكي من تعب أو ألم، أو ضياع. لا يتصبب عرقاً ولا يلهث. كان القطار تدشين عصر جديد، ووجوده في المحطة بداية غلبة الحديد على كل الصناعات الخشبية. مع ذلك لم يتغيّر المحتوى العاطفي للاستقبال أو الوداع.

المحطة تزدحم بالمسافرين والمودعين مساءً، الشمس تنحدر قليلاً قليلاً باحمرار، يتجمع الناس كتلاً ودوائر. الأحاديث ممزقة متشنجة، والصمت متورم مملوء بالهواجس والخوف. تغرب الشمس قليلاً بحزن. ولكن ما أن يصيح القطار صيحته البخارية الحبيسة، حتى يتفجر البكاء عالياً. يطول العناق، وترتفع الأيدي بتلويحات غرقى. تغيب الشمس، ويندفع القطار بلا رحمة إلى الأمام بعينه الضوئية الوحيدة في عباب الظلام. يعود الناس في اندحارٍ وقنوط وتشنج. يتخذ الوداع في الناصرية صبغة الفراق الأبدي، في حين يتخذ الاستقبال صبغة النشور بعد الموت.

استحوذت هاتان الثيمتان على معظم شعري، ربما الوداع واللقاء أهم ما كتبت من قصائد، الاشياء المفقودة، الخوف من الأشياء التي ستُفقد، اللقاء بالأشياء المفقودة وقد تغيّرت لدرجة نكرانها، جعلت الحزن أصلاً، والفرح فرعاً غرياً وطارئاً. وهكذا

مكتبة الفكر الجديد

فعودتي للماضي ـ كما يبدو ـ ليست حنيناً بقدر ما هي رثاء، ليست عثوراً على ملاذٍ، بقدر ما هي مرور عابر على غدٍ شاخ ساعة مولده.

حقاً كتبت بعض القصائد مبشراً بالغد. تصوّرته بوابة النور الذي سيغمر البلاد من أقصى جبالها إلى أقصى أهوارها. تصوّرته «المهدي المنتظر» كنتُ أسيرَ نظرة سياسية. على أية حال كنت أنشد غداً يسود فيه العدل بين الناس، الخبز والتعليم للأطفال. الدواء والعلاج للجميع، التقاعد للمسنين، كرامة المرأة، حرية العقيدة والفكر.

مع ذلك يبقى هذا الغد حلماً جميلاً يمكن تسويقه إلى الجمهور والتصفيق. إلاّ أن غدي الفردي خطِر وعقيم. أسعى إلى غدٍ لا يجفّ فيه نهر الفرات، وإلى غدٍ يظهر فيه الله علانية نراه ونسمعه ونلمسه، ليضع حدّاً للشك والجدل . أسعى إلى غدٍ لا يشيخ ساعة مولده، إلى غدٍ كامل بلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، إلى غدٍ يجيبني عن سؤال مؤرق: ما سبب وجودنا؟ لماذا خلقنا أصلاً؟

على أية حال، لا تضمُّ الإعدادية المركزية ببغداد، إلاّ أذكى طلاب العاصمة، صفوفها مقسمة من ألف إلى واو حسب درجات الامتحانات في المدارس المتوسطة.

سكنّا في منطقة الشوّاكة، الكرخ، بالقرب من نهر دجلة، خيّل لي أن نهر دجلة أكثر وداعة وأنوثة وتحضراً من نهر الفرات، رغم أن ضفتيه قذرتان. البيوت والنباتات تحيطه من الجانبين، فشعرتُ به أسيراً مروَّضاً. الفرات في مدينة الناصرية مفتوح. البيوت مفصولة عنه بشارع عريض في جانبه الشرقي، أما جانبه الغربي فبساتين ورمّان وتوت وباقلاء وأشجار الغَرب والفواخت والبلابل. منظر

مكتبة الفكر الجديد

الفرات الريفي السحنة يوحي بحريته، وليديه مجال كبير للتمغط حين يستيقظ صباحاً عند صياح الديكة والأذان.

أجرنا ثلاث غرف في الطابق الأعلى من امرأة أرملة تسكن في الطابق الأسفل، سمينة بيضاء، مربربة بترف، لا تنظر بوجه أحدٍ تديّناً وحياء، قليلة الحركة، تجلس في غرفتها المظلمة لساعات. لا تزور أحداً، ولا يزورها إلا امرأة تأتي لها كلَ اسبوع مرّة، بما يكفيها من قوت. جمالها ممزوج بالنعومة الحيية والنعمة والحزن والثياب السوداء. لا نسمع منها إلاّ النشيج على زوجها الذي مات قبل أشهر. تصلّي بلا انقطاع وتسبّح بمسبحة سوداء طويلة. لم أسمعها تتكلم حتى لأمّي. مع ذلك كان حزنها الحزين قد آخى بيننا بصمت حنون، وقرّبنا ـ بصورة ما ـ من حبّ بغداد التي تصوّرناها مدينة غربية متكبرة ذات لهجة متعالية. مع حزن تلك المرأة تآلفنا مع المكان، وزالت إلى حدٍّ ما الوحشة. كنّا محظوظين حقاً أن نتعرف على بغداد عن طريق هذه المرأة وهي في أقصى حالاتها الإنسانية ضعفاً. الحزن وحده يرجع الإنسان إلى جوهره الحقيقي، فيفتش عن أخيه الإنسان.

في الشواكة بيوتات عريقة وموسرة، مبانيها عالية متلاصقة، وأزقتها ضيقة كثيرة الالتواءات، بعضها غير نافذ. الاولاد في هذه المنطقة المتحاضنة المتلامّة، حريصون على تطوير هواياتهم، بينهم أبطال مشهورون في الرياضة، ولهم فيها أرقام عراقية قياسية. بينهم رسّامون وخطاطون وشعراء. وهم إلى ذلك يعرفون أسماء الأفلام الأجنبية، وأسماء الممثلين، ويقرأون مجلة «الآداب» و«الأديب» و«الرسالة» و«الرواية» التي كانت تباع على شكل مجلدات. انحرجت من تخلّفي بينهم، شعرت أن معلوماتي مكتبية لا علاقة

مكتبة الفكر الجديد

لها بالحياة. جئت من الناصرية بنقود أهل الكهف ولا أملك غيرها.

مضت عليَّ ثلاثة أشهر في الإعدادية المركزية، فإذا بي في مأزق حقيقي، الطلاب يتقدمون في الدراسة، يتدفقون علماً وحيوية وتفاؤلاً، أذكياء فوق العادة، لمّاحون فوق العادة، إلاّ أنا كنتُ أراوح في مكاني، أنكمش يوماً بعد يوم. كنتُ فريسة الجوع في البيت، وقصر النظر في المدرسة لدرجة لا أرى معها السبورة رغم اني أجلس على بعد مترين منها. أكثر من ذلك، لم يكن راتب أخي بكافٍ لشراء الكتب المدرسية أو النظارات الطبية. بلغ يأسي مرّة أقصاه، فاندفعت إلى غرفة المدير، شكوتُ له الأمر بتلجلج وبؤس. انفعل المدير بأقصى شفقة، وأخذني بأبوّة محكمة إلى مخزن الكتب، وانتقى معي الكتب المطلوبة، لامني على عدم مجيئي إليه منذ البداية، وأوصى بي المعلمين خيراً، وكانوا قد احتاروا في أمري.

احتضنتُ الكتب احتضان جسد لجسد، أورّقها كتاباً كتاباً. ما زال طازجة، مقصوصة للتوّ كحلاقة جديدة معطّرة، رائحتها مركزة، لم تتلاشَ بعد بفعل الاستعمال والتقليب. ربما كانت هذه هي المرة الأولى التي امتلكت فيها شيئاً جديداً ورائحته طازجة ولو إلى حين (كان علينا نحن الفقراء، أن نرجع الكتب في نهاية السنة) كنت أصغر الأخوة، ألبس ملابس أخويَّ حينما تضيق عليهما وحين أصبح بحجمها. كانت شهيتي لقراءة الكتب كلها في ليلة واحدة لا حدود لها، أقرأ صفحة هنا، صفحة هناك.

نمت تلك الليلة قرير العين كأنني عثرت على أهلي بعد ضياع طويل، كنت منذ البداية أشعر بنشوة في درس الرياضيات، ألغاز عليك حلّها تماماً مثل ألغاز ذلك الكتاب الأوّل الذي قرأته. اللغة

مكتبة الفكر الجديد

العربية نشوة أخرى وطرب، فيها ألغاز مصنوعة من موسيقى. اللغة الاجنبية بالمقارنة ضيف لا يُملُّ، حلوى تملأ الفم. حتى وأنا في طريقي إلى المدرسة في اليوم التالي، رحت أقلّب الكتب بين تدافع المناكب على جسر «مود» وفي سوق السراي.

شرعت بغداد في الخمسينات تجترح معجزات صغيرة، فقد ظهر في تلك الفترة أهم المهندسين المعماريين، والمحامين والرسامين والنحاتين والاقتصاديين بالإضافة إلى أهم رموز الشعر الحديث والقصة والرواية.

بغداد في تلك الفترة، بالمقارنة إلى الناصرية، أسرع إيقاعاً، وأكبر حيوية. يتنافس فيها القديم والحديث بانسجام. أي أن الحديث لا يقتلع القديم، ولا القديم حجر عثرة أمام الحديث، تعايش فريد. تنوّع الأقوام الذين يسكنون فيها، غنىً في الأزياء والعادات، ولكل محلة لهجة.

تستيقظ بغداد متعبة تعب عروس باكتمال لذّتها، وفي الضحى ينشط نحلها، عند الظهر تنام بحماقة وعصبية، في الليل تنفلت وتغرق في الزنى .شارع أبي نواس المطلّ على النهر أكبر معرض للرجال المحبطين، وللنساء من ذوات العيون الجارحة، والشعور المرحة.

تتكون بيوت الشواكة من طابقين وأزقتها ضيقة، كأنها تتحاشى الشمس. ما من مولد للشمس ببغداد كما بالناصرية، وعليك أن تفتش عن غروبها في مكان آخر.

اختلفت عليَّ الجهات. لميلاد الشمس في الناصرية مهرجان كوني كبير، الهديل والظلال والألوان المنعكسة في النهر الوثير الموج. يظهر موكب الشمس أولاً بحياء من بين غلالات الأشجار

مكتبة الفكر الجديد

والنخيل. تباشيره أشعة نقيّة طازجة كأنها خلقت للتوّ، رغم ما في الأزقة من أتربة ووحل.

عند المساء يتحدد طبق الشمس ويتورد كالفاكهة الحمراء. وقليلاً قليلاً يسحب رداءه الأحمر الزاهي من النهر أوّلاً ثم من الأشجار، ليبدأ قليلاً قليلاً موكب النجوم المضيئة كالماس. القمر إذا اكتمل آنية حليب مسحور، يملأ القلوب بالأحلام والغزل الحزين الناعم.

اختلفت عليَّ الجهات، وليس في بيوت الشواكة حدائق بيتيّة، وما من رائحة راسقي. (عادت عليَّ مسألة الجهات في قصيدة «الجندي وبنات نعش» عام ١٩٩٩).

بدأت أشعر بضيق. بغداد مدينة آجريّة، ماديّة، متعايشة في الظاهر، إلاّ انها متنافسة، مدينة عضلية، لهجتها متفخّمة ذات ايقاع عضلي. أبناؤها ـ كآبائهم ـ مهتمون بالتملك، من الدراجة إلى السيارة إلى العقارات، يتحدثون امامك عن أنواع القمصان وأنفسها، حتى لو كنت تلبس قميصاً ممزقاً. يتحدثون عن آخر موديلات السيارات، حتى لو كنتَ لا تملك ثمن تذكرة باص عمومي للذهاب إلى الكلية.

ليست الجهات هي الوحيدة التي اختلفت عليَّ ببغداد.

الرائحة اختلفت كذلك، في الناصرية تشمُّ الفرات والبساتين، وهواء الصحراء والأراضي البور والعاقول والشفلّح والخندقوق. تشم الطبيعة بكاملها وبكامل رئتيك. رائحة دهن الورد والبخور والمسك في ثياب النساء تختلط بأمومة حانية. تقول المرأة بالناصرية «هئت لك» وأقصى متعتها أن يغتصبها زوجها، ورضاه نعمة. تقدّم المرأة جسدها لزوجها متاعاً لتخفيف مشاكله لا غير.

مكتبة الفكر الجديد

رائحة بغداد تكاد لا تتغير، وإن اختلفت من حارة إلى حارة ومن زقاق إلى زقاق. تركد في المجازات الطويلة المظلمة، وتصبح ضارية في المجاري، ولكل سوق رائحة. أشدّها ايذاء رائحة الجلود ورائحة الدجاج المعروض بأقفاص للبيع. مع ذلك لم أكن تعيساً، لكنَّ حزني لا حدَّ له. كنتُ أفتش عن شيء مفقود في حياتي. تصورت ان «عرق السواحل» سيحلّه. تصورت أن طاقية الاخفاء ستدلني عليه. منذ طفولتي، شعرت بشيء مفقود، وها أنني ببغداد أفتش عنه في الكتب، حزيناً وليس تعيساً، فهذه بغداد عاصمة الرشيد والدنيا، أمشي بين أزقتها، وتواجهني كل صباح المدرسة المستنصرية، وأنا في طريقي إلى الكلية، مروراً «بعيون المها بين الرصافة والجسر». كنت أعيشها تاريخاً داوياً، وقد اكتفيت بجواريها العباسيات عن ملاهيها، وبخمور أبي نواس عن حاناتها، وبمجالس أبي حيان التوحيدي عن مقاهيها، كنت أعيش مدينتين: مدينة وهمية هي كل الواقع، ومدينة واقعية كالوهم، كيف التوفيق بينهما؟ لابدَّ من دخول بغداد من معترك ثالث.

في سنوات الجامعة، انتهت ايام النزهة في الأدب، وابتدأت مرحلة تبويب المعلومات حسب منهج مدروس، وعليه يتوقف النجاح والرسوب

كلية التربية كرنفال آخر، طلاب وطالبات من شتى المدن والأرياف، وجوه مختلفة، ازياء مختلفة، لهجات مختلفة وابتسامات تدنيك وتبعدك، ولأصوات الفتيات رقة الرذاذ مهما كانت اللهجة، وطلاب وطالبات في صف واحد، يصغون معاً، ويتنفسون هواءً واحداً. طلاب وطالبات في مكتبة واحدة يقرأون بصمت بليغ ويتعلمون معاً الجدّ والتواضع، طلاب وطالبات في نادٍ

مكتبة الفكر الجديد

يجلسون على طاولة واحدة، يتناقشون ويتذاكرون ولا فضل لذكرٍ على أنثى، ولا فضل لأنثى على ذكر إلاّ بالعلم والفضيلة.

هذه السنوات الأربع في كلية التربية، أهمّ خميرة في حياتي الأدبية. المناهج منوعة، من اللغة العربية وآدابها وعصورها إلى الحضارات القديمة، إلى فلسفة التربية، إلى علم النفس والتربية. ولأوّل مرة تعرفت على النقد الأجنبي وبعض نظرياته.

كان من بين أساتذتنا، مصطفى جواد، كمال ابراهيم، علي جواد الطاهر، سليم النعيمي، عبد الستار الجواري، عبد الواحد لؤلؤة، صفاء خلوصي، نازك الملائكة...، هذه الشلة العجيبة مدارس فكرية عريقة، بفضلهم كانت خياراتنا أوسع ومداركنا أشمل وأعمق. لقد حباني علي جواد الطاهر باهتمام خاص، وهو الذي أخذ على عاتقه التبشير بالأدب الحديث.

كتبت ونشرت حتى قبل دخولي في الكلية بعض القصائد على نمط الشعر الحديث، كان كل طموحي أن أكتب شعراً مقبولاً وصادقاً، ولم أسعَ لشهرة أو أن أكون أفضل من غيري.

ألقيت مرّة، وبتشجيع الطاهر قصيدة في كلية التربية بعنوان «العانس». كان لها صدى بين الطلاب، وراح يبشّر بها الطاهر طويلاً. كنتُ ما أزال وقتها أسعى لأن أكون مجهولاً، لكنْ لماذا سعيتُ للنشر؟

قال لي صديق (وقوله مبالغة في مبالغة) إنه قرأ كل ديوان عربي مطبوع حتى عام ١٩٥٤. صدّقته أو صدقت الطريقة التي قالها بها، قلّدته على الفور. ولأول مرّة، ربما بتأثير النقد وآراء الأساتذة، أصبحت انتقائياً في الحفظ مع تمعن في أسلوب الشاعر. أغراني الشعر اللبناني ولاسيما إلياس أبو شبكة وكانت

مكتبة
الفكر
الجديد

لموضوعات ايليا أبي ماضي مفعولُ شيءٍ طارئٌ جميل في حلبتي الصغيرة.

أمّا أحمد شوقي فله مكانة خاصة. أحسست بألفة معه، يكتب بنَفَسٍ استشرافي أبوي رحيم لا يتدنى، يكتب بأجنحة، لا ينخس القارئ ولا يقارعه، كأن مادّته الموسيقية مجلوبة من صمت عريق سحيق، هو صمت خوفو.في ثنايا موسيقى الصمت تلك رنين تاريخي خفي مطمور، حتى كأن شوقي عاش كل العصور، فأطلّ علينا بالعبر والسكينة الروحية. أوزانه بطيئة بجلال موكب ملوكي.

شعرت في الكلية ولأوّل مرّة بيتمي، ولا أدري لماذا؟ لم اكن أشعر بذلك من قبل. نَفَس أحمد شوقي الأبوي الرحيم كان عزائي، ومعه أشعر بأمان. في شعر ناظم حكمت حنان أبوي ملتهب، قرّبني من كلّ ما هو يومي، وصغير، أصبحتْ أو اقتصرت حلبتي الشعرية على أحمد شوقي، وإلياس أبي شبكة وإيليا أبي ماضي. كان السياب والبياتي ونازك الملائكة يثيرون فيَّ الإعجاب ولكن لا يمسّون شغاف القلب بالعمق.

هؤلاء شأنهم شأن البحتري وابي تمام والرصافي والجواهري شعراء قصائد لا شعراء دواوين، بحيث تقرؤها من الدفة إلى الدفة، كوحدة منوعة ومتطورة.

بلغت سنَّ الرشد الثقافي ـ نسبياً ـ في كلية التربية، وألقيت شعراً سياسياً. لستُ شاعراً جماهيرياً. لم أجد في نفسي القدرة على القيادة أو الريادة. أحببت تصفيق القاعات على مضض. وفي كلّ مرّة ألقي فيها شعراً، أحسّ بمرارة ورهبة وندم. تمنيت أن يقرأ الناس قصائدي ولا يعرفني أحد، أن يكون اسمي معروفاً وشخصي

مكتبة الفكر الجديد

مجهولاً إن صحَّ التعبير. سعادتي فقط حين أكتب قصيدة وأقبلها. كتابة الشعر كالطلق سواء بسواء تخليص الجنين من الرحم، أقصى ألم سعيد.

تعرّفت في الكلية على زوجتي سميرة المانع، فتكهربت حواسي كلها. هي قصيدة فريدة لم أقرأ مثلها جرساً وعمقاً. نظرة حمامية وثياب مترعة بالسواد، مترفة بالعواطف، أثمن ما يمكن أن يحلم به غوّاص. من أين جاءتني ضربة الحظ هذه؟ كانت أكثر اطلاعاً مني على الأدب الغربي وعلى الموسيقى الكلاسيكية. لم أكن أمتلك حينها إلاّ موهبتي المتواضعة وفقري المثير للشفقة.

تعرّفت على نجيب المانع (شقيقها) عن طريقها، في مقهى البرازيلية. دخلت إلى المقهى مغامراً، فلم يكن في جيبي ما يكفي لدفع نصف كوب شاي. أراد أن يمتحنني، هل أصلح خطيباً لشقيقته. بلحظات نسي مهمته، كان يتحدث بتدفق وحيوية عن مطالعاته في الأدب الغربي، وكنت أحدثه بعفوية عن بلاغة الأسلوب القرآني، أصغى نجيب بإمعان.

حين يتحدث نجيب يغمر المقابل بطوفان، فإذا استطاب فكرة، يصغي كأنه لا يعرف شيئاً، يصغي إصغاء جاهل فضولي. دفع عنّي ثمن الشاي وشعرت بجفاف العرق في جبيني. سرنا في شارع الرشيد، فالتقينا بعبد الملك نوري وكنت معجباً بقصصه المحبوكة بدراية. قدّمني إليه نجيب كشاعر مثنياً على بعض قصائدي. دفع عني نجيب ثانية في الباص، وذهبنا إلى حانة.. (انضمَّ الينا أدباء آخرون). كان مدار الحديث موليير، يستذكرونه ويضحكون كالأطفال. كنت بينهم وقوراً على مضض، وساكتاً عن جهل، وممتنعاً عن شرب الخمرة عن صغر سن، كان نجيب يوجّه حديثه

مكتبة الفكر الجديد

لي، ويتواضع، وكأنني أنا الذي سأمتحنه إن كان يصلح أن يكون شقيقاً لأخته أم لا؟

انتقلت العدوى الآن إلى عبد الملك نوري الذي تملّكه الفضول تماماً، لاحظ احترام نجيب لي باستغراب، قرأ في صمتي أشياء لا أمتلكها، راح يخاطبني أستاذ صلاح بحياء تلميذ. ودّعت نجيب فوضع يديه على كتفيّ وغمرني بابتسامة لم أفهمها لحد الآن ولكنها دافئة لينة، حين جئت لمصافحة عبد الملك أخذ يدي بحرارة وقوة وانحنى احتراماً بأكثر من المعتاد. أصبحت هذه عادة عبد الملك نوري كلما التقيت به قبل مجيئي إلى لندن، ينحني احتراماً. كان نجيب ملماً بالشعر العربي القديم، وكل ما يتعلق بيودلير (كان يقرؤه بالفرنسية) وتي، أس، اليوت وعزرا باوند. ولكن ما أفدته منه هو شغفه الجنوني بالموسيقى الغربية، اكتشفتُ معاني الموسيقى في انفعالاته وحركات يديه وتلوّيه وعرق جبينه. مناديله البيضاء لا تفارقه، وكأنها من أقانيم سماع هذه الموسيقى الطاهرة. إلى ذلك كان يحفظ الموسيقى. من أقانيمه الأخرى، إنه يخرج الاسطوانة ممسكاً إياها بأطراف أصابعه، ينظفها بقماش قطيفة، ينظر إليها من عدة زوايا ليتأكد من عدم وجود أية ذرة من تراب، قبل أن نستمع إليها. يتحدث بإسهاب عن المؤلف والقائد الموسيقي والاوركسترا وشركة التسجيل. مازلت لحدّ الآن أربط الموسيقى الغربية بقامة نجيب الفارعة وبهندامه النظيف إلى آخر حبّة، وبحيويته في المشي ومناديله البيضاء المكوية بعناية. بالإضافة إلى ذلك فقد عرّفني على الأوبرا. لم نسمع اوبرا كاملة، ولكن كان يسمعنا مقتطفات بعد أن يشرح لنا الموقف والاغنية الصائتة، ARIA، عن طريقه بلا شك تعرفت على معظم المغنيين الاوبراليين، وعلى معظم مؤلفي الاوبرات. كان يكره جبران خليل جبران (كاتبي المفضل) ويكره

مكتبة الفكر الجديد

فيروز (نغمة صافية في أذني حينها)، ويكره حسين مردان (وهو موهبة فطرية مدهشة).

اهتزَّ العراق من أقصاه إلى أقصاه بثورة ١٩٥٨، فاض التفاؤل وبلغ اقصاه، بدا إيقاع الحياة أسرع، ودشّن العراق من أقصاه إلى أقصاه، الفرح لأوّل مرة، منذ قرون. فرحنا وفرحنا ثم ثم ثم تعبنا من الفرح والتفاؤل.

تزوجت.

ولدت ابنتي ريّا.

وُلدت مرحلة أدبية جديدة. انتهى أنين النفوس اليائسة البائسة، فالمبدأ بالتفاؤل. لا نعرف كيف نتفاءل ولا كيف نفرح؟ لجأت الأمّة إلى الخطب أولاً واقتصر الأدب على الشعر والمقالة والتعليق. انقطع التأمل وانهار الصمت الذي يرافق المختبرات العلمية عادة. ضوضاء ووشوشة هنا وهناك، تسرّبت الإشاعات من الشوارع إلى البيوت. يتآكل النظام أيّ نظام بالإشاعات أولاً، لأنها تمتزج بالأنفاس، تشربها مع الماء، وتزدردها مع الأكل. من نتائجها زعزعة الثقة بالنفس من ناحية، والتشنج وانتفاخ الاوداج من ناحية ثانية. تشنجت الثورة وانتفخت أوداجها.

قتل أخي.

(كتبت عنه قصيدة طويلة نشرت بكراس عام ١٩٦١ عنوانها «كابوس في فضة الشمس»).

قتل عبد الكريم، دفن فعُبِدَ ثم نبشته الحكومة وألقت جثته في النهر.

دخل (القطار الامريكي) إلى العراق. وتوحش البشر، كأنما لم

مكتبة الفكر الجديد

يكونوا من صنع الله وخلقه. فنون منوعة في التعذيب وقصّ الألسن، والاغتصاب، وتغطيس الموقوفين إلى حدّ الفم ببرك البول والخراء، كلما ركد السائل، حركه الحارس بعصا طويلة لتصعد الأمواج إلى أعلى الهامة. الويل للبشر القصار القامة، يجبرونك على التغوط والتبول في طاسة أمام رفاقك. ترمي الفضلات، ويمنعون عليك تنظيفها. يجوّعونك عمداً، يصبّون أكلك في تلك الطاسة، تأكل وأمرك إلى الله، ويغتصبون أمّك، أختك، زوجتك أمامك، ثم يغتصبونك.

الهروب بالجلد، أقصى ما يمكن من طموح، واللعنة على مسقط رأسك.

جاءني المرحوم حسين مردان، وأخبرني أن وزير الاعلام قال له «لا نمنع شاعراً من السفر، ولا نقتل شاعراً، دم لوركا عبرة لنا».

قطعت التذكرة من بغداد إلى لندن عن طريق القطار. كنت بلا لغة ولا فلوس ولا حتى فضول. الهروب بالجلد، النجاة، الابتعاد عن الكابوس: هذه كلمات جديدة دخلت في قاموسي الشخصي. أصبحت أساسية، أصبحت فلسفتي التي أواجه بها الحياة. أطبق اليأس عليّ. اختنقت، اختنقت، أمنيتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش، ولكن الموت في مكان آخر. الموت بإرادتي أقصى حلم . أردت أن «أحسّ اللذة السوداء في الوفاة» كما قلت مرّة في قصيدة «كابوس». أردت أن أختار نوع موتي كما اختار السهروردي موته. أشقّ شيء عليّ أن يشفي قاتلي غليله. أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهاناً مذلاً. أمنيتي أن أحرمه من إشباع حقده.

أين أسكن؟ ماذا أعمل؟ هل أعود؟

مكتبة الفكر الجديد

حتى هذه الأسئلة المصيرية، لم تعد لها أهمية.

شيء لم أقله حتى لزوجتي إن حياتي انتهت حقاً، وانني ذاهب للتفتيش عن موت كريم.

مكتبة الفكر الجديد

٣

حلب

كان مساء المحطة رصاصياً، الأصوات لغط ودويّ. الشرطة في كل مكان بعيون مدققة مرعبة. آخر مشهد لي ببغداد، وقوف زوجتي دامعة وهي تحتضن ابنتنا وإلى جانبها نجيب، مصفراً صامتاً، وفي وجهه صمت إله حائر. لم أدمعْ، كانت عروقي كلّها ممتلئة بالدموع. تشرّبتها ملمحاً ملمحاً، وتنفستها آهة آهة. كان وداع من سيسلم الروح. تحرّكت أرجل القطار، وشعرت باللذة السوداء، وأطبقت عينيَّ بأرقٍ مسنون. من مدينة إلى مدينة، ومن قطار إلى قطار، كنت أحملُ جنازتي، وكلما ابتعدت شعرت أن امنيتي تتحقق في الموت بعيداً. شعرت بسعادة حقاً. كل يوم جديد هو إطالة في دفني خارج تلك الحدود الطاحنة.

بعد ليلةٍ متقطعة ونوم شاق، وصل القطار إلى الموصل. ماتزال نائمة، توقظها الشمس بحنان وتزوّقها بالألوان تدريجياً. جبال؟ لأول مرة في حياتي أرى جبالاً.

سلّمنا جوازات السفر، وبعد حوالي نصف ساعة، نودي عليَّ

مكتبة الفكر الجديد

وأُمرت بإنزال حقيبتي. قيل لي أنت ممنوع من السفر. كان جوازي رسمياً. يبدو أن دائرة الأمن بالموصل لم تبلّغ بذلك، ما الذي أفعله؟ المكاتب ببغداد ما تزال نائمة، والقطار سيتحرك في وقت معلوم.

بمصادفة قريبة من المعجزة تذكرتُ ابن عم لي كان مدير الحركات العسكرية في الشمال. اتصلوا به وجاء مع ثلّة من العسكريين الاركان بأقل من نصف ساعة، واتجه فوراً إلى المسؤول الأمني، لكن لا بدَّ من الاتصال ببغداد.

جرّني من يدي ورحنا نسير على رصيف المحطة. كانت هذه أوّل مرّة نتكلم على انفراد. تعرّفت على بذلته وطوله ومشيته، وتمعنت بصوته الريفي الخالي من أية عبارة مأخوذة من كتاب. قال لي لا يهمك، حين أخبرته عن قلقي على موعد القطار. هل أمر بتأخير القطار؟ قال لي أيضاً بوجه خائف وصوت متوسل، لم ننمْ البارحة، أنهينا كل عتادنا في المعركة مع الاكراد، كانوا يتنقلون بأضويتهم من صخرة إلى صخرة بسرعة عجيبة. قال تبين لنا في الصباح أنهم شدّوا ما يشبه الفوانيس الصغيرة بأعناق الخراف والماعز وكلما أمطرناها رصاصاً راحت تتراكض مذعورة من مكان إلى آخر.

جاء المراسل العسكري. أدّى التحية، بما يليق بطول ابن عمّي وبذلته ورتبته، وأخبره أن معاملتي انتهت. كان ردّ فعلي بارداً. لم اشكره كما ينبغي، ولم أصافحه كما ينبغي. لم يكن ذلك ردّ فعلٍ على استقباله البارد لي. عاملني وكأني نصف غريب، نصف أحد معارف أصدقائه. كنّا نبطن غير هذا بالتأكيد، فهو ضابط مسلكي، وأنا يساري، أراد أن يسيّر المعاملة وكأنها مسألة انسانية ووفاء لصديق ما، وكنتُ بدوري أحرص على عدم صبغته بصبغتي، لكنّه

مكتبة الفكر الجديد

همس بأذني بتأوه: أوصيت شرطيْ القطار برعايتك. صعدت على القطار، وما هي إلاّ دقائق سريعة وتحرّك، ومعه تحركت الدنيا والجبال والأشجار، ثم دخلنا في لا مكان من الخلاء الشاسع. كان إلى جانبي رجل متأنق، وألوان بذلته طازجة زاهية، حاول أن يستنطقني عن وجهتي، وعن أسباب سفري، فتحفظتُ بحكمة. لكنّ شرطيْ القطار اللذين أوصاهما ابن عمّي بي، أمامي على بعد ثلاثة مقاعد. عيونهما متسمرة لا تفارق جلستي. أحسست وكأني في قفص لا أمتلك أية حرية.

قبل أن نصل إلى الحدود السورية توقف القطار ببطء. قام الشرطيان واتجها ناحيتي. هل سأُرمى هنا؟ هل خذلني ابن عمي؟ هما فوق رأسي الآن.

«قم» قالا للرجل المجاور لي، أين حقيبتك؟ انزعْ سترتك. انزع حذاءك. أخذ كل شرطي فردة، ونفضاهما بقوة فاندلقت منهما سرّتا دنانير، اقتيد حافياً.

ظلّ المكان المجاور لي خالياً، وظلّ مكان الشرطيين خالياً، فشعرت بخوف ورهبة وحيرة، لم يكن أحد غيري في هذه المقصورة.

حين دخل القطار إلى مدينة حلب البيضاء انتهبتني عاطفتان، مرمر القبور والتماثيل الثابتة، ولون خطيبة صديقي الحلبيّة، كان بياضها غير مشعّ، وانما مثل بياض ورود الراسقي، أبيض متواضع يتشرب نفسه ويظهر عليه لون رمادي خفيف. علّمني هذا الصديق كيف يعشق الأسلوب الأدبي، ومعشوقاه كتاب الايام لطه حسين وكتاب سارة للعقاد. طريقته في القراءة فريدة، يقفل عليه الغرفة ويترنم بصوت عالٍ، يُقسم أنه يسمع موسيقى خفية في الأسلوب،

مكتبة الفكر الجديد

ويبكي حقيقة. كان هذا الصديق الذي لم يعشق إلاّ كتابين، أقرب الناس إلي، وهو أوّل شخص أقابله يزور بلداً غير العراق، حشرجاته وهو يذكر حلب وخطيبته واضحة محزنة. أحبَّ حلب وأحبَّ خطيبته الحلبية. السرّ الوحيد الذي أخفاه عني لمدة شهور، هو أنه كان يكتب إليها رسائله بدمه، ينخس طرف إصبعه بدبوس، ومن حبر دمه يكتب. بالمصادفة وهو يقدم لي سيجارة (هو الذي علّمني على التدخين) رأيت حزوز الجراح بأصابعه، تساءلت. سرد لي القصة. لا أدري هل كان حباً به، أم ألماً لألمه قلت له، ضاحكاً، خذ دم دجاجة واكتب ما تشاء. أخذها على محمل الجد، ثم قرّر الذهاب برفقة والده المترف الغني في اللغة والملبس إلى حلب ليتم عقد القران. قال لي إن لغتهم مختلفة ومطعّمة بأرق الكلمات. حين وقف القطار في محطة حلب، رأيتني وكأني غيري، كائن بمئات من الحواس. أريد أن أرى، أريد أن أسمع، أريد أن أحلّق، ولكنني تسمّرتُ بباب القطار خشية أن تطير حقيبتي. كم تشوّقتُ لأن تطأ قدمي أرض حلب، أن أشرب ماءها، أن أشمَّ وردها، أن ألمس نباتها، ولكنني خفت أن يتركني القطار ويرحل.

مكتبة الفكر الجديد

٤

تركيا

حين صوّت القطار وهسهست عجلاته وتقوس دخانه، كنت مازلتُ أنظر من نافذة القطار حتى آخر بيت وشجرة. كل شيء كان يتراجع إلى خلف. لا أدري لماذا في تلك اللحظة رثيت لنفسي وتأزمت، هل لأن حلب اختفت نهائياً؟ شعرتُ والقطار مندفع إلى الامام، أن كل المدن والغابات والجبال وهي تتراجع كأنها أشياء تُستلب من حياتي.

رجعت إلى المقصورة فوجدتُ مقعدي يحتلّه سوري، وإلى جانبه شاب أحدب بادي النعمة، وفي المقعد المقابل عجوز ملفوفة بأغطية وتتأوه.

أمرني السوري أن أفتش عن مكان آخر، ورمى شنطتي في الممر. توسلتُ إليه، وتضرعتُ. لم تطرف له عين. إلاّ أن العجوز تدخلت بصوت هزيل وطلبت من ابنها الشاب الأحدب، أن يجلس إلى جانب رجليها.

قال السوري: على شرط أن تقول لشرطة الجمارك إن البذلات

مكتبة الفكر الجديد

الثلاث هذه وأشار إليها، هي لك. كان في المقصورة كذلك سوريان يناما في مكان الحقائب.

لم تكن اللهجة السورية التي كنتُ مسحوراً بها، مطعمة بالرقة. الأحاديث تدور بينهم باقتضاب، ولغة عيونهم زائغة وكأنهم غرباء عن بعضهم بعضاً. أشاعوا - أو خيّل لي ذلك - جوّاً مشحوناً بالريبة.

أمّا العجوز المتدثرة، فراحت تئن بلا انقطاع، وبين أنين وأنين تشتم ابنها وتدعو عليه بالشّر، وتختم دعواتها بـ «الله يفضحك».

كان الشاب الأحدب بملابسه الأنيقة، وعافية وجهه المحمّرة، وعطور حلاقته، لا يستقرُّ في مكان. راح يتنقل بين المقصورة والممر والتواليت، يتحدث إلى السوريين الذين بدوا غرباء، بلهجة سوريّة، ويتحدث إلى الاتراك الباعة بطلاقة، كنتُ صامتاً متململاً، أنظر في بعض الأحيان من نافذة القطار إلى المشاهد المتراجعة لأتفادى الجوّ المتأزم في المقصورة.

حاول الشاب الأحدب استدراجي للحديث، ثم رشَّ بوجهي اسئلة للتعرف على توجهي السياسي. سألني عن اسمي أولاً فرآه لا يندرج في خانة سياسية أو طائفية، سألني عن مسقط رأسي، فازداد حيرة، ثمَّ عن دراستي ومهنتي. وحينما فشل أمطرني بمغامراته، وأمطرته أمّه المتدثرة بـ «الله يفضحك». من أوّل جملة له عرفته من العناصر التي أطاحت بعبد الكريم قاسم عام ١٩٦٣، (كان يبالغ بلا شك) ولكن في الجمل التالية، فزعت مما ذكره حتى لو كان ادعاء. قال حينما قامت الثورة ذهبنا من بيت إلى بيت، وألقيت القبض على فلان وفلان، وعدّد أسماء أشخاص، من بينهم أصدقاء أثيرون لديَّ.قال اعترفوا جميعاً، ولكننا كويناهم بالنار أحرقنا

مكتبة الفكر الجديد

جلودهم، وقد أحرقت بيدي هذه بطن فلان (سكرتير الحزب الشيوعي) إلى أن مات.

لم أحزنْ كما ينبغي، لقد وصل بي اليأس إلى درجة ميئوس منها، وكل شيء يحتمل وقوعه. ذكرت له الدم يورث الدم لكن بغير هذه الكلمات، فصاح: خونة، يجب أن نطهر العراق منهم. الطريقة التي قال بها خونة، والصمت الذي تبعها ونظرته التي شقب وجهي، عرفتهُ أنه يعنيني كذلك، ولم تخفَّ توترات وجهه إلاّ بصيحة أمه: الله يفضحك.

توقف القطار عدّة مرات بين حلب وتركيا، وسمعنا إطلاقات نارية تشتدّ وتخفت. عرفنا أن قتالاً معتاداً يدور بين الشرطة والرعيان والمهربين على حدود البلدين، ولكن ما أن دخلنا حدود تركيا حتى وقف القطار وكأنه برك بلا أقدام.

صعد البوليس التركي. وجوههم لا تقبل المساومة.

أطل ثلاثة من الشرطة على مقصورتنا وتفحصوا الوجوه. كنتُ أشعر بطمأنينة، لا لأنهم تجاهلوني نهائياً، لكن عدم معرفتي بلغتهم أصبح حاجزاً أميناً بيننا.

أشاروا إليَّ بالقيام، وانزلوني من القطار، وبعد دقائق انزلوا السوريين الثلاثة والشاب الأحدب. ذهبوا بالأربعة إلى مخفر الشرطة. بقيت واقفاً. انتابني شعور غريب حقاً وأنا بين القطار ومخفر الشرطة. مرّة أخرى شعرت بأنني منقطع الجذور، وأن مصيري شيء لا يُؤبه به، شيء تافه ورخيص.

مضى على وقوفي بين القطار والمخفر حوالي ربع ساعة، كان الجوّ بارداً إلى حدّ ما، لكن البرودة أخذت تزداد مع خوفي وانقطاع الأمل.

مكتبة الفكر الجديد

جاءني شرطي بابتسامة غليظة يحملها بعنف تحت شاربين كثّين بشخن إصبعين، قال أشياء تركية، واشار لي بالصعود إلى القطار.

دخلت المقصورة فإذا كلُّ شيء قد تغيّر. كان ما يزال شرطيان في المقصورة، منهمكين في فتح ألواح المقصورة الخشبية، ومن شباك النافذة تكلموا إلى شرطة المخفر بصوت عالٍ سريع. أُنزلت عشرات أطوال القماش المهربة (كان هذا بلا شك سبب منعهم لي من دخول المقصورة بحلب). أشاروا إلى البذلات الثلاث، فأومأت أنها ليست لي. لم تبق إلا العجوز المتدثرة التي أخذ أنينها يزداد، بينما أخذت لازمتها: «الله يفضحك» منحّى شرساً.

لم يرجع السوريون الثلاثة، إلاّ أن الشاب الأحدب، وعلى وجهه أمارات خيبة عميقة، ظل حتى داخل المقصورة يتحدث إلى الشرطة بتوسل ويشير إلى أمّه التي غاص وجهها الآن تحت اللحاف، فأصبح الأنين مكموداً، وكأنها قررت الموت على طريقتها الخاصة. نزل البوليس، وتحرّك القطار. بات وجه الشاب الأحدب منسحقاً. وقف، راح ينظر في الممر، وقال لأمّه المتدثرة: «يالله قومي».

صاحت قبل أن تقوم: «الله يفضحك» بحرقة. دارت على نفسها عدّة مرات، ونزعت أكواماً من لفات القماش المهربة الملفوفة على جسمها، فإذا هي امرأة هزيلة الجسم ومعافاة. لم نتبادل أية كلمة بعد ذلك، وحين نزلنا من القطار لم نقل وداعاً.

كنت في حالةٍ من الحذر والضياع عسيرة، وفي رأسي صداع داوٍ كامد. كيف نزلتُ من القطار، كيف صعدت على الباخرة إلى

مكتبة الفكر الجديد

اسطنبول، من دلّني على الفندق، كيف وصلتُ إلى الفندق، هل وصلت إلى تركيا صباحاً، ظهراً، ليلاً؟

ما أذكره فقط انني ذرعت شارع «استقلال جادة سي» عشرات المرّات في الليل. حركة الشارع مختلفة، الأضواء مختلفة، الازياء مختلفة، واجهات المخازن مختلفة، اللغة مختلفة. في ذلك الليل كنت أعيش بداية حلم وأنا صاحٍ، حلم لا يمكن له أن يتحقق ببغداد، ولو غيّرت جلدي مئات المرات.

ها أنذا أعيش بداية حلم وأنا صاحٍ، لا أعرف أحداً، ولا يعرفني أحد، أية نعمةٍ هذه! شعرتُ لأوّل مرّة أنني عثرت على طاقية الاخفاء، وها أنني متخفٍّ، لا أعرف أحداً ولا يعرفني أحد، أية نعمة هذه! حتى للسكارى نكهة خاصة في البلد الغريب. لأوّل مرة في حياتي أمارس دور المتفرج، لي حرية الفرح والحزن، لي حرية النظر والسمع، والسير والوقوف كما أشاء. لأوّل مرّة أمارس حريّتي كما أشاء. لاوّل مرّة أنتزع من حناياي، قيود اللغة. شعرت بانفلات.

في مسرح بغداد لا وجود لمتفرّج. كلهم ممثّل وكلّهم مسؤول عن تمثيله.

اللغة ببغداد أكبر عائق للتفاهم. نؤلف لها الكتب، نقننها نحواً وصرفاً. نعربها فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به، نزيدها قيوداً فتثأر لنفسها وتزيدنا قيوداً. شعرت باسطنبول بانفلات، ونمت تلك الليلة وكأنْ على عشرين مخدة وفراش من ريش وحرير. كيف صحوت، اين فطرت، كيف ذهبت إلى محطة القطار، في أية ساعة.

مرّت المدن التركية والقرى من نافذة القطار، وكأنها تومئ بالسلامة. ركض رعيان صغار واصطفوا يومئون. بدأت الجبال

مكتبة الفكر الجديد

تأخذ صفة دينيّة كبيرة وقورة. مساقط المياه، ضياء ذائب. لا شيء في الطبيعة أنبل من النهر، ولا شيء أجمل من تعرّجاته. النهر اكبر معزوفة على الأرض.

خرج القطار من تركيا فانغمرت بنشوةٍ فسيحة.

كنت أقيس سعادتي بقدر نجاتي. ها أنّني نجوت الآن. المسافة بيني وبين بغداد، تزداد بعداً، فأزداد انتشاء.

مكتبة الفكر الجديد

٥

ميلان

«كانت أمنيتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن، لا العيش فيها، ولكن الموت في مكان آخر، الموت بإرادتي، اردت «أن أحسّ اللذة السوداء في الوفاة» ... أردت ان اختار نوع موتي، كما اختار السهروردي موته. كان أشقّ شيء عليّ أن يشفي قاتلي غليله، أن أموت تحت قدميه وآلات تعذيبه مهاناً مذلاً، أمنيتي أن أحرمه من إشباع حقده».

غمرتني النشوة ثانية، حينما تفتحت أمامي أوروبا خضراء شاسعة. إذن ـ قلت لنفسي ـ هذه أوروبا وكلّها قبر لي، ومرّة واحدة شعرت بلذة الانتصار، كَمَنْ يخاف المشنقة فيتلذذ بقرص للموت. الآن استطيع أن أقرر مصيري في أية لحظة. أصبحت إرادة موتي بيدي، وهو حق لا أريد لأحدٍ أن يفرضه عليّ بالتجويع والتعذيب والإذلال، قررت أن لا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم، أحببت القطار لأنه كان يخبُّ بقوة إلى الأمام، يدخل في الأنفاق الجبلية المظلمة ويخرج بقوة إلى الامام. هديرك ايّها القطار أجمل

مكتبة الفكر الجديد

تهويدة أمّ في أذني اليوم.

في الممر الضيّق، اعترضتني أربع عيون طفليّة، شيّعتني إلى المراحيض، وعند عودتي وقفتْ في طريقي، فتعثرتُ بها.

الأخ عراقي. عرفناك رأساً.

كانا ملتصقين بذلّ حيوانين تائهين، في الثلاثين من عمرهما، تاجران في طريقهما إلى ألمانيا، لا يعرفان أية لغة، النعمة المتشنجة بادية على وجهيهما وفي عيونهما حيل.

مع ذلك ذكرت العراق بحنان، وفاض جسدي حنيناً دامعاً.

غيّرا وجهتهما بـ «ميلان» وقررا المجيء إلى لندن بدلاً من ألمانيا.

اقترحا بكرم وأريحيّة أن نبقى بميلان ليلتين للراحة، على أن يدفعا مصاريفي، مقابل مساعدتي لهما في الترجمة.

عاثا فساداً بأجساد النساء المارّات، والنساء الواقفات، والنساء الجالسات، ولم تسلم منهما حتى النساء في السيارات. يعلّقان على كل عجيزة، وما من عجيزة استجابت، وشبعا احتقاراً. خافا من لحم الخنزير فامتنعا عن أكل لحم الضأن، وتصوّرا لحم الدجاج لحم غراب، وما من امرأة. تعبا من الاستمناء لدرجة اصفرار الوجوه.

قال الأكثر تجارة منهما، ونحن في منتصف النهار:

ـ آه لو كنت ببغداد الآن، نائماً على حصيرة قرب الحائط، وأنادي على أمّ الاولاد، بثوبها الرقيق الشفاف، أطلب منها قدح ماء، ثم اقول لها ما هذا وراءك؟ وحين تلتفت إلى الخلف أرش الماء على ثوبها فيلتصق بجسدها.

قررا النوم مبكراً هذه الليلة، يتخذان قراراتهما في الأكل والشرب والنوم والتعب والفرح والتعاسة معاً. يقرآن نفسية بعضهما

مكتبة الفكر الجديد

بعضاً بيسر. ويعرف كل واحد ما يدور برأس الآخر من أفكار. غداً عصراً سنغادر إلى لندن. كانا سناداً لي من الوحشة التي كنت أشعر بها. تأخرا في النوم حتى الساعة العاشرة صباحاً. سألت المسؤول في الفندق عنهما:

ـ غادرا هذا الصباح في الساعة السابعة إلى ألمانيا.

ـ والحساب؟

ـ دفعا حسابهما فقط.

ـ لكنني لم آكل بنهم كما أكلوا، ولم اشرب خموراً غالية كما شربا، ولم اطلب ساندويشات إضافية، كما طلبا.

دفعتُ حسابي، وأحسست ببكاء ما. لا فرق، جئت لأموت ولا يهمُّ متى، أعيش هدنة مع الموت قد تطول وقد تقصر.

لعقت الجرح، وقررت الذهاب لزيارة مبنى أوبرا «لاسكالا» وكاتدرائية «دوومو». لماذا؟ رغبة لا يحسها إلا المحتضرون الذين يريدون ان يتزوّدوا ساعة الوداع برؤية ما كان عزيزاً عليهم . أو ربما أردت باللاشعور أن أغير خريطة الماضي وأستبدلها بخريطة أخرى .

- أستاذ صلاح، استاذ صلاح. أنا تلميذك في المدرسة «الجعفرية» هل نسيتني؟ جئت لإجراء مفاوضات لاستيراد أقمشة وبذلات وقمصان. استاذ يبدو عليك التعب. استاذ هل تحتاج إلى خدمة؟ تعال معي إلى المعمل، سأهدي لك بذلة راقية وقمصاناً.

استاذ يبدو عليك التعب يا استاذ، تعال أغدّيك.

ـ شكراً سأسافر إلى لندن بعد خمس ساعات.

دخل عليَّ ابن الحلال هذا نفسه مرّة إلى غرفة المعلمين، وفي يده رشاشة حقيقيّة، محشوّة بإطلاقات نارية حيّة.

مكتبة الفكر الجديد

ـ صلاح (بلا استاذ)، هل صلّحت دفتر امتحاني؟ درجتي لا تقلُّ عن تسعين من مائة. فهمت؟ أحذرك.

قبل أن يخرج، التفت إليَّ مؤشراً باصبع واحدة ونظرة مفترسة صلبة: أحذرك.

مكتبة الفكر الجديد

٦

لندن

كانت لندن مكسوة بثلج عالٍ قياسي عام ١٩٦٣. الثلج يغطي الشوارع والأرصفة والسطوح والأشجار. السيارات مغطاة بالثلج، وكذلك المعاطف. البخار يخرج من الأفواه كثيفاً. جئت من بغداد بملابس صيفية، وصداع آلاف الكيلومترات، وحيرة بحجم عصور.

مع ذلك، أحدّث نفسي، ها انني أعيش يوماً إضافياً. يالله. وليكن ما يكون غداً. زادت طمأنينتي نسبياً بتغيّر البيئة: رمادية سماء لندن لأيام طويلة، ثلج حتى على المداخن، لغة جديدة على الأذن، شقرة شعر وزرقة عيون، سير السيّارات إلى اليسار، بيئة جديدة تبرهن لي في كل منعطف وواجهة مخزن، أنني نجوت، وأنني اعيش يوماً إضافياً.

نجوتُ من خطر، ووقعت في خطر الموت جوعاً. قلت سأطيل أيامي بالتقتير وكسرة خبز. بكسرة خبز فعلاً أطلت أيامي. جوعي في طفولتي بالناصرية أعانني على تحمّل الجوع بلندن. وما همّ؟

مكتبة الفكر الجديد

مادام كل شيء حوالي غريباً، وليكن ما يكون غداً، كانت سعادتي بمقدار غربتي.

نشف وجهي، ونشفت فلوسي، ولابدَّ من دفع الايجار؟ سيّدة البيت وزوجها الوديع لم يطالباني بإيجار لأسابيع. الثلج نابت في العظام. الجوع يمتصُّ اللحم، ولا رسالة من بغداد. شعرت أنني يتيم بحاجة إلى نوم دافئ، وحنان وتهويدة أطفال. التقتير على أشدّه، وكسرة الخبز عزّت.

ما الحلّ؟ عز الصديق وما من معيل. خطرت ببالي فكرة: أمرض وأنام في المستشفى، أشبع معدتي الفارغة لأسابيع، أسمع لغة الرحمة من الممرضات المعقمات، كم كنت بحاجة إلى من يناديني باسمي صلاح أو مستر نيازي، وان كان شفقة. أن يسأل عني ويجسّ نبضي. من أين ينزل عليَّ المرض؟ رحماك يا رب: أعطني رحمة المرض، لم تبق لي من رحمة سواها. ألمُّ اعقاب السكائر من الشارع، ألقط بقايا الفواكه والخضر من الأسواق الشعبية ليلاً. ليت الإقامة في المستشفى تطول. ليتني أمرض يا ربّ.

الأشجار عارية وتجاويف جذوعها محشوة بالسخام. استغربتُ من البراعم المغلقة الكبيرة على الأغصان رغم الثلج. تمنيت أن أعيش إلى أن تتفتح البراعم فقط، تفتّح براعم الأشجار بلندن، عسير وطويل. كنت اتفقدها كلَّ يوم.

أجدني في الحدائق العامة وحيداً، في المقاهي وحيداً، في الازدحام وحيداً. تنعمت حقاً بكوني نكرة، لا يعرفني أحد وكأنَّ على رأسي طاقية الإخفاء، لا يجذبني شيء، ولا أنجذب إلى شيء.

من سوء الطالع أهدتني ربة البيت، مصباحاً كهربائياً تحمله

مكتبة الفكر الجديد

ومة. ارتعدت فرائصي وشكرتها بشك، كانت عينا البومة حادتين تطران باستقامة جارحة في عينيّ، لا تطرفان، لا تميلان يميناً أو يساراً، كلّ ما يعنيها أنا، كأنهما تستجوبانني بضمير ميّت. تطيّرت منها وأرقت، أطفأت الضياء وغلّفتها بمنشفة بيضاء، ساد الظلام الكثيف الذي يعقب عادة انطفاء ضوء حاد، تسلل ضوء الشارع من بين الستائر إلى الغرفة. نظرت إلى المنشفة البيضاء حول البومة، كانت تشبه في هيئتها رأس شبح مكفناً، أدرت وجهي إلى الحائط، ثم قمت بهمة، أمطت عنها لثام المنشفة ودحستها في الشنطة وقفلتها.

هكذا سار الروتين، أُخرج البومة من القمقم صباحاً لتراها سيّدة البيت، وأعيدها إلى القمقم ليلاً. كان لا يغريني شيء للرجوع إلى الغرفة مبكراً. الايجار لم يُدفع، والبومة بالمرصاد، فهي النور الوحيد في الغرفة، وليس لديَّ نقود لتشغيل جهاز التدفئة. أدخل تحت اللحاف وكأني أدخل بين طيتين من ثلج.

في هذه الأثناء، كنت أقترب من نفسي أكثر فأكثر، أتحدث إليها وأتحاور معها. فرحت باكتشاف ممالكي المطمورة، كل تجاربي الماضية وكل قراءاتي السابقة قد أبعدتني عني. شرعتُ أهاجر إلى الداخل هذه المرّة. (كتبت قصيدة «الهجرة إلى الداخل» ونشرت في الديوان بنفس العنوان. صدر عام ١٩٧٧).

كنت أجترّ نفسي، حين خطرت ببالي فكرتان على حين غرّة. أصبحتا قناعتين لم أحد عنهما. الأولى افترضت فيها، أنني ولدتُ جديداً، أخطأتُ أم أخطأوا بحقي سيّان، المهم ما وقع وقع. نجوتُ بالصدفة وأُتلف أصدقائي. لأبدأ من جديد وأتعلم حياة جديدة.

الفكرة الثانية: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً».

مكتبة الفكر الجديد

باتت العودة إلى العراق من باب المستحيل، لم يبق في يديَّ من فلوس ما يكفي لشراء تذكرة العودة.

كنت مؤمناً أن اللغة، لا يمكن أن تُلتهم، عملية طويلة وشاقة تحتاج إلى تكريس، قلتُ لو أتقن جملة واحدة في اليوم، فسأكون أفضل مما كنتُ عليه بالأمس، وفي الغد سأكون أفضل مني اليوم. تعلّم اللغة يحتاج إلى تواضع ومثابرة.

حقاً التزمت بالمثابرة، ولم ألتزم بالتواضع الذي نصحتُ نفسي به، إلاّ جزئياً. تأبطت القاموس حيثما سرت، حتى صار جزءاً من أعضاء جسدي . أقرأ ما تقع عليه عيني. أسجله على ورقة صغيرة. افتش عن معناه في القاموس أولاً، وأسأل أول عابر عن كيفية نطق ما كتبت ثمَّ أذهب مع ما يتجمع لدي إلى مكان منعزل وأدرّب أوتار حنجرتي على التلفظ. (لم أدخل مدرسة لتعلّم الإنكليزية).

وصل هوسي باللغة الإنكليزية إلى حدّ التمعن بمائة كلمة يومياً، وما همَّ ان نسيت تسعين منها أو أكثر، همّي أن أتعرف عليها، حتى لا تكون غريبة تماماً.

بعد أقل من سنة أطرتني سيدّة البيت وزوجها. لا أدري هل كانت تطري مثابرتي على التعلّم، أم أنها وجدت تحسناً في لغتي.

مع ذلك وقعت بإشكال جديد. حين أتحدث، أعطي انطباعاً انني أعرف اللغة الانكليزية إلى حدّ ما. لكن من يستمع لي في مرّة أخرى سيكتشف على الفور أنني أستعمل نفس الكلمات والصيغ. واللغة ـ أية لغة ـ تلاوين تعبيرية متعددة تُقال عفواً. شعرت بضيق، الأدهى انني لا أفهم ما يُقال، لا لأنه يقال بسرعة لم تتعود عليها طبلة الأذن، ولكن لأن التركيب غامض. هبْ أنني عرفتُ كلَّ كلمة واستوعبتها موسيقى وإيقاعاً، إلاّ أن المعنى يبقى غامضاً.

مكتبة الفكر الجديد

ما فاتني، هو أن اللغة الإنكليزية لغة اصطلاحية، وهذا هو اختلافها الأكبر عن اللغة العربية مثلاً. قاموس «الياس» الصغير لا يشرح المصطلحات، لذا أسميته قاموس اليأس، مَنْ يعيرني قاموساً أوسع؟

دعتني سيدة البيت مرّة للقاء بعض أقاربها. كنت أراقب كل حركة، كيف يصبون الشاي، كيف يسألون المقابل كيف يحب الشاي، ثقيلاً؟ خفيفاً؟ شاياً أسود؟ أم شاياً بالحليب؟ هل يأخذ الشاي بالسكر؟ كم ملعقة؟ كيف يقدمون الفطائر؟ كيف يأكلونها؟ كيف يمسحون أفواههم؟ أين يضعون المناديل؟ هل يتركونها على المائدة مطواة؟ بهذه الصورة، كنت أبني ـ دون علمي ـ علاقات اجتماعية مع اللغة. واللغة ـ أية لغة ـ علاقات اجتماعية، في مراحلها الأولى، على كلٍّ، دار الحديث على موضوعات شتى. تعبت من ملاحقة الجمل وشعرت بإنهاك. أدوزن أذني على صوت رجل وعلى ايقاع جملة، فما أن يدخل صوت نسائي، حتى تتغير الدوزنة الأولى فلا ألحق بالمعنى.

سمعت سيدة البيت في هذه الجلسة تقول IT IS NOT MY CUP OF TEA والتفتت إليّ قائلة: أليس كذلك يا صلاح؟ ذُهِلت أوّل الأمر وشعرت بإهانة. كوبي أمامي وكوبها أمامها ولم امسسه. قلت بثقة مَنْ يدرأ عنه تهمة هو براء منها. لا. لا إنه كوب شايك، أقسم أنني لم امسسه. حين قلتُ لم امسسه، ضحكوا تعجباً. ولكن حين ألححتُ على براءتي اكتشفوا عدم فهمي للجملة التي تعني بالانكليزية: هذا الشيء ليس من ميولي أو لا يروق لي. (متى أتخلص من هذا الشك يا رب. لماذا تقتصر علاقاتنا على تهمة، اتهام، ثم اصدار حكم)، الشيء بالشيء يذكر. كنت في إحدى

مكتبة الفكر الجديد

الليالي في منطقة بيكاديللي القريبة من «سوهو» الشهيرة بحاناتها وتبذّلها وزناها، ومأكولاتها الصينية والايطالية.

ذهبت إلى التواليت في محطة بيكاديللي، فرأيت جمهرة من الرجال محلولي البناطيل قليلاً، يتظاهرون بالتبوّل ولا يتبولون. فتحت أزرار بنطلوني، فأشرأبت الاعناق بفضول ووقاحة. زرّرت بنطلوني وهربت ببولتي دون أن ألتفت إلى الوراء. هنا ـ وما كنت أدري ـ أحد مراكز الشاذين جنسياً. البوليس لا يستطيع أن يتدخل قانوناً، لمجرد الشك، حتى لو بقوا ساعات طويلة على تلك الوضعية، وبدون تبوّل. قد يكونون يشكون من انحصار البول، فكيف للبوليس أن يثبت عكس ذلك؟ حتى وإن عرف الجميع انهم شاذون جنسياً.

قلت هربت دون أن التفت إلى الوراء صعدت السلّم. سألتُ بائع الصحف عن عنوان في شارع «بيكر». قال كلاماً لم افهمه. كان يتكلم لغة يسمونها «الكوكني» (وهي اللهجة الدارجة التي يتكلمها أهالي لندن في المنطقة الشرقية منها). رجوته أن يعيد ما قال، فضحك ونطق جملة أكثر استغلاقاً، وهنا هبَّ صديقه المخمور الواقف إلى جانبه وقال لي: .He is pulling your leg نفرت أشدَّ نفور. ربطت مشهد الشاذين المرابطين في التواليت دون تبوّل، بجرّ الساق، فاقشعرَّ جسدي. تحدثت لسيد البيت بعد أشهر عن هذه الحادثة، مشتكياً، فضحك ضحكاً طويلاً وسعل من جرّائه. قال إن هذا مصطلح، يعني: «أنه يمزح معك». بلعت خجلي، وأخذت أدنو من اللغة بحذر وتأنٍ.

اقتنعت أن سيدة البيت وزوجها، يجهلان الثقافة والكتب وأسماء الأدباء والرسامين الانكليز، التي كانت متداولة فيما بيننا ـ

مكتبة الفكر الجديد

نحن الشباب ـ بالعراق. فهما يجهلان مثلاً، تي. أس. إليوت، وأيدث سيتول، ولورنس دريل، ولا يعرفان عن دي. ايج. لورنس، سوى أنه كان متهماً بالنازية. كانت سيدة البيت لا تعرف أين تقع مصر. وقد صرفت وقتاً طويلاً مع سيّد البيت، وأنا أشرح له انني من العراق وليس من ايران، وان بغداد هي عاصمة العراق وليست طهران. اقتنعا اقتناعاً خفيفاً، وكأنهما يشكان في قدرتهما على تذكر هذه المعلومات الجديدة فيما بعد (لماذا كنّا ندرس كل اوروبا ومدنها، وكلّ أمريكا شماليها وجنوبيها ومدنها الصناعية، وعدد سكانها، وليس في مدينتنا مطار، اللهمَّ إلا قطار فرعي يذهب بنفس الخط الحديد مساءً ويعود على نفس الخط صباحاً قبل استيقاظ الديكة والأذان). مع ذلك كانا أغنى منّي معرفة وأثرى، يصلان إلى المعنى بكلمات قليلة، مثل كلمات برقية مركزة. يتوضح المعنى أكثر بالتلون الموسيقي في الجملة. تسمع في ذبذبات الصوت، الهديل مرّة وهزيم الرعد مرّة. تسمع الامومة في أعمق تجليات حنانها مرّة، وأضعف ارتعاشات الخوف مرّة أخرى.

حبال صوتي مدوزنة على ايقاعات صوتية رئيسية وقليلة. وتائر محدودة بلا تنويعات. حنجرة سيدة البيت اوركسترا كبيرة ترقّ آلاتها كأجنحة فراشات، وتصعد كموج. حنجرتَي طبلة وناي يتحاوران بملل طويل.

طوّعت سيدة البيت وسيّده (هي لم تكمل الدراسة بسبب الحرب الثانية، وهو نفر عسكري كان يشتغل في معامل الأسلحة، فنخبت صدره المواد الكيماوية)، الثقافة، إلى حاجاتهما اليومية. يعرفان كلَّ ما يتعلق بنظافة البيت وتعقيمه، ما أفضل السوائل لتنظيف السجاد والشبابيك، يربيان النباتات البيتية حسب تعليمات الخبراء.

مكتبة الفكر الجديد

سيدة البيت تغني للنباتات وتحدثها بعاطفة وكأنها في حضانة. تسقيها بمقدار، حسب التعليمات، وبدورق خاص. كل حاجة في البيت، جامدة أو نباتية، لها شخصية خاصة، وتحتاج إلى تعامل خاص، ومداراة علمية، حسب آخر الوصايا المختبرية. كنت بالمقارنة، أتغنى بالقوس قزح، وربما أسرد أجمل ما كتب فيه من شعر، وفي أية لوحة رُسِم، وهما، سيدة البيت وسيد البيت يتلذذان به كالأطفال، ولكنهما يعرفان تكوّنه العلمي، وتدرّج ألوانه، ويعرفان بدقة انسجام الستائر مع الأثاث مع ديكور الحائط، ويفضلان ـ عن طريق القراءة والتجريب ـ أفضل المواد لتلميع مقابض الابواب. حنجرتي صدئة ومروّضة على إيقاعات محدودة، وأنماط متوقعة. حين أتحدث، لا أدري أين تختفي، الكلمات والجمل التي تعلّمتها. وما من شيء تعلّمته يكفي لحوار طوله ساعة في كلّ مرة. حين أُصغي لهما، لا أجد في تعابيرهما، كلمات خارجة عن المألوف، ولا صياغة متعسرة. مع ذلك، أجدني عاجزاً. لابدَّ أنّ هناك أسباباً أخرى. عليَّ أن أتأنى فلستُ في عجلةٍ. تعلّم لغة، نموّ يمكن تسريعه إلى حدّ ما، ولكن لا يمكن اختصار مراحله.

لم يزدني الإحباط إلاّ هوساً على هوس. قلتُ لأدخل اللغة من بابها الأوّل. في المكتبة. وضعتُ قاموسي على الطاولة مع عدتي من الأوراق، واستللت من كتب الأطفال كتابين لا على التعيين، بدأت أقرأ وأدون وأراجع القاموس. لم أُثرْ فضول العاملين في المكتبة ولا فضول الأطفال وآبائهم. لقد رُبّوا هنا على حمل الاشياء على محمل الجد. كثيراً ما يستشهدون بمثل قديم: «الفضول قتل القطة»، رغم أنَّ لها تسعة أرواح.

قرأت كمية كبيرة من هذه الكتب بانجذاب حقيقي.

مكتبة الفكر الجديد

ما كنت أدري أنني سأدخل إلى عالم مسحور، عالم «ألِس في أرض العجائب». الكلمات كبيرة الحروف، الجمل قصيرة، والصور نزفٌ من الألوان، العصافير على الأشجار كالثمار الملونة، أنواع الطيور، ضفادع تثير الشفقة في جلستها على عجيزتها، أو في سباحتها في الماء وسيقانها ضعيفة وطويلة وكأنهما ذيلان رقيقان، غزالة برأس ممتلئ بأجراس عيد الميلاد وذنب منتصب كنبتة برية، سمك يرفع نفسه فوق الماء قليلاً بأفواه كبيرة مبتسمة، حمار صامت بودّ واستغراب، بطوط تثرثر فيما بينها وهي طائرة، سنجاب على الشجرة، سنجاب وبندقة صغيرة بين يديه القصيرتين، يقضم بها بعجلة، كأنه يدغدغها.

عالم مسحور تختلط فيه براءة الحيوان ببراءة الأغصان، ببراءة الماء، ببراءة الألوان والغيوم، ببراءة الكلمات والحوار.

هل عدتُ طفلاً؟

فعلاً عثرتُ على واحةٍ حنون، توسع عالمي بأسماء الحيوانات والنباتات. حيوانات لها ارقّ الأفواه البشرية في التخاطب. وأشجار تساقط عليك ثمراً ورحمة، وتغطيك بأحنى ظلّ، وفوقك الهديل والسقسقة.

زارتنا مرّة في لندن، قريبة لنا مع ابنها، كان عمره خمس سنوات. ابنتي الصغيرة تقاربه بالعمر، تعارفا أولاً بالنظرات الفضولية والاستكشافية، وبحذر انسجما بدُماها الأجنبية. يتحدثان: هي بلغتها الانكليزية وهو بلهجته العراقية، مع ذلك انسجما لا بالأفكار وانما بالعمل. مرّة تظاهرتُ بالنوم. عزفت سارة على البيانو نوتتها المفضلة. اشترك معها بحماقة بكل أصابعه، فنهرته. بعد ذلك، ناغت قطتها بدلال، وهو يراقب بغضب، ثم

مكتبة الفكر الجديد

بدأت تقرأ بصوت عال، فإذا به يصرخ بها: سأكسر البيانو، وأقتل القطة، وامزّق الكتاب. من أين جاء بهذه الألفاظ؟ أيّ مجتمع هذا الذي يغرس في طفل عمره خمس سنوات، كلّ هذا الاستبداد وحبّ التدمير؟ أيهما أكثر لا معقولية خيال تلك القصص العذبة عن الحيوانات المؤنسنة، أم واقعية هذا الطفل العراقي الوسيم ذي العينين النافذتين لدرجة الاختراق؟

ما همّني؟ المهمّ أن أتعلّم اللغة، وان جاءت على لسان طير أو دعسوقة. حقاً غمرتني سعادة، وأنا اتعرّف على هذا العالم المسحور، وكأنني عثرتُ على شيء مفقود. ألثغ بالكلمات، وأذني تزداد إصغاءً.

في المقهى في إحدى المرّات، سألتُ رجلاً كبير السن بعد محاورة، غيرتها لتصب في موضوع أعرفه عن رأيه بلغتي الانكليزية. همهم لا بأس. أنا لا استطيع أن اتكلم لغة أجنبيّة مثلك. أدهشني، حينما قال: كلماتك لا بأس، ولكننا نستعملها بطرق مختلفة. قلتُ له ما السبب؟ انحرج لأنه لا يريد أن يحرجني، همهم بعد أن أخفض صوته وتواضع، ربما هناك ثلاثة أسباب. ذكر سببين لم اقتنع بهما، وتفادى السبب الثالث. أين تكمن العلة؟ بدأت الآن بالإصغاء إلى الناس بصورة مختلفة.

سمعت سيد البيت يقول لزوجته: «سأذهب غداً إلى شركة التأمين بالباص هذه المرّة» أو هذا هو المعنى العام الذي استخلصته منه. ولكنّه كيف قال سأذهب أي سين الاستقبال بـ WILL أو WOULD، بـ SHALL أو SHOULD أو CAN أو COULD أو MAY أو MIGHT لكل من هذه الكلمات معنى محدد واحد. هل قال I AM GOING أنا ذاهب، وهي تشير إلى المستقبل؟

مكتبة الفكر الجديد

لكنَّ سيّد البيت لم يترك ساعات الغد مفتوحة، بل حدّدها في الساعة العاشرة، وبما اكتسبه عن أهمية للوقت ، لابدَّ أن يقول صباحاً أو مساءً.

الجملة الانكليزية، ليست يقينيّة جافة. تسمع الجملة الانكليزية، وكأنما اشترك في صياغتها شخصان في آن واحد: أحدهما يروي وآخر يعترض، لذا تكثر فيها خطوط الرجعة، والجمل الاعتراضية وكلّ ما يقلل من يقينيتها. إلى ذلك فهي لا تغفل عن الاحتمالات غير المتوقعة.

الجملة التي ذُكرتْ آنفاً: «سأذهب إلى شركة التأمين بالباص هذه المرّة»، جملة يقينية، مقبولة، لدى الذهنية العربية، ولكنها غفل عن الاحتمالات اللامتوقعة. قد يلحقها رجل الدين بـ «إن شاء الله»، لأن الإنسان في نظره مسيَّر بقوة غيبية أي ان أموره ليست بيده، وهكذا يسهل عليه التنصل منها إن لم يذهبْ إلى شركة التأمين، إلاّ أن الجملة الانكليزية تلك غير معنية بالجانب الغيبي، وانما بالجانب القانوني، وبالمنطق في آن واحد.

فالفعل «سأذهب»، مع سين الاستقبال، لم يقع بعد. هو مجرد قرار لم ينفذ.

وحتى يوضع موضع التنفيذ، تعترضه جملة احتمالات غير متوقعة، منها توعك الصحة، منها الطقس الذي قد يقطع سير المواصلات، منها اضراب سائقي الباصات، أوَ أي طارئ غير منظور. لذا لابدَّ من إشفاع سأذهب بما يقلل من يقينيتها، كأن تقول، إذا كانت الامور مؤاتية أو على ما يرام. وعلى هذا تكون «غداً» أقل مصيرية. ومن السهولة أن يكون غداً آخر، أي أن موعد الذهاب غداً ـ إذا ذكرت الاحتمالات ـ لا يكون ملزماً.

مكتبة الفكر الجديد

حين كنت أتحدث إلى سيد البيت، يصغي بإجهاد ويقول IF إذا PERHAPS ربما أو ARE YOU SURE ? هل أنت متأكد؟ أو إذا ضاق مني قال: I DONT KNOW لا أدري.

لماذا كان يكرّر هذه الصيغ بلطف جارح، يقطع عليَّ تسلسل أفكاري. ليتني أعرف.

قلتُ له مرّة: لي القابلية أن أحفظ بسهولة مائة كلمة انكليزية كلَّ يوم، ردَّ عليَّ باستغراب مهذب: كلَّ يوم؟ بسهولة؟

طعنني وحقّ الكعبة. يكذبني وجهاً لوجه. تغيّرت سحنتي، وظهرت روحيّتي العراقية المجبولة على المبارزة، قلت له: هل تشكّ في قابليّتي؟

اعتذر أشدَّ اعتذار، اعتذار طفل اقترف ذنباً لم يكن يقصده.

قال لي «وقع الجملة» وسكت.

ذهبت إلى غرفتي وفي قلبي إحنة. كتبت الجملة على ورقة ووضعتها أمامي؟ ما الذي افزعه في الجملة؟ قلتُ لأشرّح الكلمات ببرود وحياد، فإنني أريد أن أتعلم. (كنت في السابق أشكّ في قابلية المعترض على الاستيعاب، ربما تطورت قليلاً فهنا أُذعن لامتحان جملتي).

أعدتها مرتين وثلاثاً، كان محقّاً، فلو قالها لي شخص آخر لشعرت بقرف أكبر مما شعر به سيّد البيت. أولاً ومن حيث المعنى الإجمالي، هي جملة مزهوّة بنفسها، متغطرسة ومغرورة، ثم هي غير دقيقة الصدق. ثمَّ هي إهانة لقابلية السامع بصورة غير مباشرة. الواقع انني لم أكن «احفظ» مائة كلمة في اليوم، ولكن كنت أمرُّ على، وأحاول أن احفظ باستماتة مائة كلمة في اليوم، لم يكن تعبيري دقيقاً ولا واقعياً. ثم ما هذه الكلمة «بسهولة»؟ أليست

مكتبة الفكر الجديد

تعبيراً بقابلية سيّد البيت؟ صحيح انني لم أكن أقصد ذلك، ولكنْ كان عليَّ أن احترز.

الجملة تلك، بالاضافة إلى معناها الإجمالي، لا تصلح أن تكون تركيباً قانونياً أو منطقياً، لأنها جاءت يقينيّة جافة، أي أنها لم تأخذ بنظر الاعتبار، الاحتمالات غير المتوقعة، التي ذُكِر بعض منها سابقاً. ولا حاجة للقول ان إنهاء الجملة بـ «كلّ يوم» كانت بمثابة «ذَعْك الملح في الجرح» كما يقول المثل الانكليزي.

كان من الأفضل لو قلت على سبيل المثال: «لبعض المحظوظين قابلية على حفظ مائة كلمة كل يوم. جهدت نفسي أن اكون مثلهم، ولكن لا يبقى منها في ذاكرتي مهما حاولت الا كلمة أو كلمتان أو بضع كلمات».

جملة كهذه، متواضعة، قانونية منطقية، لا تستفزُّ السامع، ولا تعيّره. قد أكون بعد تشريحي للجملة، قد عثرت على علّة رئيسية في عدم قدرتي على التواصل مع الآخرين، ولكن ما هو العلاج؟

يا ربّ عونك، لقد أرتج عليَّ.

قررت دون سابق إنذار وقبل الكدّ في ايجاد العلاج أن استأصل وكأن بالكي بعض العادات المرضية البشعة: كالاعتداد بالنفس والحديث عنها، والشكوى، ومنابزة الآخرين بمطامحي.

هنا قوم، لا يفرقون بين الاعتداد بالنفس والعجرفة. وتواطئوا على أن الحديث عن النفس، شيء شخصي لا يحسن التحدث به للآخرين. الشكوى ـ إن لم تكن عامة، فهي مرض، والطموح استعلاء وانحراف.

الإقلاع عن هذه العادات المشينة صعب، كصعوبة استبدال

مكتبة الفكر الجديد

المشي على الكفين بدل القدمين، نشأت عليها، منذ وعت أذني صوت والدتي.

الأمّ العراقية ترضع طفلها الغرور مع الحليب: أجمل طفل، أفضل طفل في المدرسة، درجاته أعلى الدرجات بين أقرانه، المعلمون يستغربون من ذكائه، جاء بالمرتبة الأولى. بجمل كهذه تنمّي الأم في طفلها روحاً ديكية، قوية في المظهر، هشة في الداخل، والديك مهما كان تطوّسه، أجبن مَنْ عليها.

المجتمع العراقي كذلك، يفضل الشهادة النظرية على الخبرة، والبنات الشابات يفضلن المتخرج على الحرفي، لأن رزقه منتظم ومضمون.

المدرسة تحشو رؤوس الطلاب، بما تفرضه من أشعار حماسية بطولية، بقيم يقاس فيها الإنسان بحجمه الفيزيائي، الضخامة مثال أعلى، العضلة آلة تدمير وهيمنة، الشاربان الكثان رجولة، وشعر الصدر فحولة، تنعكس مثل هذه القيم الصحراوية العضلية، في طريقة تعبيرنا منذ الطفولة، ولأنها تنمو شيئاً فشيئاً، لا نشعر ببشاعتها، بل نتلذذ بها، ونتفنن في سبكها بأسلوب فخم شعراً ونثراً. معظم شعرنا، معظم نثرنا يجب أن يدخل إلى مستشفى الأمراض النفسية.

شربتُ الاعتداد بالنفس والطموح، منذ البداية، وها أنا اليوم أحاول شيئاً مستحيلاً. أريد أن اعزل حليب الأم الأول عن تلك الأمراض الخطرة المعدية.

بات تعلّم اللغة أمراً مستحيلاً. اللغة ـ أية لغة ـ رضاعة ولثغة من البداية وإلاّ فلا. كيف أستطيع أن اتخلص من بيئةٍ جبلتني ستة وعشرين عاماً. حقّاً، لقد افترضت أنني ولدت من جديد، حين

مكتبة الفكر الجديد

نجوت، وكنت سعيداً أن أموت بعيداً، ولكنه افتراض خاطئ، لم أُحسن التعبير عن الحالة الشاذة التي كنت أمرُّ بها. الحالات الشاذة تولّد استنتاجاً لا منطقياً.

لم أكن منطقياً، وكان افتراضي خاطئاً.

درجت على اللغة العربية، ونهلتها قطرة قطرة. يجب أن تحترم لكبر سنّها وتجاربها. ولأن شبابها متجدد وغضّ، كانت وعاءً هائلاً لمختلف الحضارات، كانت نهراً، صبّت فيه روافد عقول شامخة من شتى الأقوام، وجعلها القرآن إكسيراً مقدساً.

قرأت الشعر العربي، واستطعمته موسيقى ومعاني. أحسه في النبض، حتى صرتُ حلبة عجيبة لمختلف عصوره، ومختلف بقاعه، وتجارب شعرائه. كنت حلبة لنوقه وأطلاله، وخموره وجواريه، لحدائه وموشحاته، وعطور حدائقه، وأنفاس عاشقيه.

ذهبت هذا اليوم وحيداً إلى حدائق «كيو» الشهيرة. تربّى هنا النباتات من شتّى انحاء العالم. الحدائق متعة للناظرين حقاً، هندسة دقيقة، وأحراش مؤطرة بسواقٍ صغيرة صافية. الاوراد طوائف طوائف حسب اللون. عالم النبات مسحور، وهو أقدس معبد، يتصفى فيه الإنسان، من هلع الشوارع والمخازن والمواصلات، ويتحلل من السرعة والزمن. توقفت طويلاً، أمام بحيرة صغيرة. أجنحة الزنبق مفروشة على الماء بسلام، وهذا أقصى طموحها. بتواضع. مكان واحد. قوت واحد، مع ذلك فهي سعيدة في حياتها بدليل نموها الداكن اليافع.

رأيت مبنى زجاجياً كبيراً، حين دخلته تصببت عرقاً، درجات الحرارة استوائية. كل النباتات هنا استوائية. في الوسط فوجئت بنخلة عالية، حزنت من أعماقي، جذعها ملتوٍ (لم أر نخلة عراقية

مكتبة الفكر الجديد

إلاّ وجذعها منتصب). كانت تعيش بالرغم عنها بحرارة اصطناعية. تنمو بالرغم عنها، وهي الآن يكاد يصل رأسها إلى سقف المبنى الزجاجي؟ هل أنا كذلك ؟ أنمو مشوهاً.

بار ما كنتُ أحفظ من شعر وهو أغلى ما أملك من ثروة. أين أعثر على سوق عكاظ، وقد اكتظت منطقة بيكاديللي بالغرباء والمطاعم والملاهي والحانات والسينمات والمسارح واللواط والزنى؟ هذه كعبة الحائرين، ندور فيها وندور محبطين هامشيين، لا على التعيين. من مطعم إلى مطعم تتغير الرائحة، ومن حانة إلى حانة تتغير الرائحة، ولكل امرأة تمرُّ رائحة وزينة وأصباغ.

لم أقرأ شعراً عربياً منذ أشهر. قلّبت البارحة ديوان حماسة أبي تمام، شعرت بمرارة شعرت بغربة، لا السيف ينجي، ولا الدرع يحمي، ولا حتّى يدفئ.

ما أصعب أن يعيش الإنسان بين بين، الأصعب من ذلك أن يعيش في فراغ. العودة من باب المستحيل نفسياً لاسيما والاوضاع بالعراق تزيد شراسة وتوحشاً، البناء عسير بلا جذور، هل أعيش فضلة؟ وزوجتي وطفلتي؟

ذكرت حماسة أبي تمام عن قصد. أنقذني هذا الكتاب الأصفر مرة. كان الليل يطبق على محطة القطار ببغداد، وكأن لا فجر لها بعد ذلك. العسس، الحرّاس، المخبرون يختلطون مع المسافرين والمودعين، يتصنتون إلى الكلمات النازفة، ويحصون قطرات الدموع، وأعينهم على الحقائب.

كانت حقيبتي الجلدية المهرأة، مشحونة ومكتظة. هي كلّ ما أملك إذن. صعد عريف عسكري، معه اثنان من الحرس القومي. أصرَّ العريف على تفتيش حقيبتي من بين مئات الحقائب. رجوته.

مكتبة الفكر الجديد

لم ينفع. ليس في الحقيبة شيء ممنوع، مجرد ملابس، أدوات حلاقة، برتقال، نومي بصرة، زوج أحذية، منشفة، وكتاب حماسة أبي تمام. لم استطع شدّها إلاّ بعد أن صعدت وضغطت عليها بكلتا قدميّ. ترددت في فتحها لهذا السبب، مما زاد في إصرار العريف. عليه توكلت، وقعت عينه على حماسة أبي تمام. ورقها أصفر حائل. قلّب بعض أوراقها، رجع إلى عناوين الصفحة الأولى، قرأ لثوان، ثمّ قبّل الكتاب وقال «ترى أنا نجس». تسمّرتُ، خفتُ أن يكون ما قاله مصيدة لي، خفت أن يقول له الحارسان القوميّان الشابان إن هذا الكتاب ليس قرآناً، نزلوا بزهو العارفين ولكن كيف أُغلق الحقيبة الآن؟

كان البرد جارحاً هذا المساء، لا أدري من أين يتسلل إلى الغرفة. الشبابيك موصدة بإحكام. أنا وغرفتي فقط، ما من حركة في الشارع، الثلج يسقط بجنون، اشتهيت دفئاً وشاياً. تعبت من تكوير نفسي ووضع ركبتيّ على بطني اثناء النوم، تمنيت أن أنام بكامل طولي. وحدتي لا تُحتمل هذه الليلة. لم آكل طيلة هذا اليوم، وما من أملٍ للأكل غداً. تمنيتُ أن أنام بأية صورة وأنسى كل شيء. ولكنّ النوم، لا يأتي متى شئت. النوم والموت سيّدان يقرّران ساعتهما ولا سلطان عليهما.

لم أفتح حماسة أبي تمام إلاّ هذه الليلة، حوافي الاوَراق تتساقط كالنخالة حتى مع أرقّ تقليب. قرأت لا على التعيين:

قال ودّاك بن ثميل المازني:

رويداً بني شيبان بعض وعيدكم

تُلاقوا غداً خيلي على سفوانِ

مكتبة الفكر الجديد

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى
إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغرّ من آل مازنٍ
ألاة طعان عند كلّ طعانِ
مقاديم وصّالون في الروع خطوهم
بكل رقيق الشفرتين يمانِ
إذا استنجدوا لم يسألوا مَنْ دعاهم
لأيّة حرب أم بأيّ مكانِ

قرأت الأبيات عدّة مرات وبصوت إيقاعي. حاولت في البداية أن أجد أية علاقة لي مهما كانت بيني شيبان وآل مازن. هل أنا حقاً من أولئك الذين يهبّون لأية حرب، وبأيّ مكان؟ قلتُ بنفسي لماذا لم يفتحوا الترع على نهر سفوان، فيزيدوا الأرض خصباً وغناء وجمالاً، والأطفال عافية؟ لماذا لم يصوّر الشاعر «ودّاك»، شروقاً نقياً رحيماً، أو غروباً أحمر ناعماً، فيجعل الحياة كبيرة كالجبل وملمومة كالرحم. لقد خذلتني يا ودّاك بن ثميل المازني وحقّ الكعبة، ما الذي أفعله بشعرك في هذا البلد الغريب؟

قلت لأقرأ طالعي في الحماسة إذن؟ عادتي أن افتح أية صفحة من أيّ كتاب وأقرأ السطر السادس، ليكون لي دليلاً على ما سيقع لي في المستقبل. فتحت إحدى الصفحات لا على التعيين، وهذا هو السطر السادس:

«بين قرورى ومروريّاتها»

والقرورى: اسم موضع، والمروريات صحارى على طريق مكّة من ناحية الكوفة. كيف أقرأ بختي بين القرورى والمروريّات؟ رمال

مكتبة الفكر الجديد

على مدّ البصر بين الكوفة ومكّة، ما من ماءٍ جار سوى سراب خادع متشفٍ، ما من شجر وطير، ما من منازل وأطفال وصبايا، وشبابيك فضولية، وغزل يتساقط نظرات ناضجة. الرمال أقوى من الزمن، يمسح كل أثر، وكأن شيئاً لم يكن. ترحال بترحال، وفرسان يطلعون من بعيد، يمارسون القتل والسبي والنهب والسلب، ويكتبون شعر الفخر والحماسة، لا يحسّون بيتم طفل، أو ترمّل أرملة أو إجهاض شابة من الخوف. الرمال أقسى حتى من الحيوانات المتوحشة والزواحف السامة لأنها بلا ضمير ولأنها تعطش فلا ترتوي ولا تشبع.

كنت أحفظ هذه القصيدة عن ظهر قلب في يوم ما، كانت كلماتها الصعبة كأماكن جغرافية أزورها لأوّل مرّة:

حُـبِـسْـنَ فـي قُـرحٍ وفـي داراتـهـا

سـبـعَ لـيـالٍ غـيـر مـعـلـوفـاتـهـا

أعجبت أوّلاً بهذه القوافي المؤنثة، والجموع الأكثر أنوثة. حزنتُ من تعبير «حبسن»، تصورتهنَّ فتياتٍ يُمنع عليهنَّ الشارع، وجاءت سبع ليالٍ لتزيد من قهر الحبس، وما أن وصلتُ إلى «معلوفاتها»، حتى انقلبت تلك الفتيات إلى بهائم أو هكذا يعاملن. ولكن الشاعر كان يصف بدقة، الابل الصابرات على السير، والنوق السريعات، والنوق التي ترفع رأسها أثناء السير. يشبه الشاعر أعناق النوق مثل «قسيّ نبع رُدَّ من سياتها»، والنبع شجر يتخذ منه القسيّ و«سيّة الفَرَس: انعكافها».

على أية حال كانت نوق هذا الشاعر تسير «بين قروري ومرورياتها»، ولا بدَّ أنه طريق خطر، حيث لا تجد النوق ما تأكل منه سوى شجر الطلح ولا ترعى سوى نبات الحمض:

مكتبة الفكر الجديد

كيف ترى من طلاحياتها
والحمضيات على علاتها

لكن ما علاقة كل هذا بيختي هذه الليلة؟ مازالت في اوّلها، كيف أقضّي الساعات الباقية؟ المدينة هامدة مستسلمة للثلج، لا صوت إلا أرجل قطار بعيد بين الحين والآخر. قلتُ نهايتي قريبة ولم أحزنْ. كنتُ منذ أن خرجتُ من العراق، أرفض أية نهاية مرسومة لي، أريد أن أقرّر نهايتي بنفسي، وهذه هي الإرادة الوحيدة، التي لا أريد لأحد أن يسلبني إياها. لماذا إذن انتظر النهاية في هذه الغرفة الخالية من الدفء؟

شددتُ جسمي بطبقات من الملابس كالمومياء وخرجت. شعرت بسعادة غامضة، كأني فلتُّ من إطباق مرعب. أحمل الثلج على قبعتي وكتفيَّ. واجهات المخازن أصبحت حدائق أفزع إليها، كلما أصابني ملل. ألعاب الأطفال، وخاصة الدببة، والقطارات الكهربائية أتحدث إلىالدببة وأسافر مع القطارات بلا وداع واعود بلا استقبال. مشيتُ وحيداً، لا يعرفني أحد، ولا أعرف أحداً.

عبرتُ الجسر كالمعتاد، لم أر أحداً غيري. كنت مكللاً بالثلج، وللريح صفير، عشقتُ تشلسي في الجانب الآخر من النهر من حيث أسكن. منطقة شابّة كلوحات حيّة مجسمة، وهي مثل بعض الأزهار لا تتفتح إلاّ في الليل. المقاهي مكتظة بالشباب الموسر الضائع يتحدثون عن المسرح والموسيقى، بلغة مشبعة بالترف. البنات طيور بريش مختلف الشيات والألوان. يتحدثن باستبشار وإقبال ويثرثرن بوجوه ناعمة مبتسمة. خليط مزيج تتقارب فيه الذكورة من الانوثة وبالعكس.

مكتبة الفكر الجديد

كنت أدخل في المقهى متظاهراً بالتفتيش عن صديق. أنظر إلى الساعة عدّة مرات، وكأن الوقت قد حان. في هذه الاثناء، كنت بهذه الحجة أتطلع إلى الوجوه، وأتمعن في تعابيرها، أذهب إلى الباب وأعود ثانية، متمتعاً، بالدفء الذي يسري في جسدي فأعود إلى الحياة.

ثمّ أذهب إلى مقهى آخر، وأمارس نفس اللعبة. أتقنت دور المنتظر القلق، لدرجةٍ كدت أصدِّق معها، أنني فعلاً انتظر صديقاً، ولم يأت. تمنيت لو كنت أمتلك ثمن شاي واحد، لدفّأت بطني الخاوية، ولجلست مع شلة ما. لقد وقعت بحبّ اللغة الانكليزية، أو في الأصح في الطريقة المهذبة التي تُلقى بها. اللغة في تشلسي تعزف، الحناجر آلات موسيقية تختلط وتنفرد بانسجام.

استوقفتني واجهة مخزن. ثياب نسائية تكاد تحلّق من الانتشاء. تطير بالمرأة بشتى الأحلام. قستها على زوجتي، وحين ألبستها إياها ثملنا معاً. لم أنتبه إليه للوهلة الأولى، قالها مرّة ثانية: من فضلك. كان الشرطي قريباً ويتحدث بهمس. ما اسمك؟

ما عملك؟

أين تسكن؟

أريد أن أفتش حقيبتك.

قلتُ: ليس في حقيبتي شيء سوى بعض الكتب والأوراق، والكلمات الإنكليزية الصعبة التي حاولتُ أن أتعلمها هذا اليوم.

أين تدرس؟

كم سنة مضت عليك في هذا البلد؟

قلتُ لم يفتش أحد من قبل حقيبتي، لماذا تصرّ على تفتيشها؟

مكتبة الفكر الجديد

قال لأن الوقت الآن هو منتصف الليل، وفي هذه الحالة يجيز لنا القانون تفتيش الحقائب.

نظرتُ إلى ساعتي بهدوء أعصاب وقلت: لم يحن الوقت، إنها الثانية عشرة إلاّ خمس دقائق. قال: متأسف واختفى.

رجعت إلى الثياب النسائية التي تكاد تحلّق من الانتشاء. لم أسترجع صورة زوجتي هذه المرّة، الأحلام لا تُسترجع إذا ما أُوقظ النائم. تسكعت مرّة أخرى. دخلت حانة عتيقة، كأنها مصنوعة من جذوع أشجار. نحاسيّات تضيء في زوايا مختارة. قنانٍ فارغة معلقة على الرفوف. رؤوس وعول. ربما أُريد لهذه الحانة أن تكون مجموعة كهوف. تفرستُ بالوجوه، نظرت إلى ساعتي عدة مرات وتظاهرت بالتفتيش عن صديق.

خرجتُ إلى الثلج مستاءً، وقبل أن أدخل إلى ديسكو صاخب. سمعتُ صوتاً قريباً الآن، من فضلك. الشرطي نفسه، قال: الساعة الآن الثانية عشرة والنصف ولي الحق باسم القانون أن أفتش حقيبتك.

أمرنا إلى الله إذن، نظر بمحتوياتها وقال شكراً. وقبل أن يهمَّ بالذهاب قال انقطعت المواصلات العمومية الآن، ويمكننا أن نوصلك بإحدى سيّاراتنا مجاناً. شكرته طبعاً. اذن لست مهملاً مائة بالمائة.

بعد أيام تحدثت إلى سيدة البيت وزوجها عن حادثة الشرطي والحقيبة، فأجابا على الفور: بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً.

غريب أمر هؤلاء الناس، اعتبرتهما أميّين بمعاييري الساذجة لأنهما لا يعرفان إلاّ أقلّ القليل من الثقافة بوصفها اسماء كتاب وشعراء وموسيقيين ورسّامين وعناوين كتب، إلاّ انهما شديدا الدقّة

مكتبة الفكر الجديد

حينما يتعلق الأمر بالنظام والقانون. البيت كله قائم على النظام والقانون والاحترام، يتخاطبان بـ «من فضلك» و«شكراً»، وفي الخارج يطيعان القانون وإن تأففا منه. تصرّفهما بأجمعه خاضع إلى النظام والقانون، ويتحاججان به.

لم أسمعْ منهما مرّة ما نردده دائماً: حلال أو حرام، حق أو باطل، أصبح القانون في هذا البلد ضميراً يحتكمون إليه.

ذكرتُ أن اللغة ـ أية لغة ـ علاقات اجتماعية خاضعة للعرف والقانون، فلابدَّ أنها معكوسة في التراكيب والتعابير اللغوية. أقنعت نفسي بهذا الافتراض ورحتُ أتصيّد القانون في أفواه الناس. صدق حدسي قليلاً، صدق حدسي كثيراً، ثم آمنتُ بما افترضت إيماناً كاملاً.

رحت هذه المرّة افتش في اللغة عن سياقها القانوني، سواء كنت أقرأ كتاباً للأطفال أم نبأ، أم جزءاً من افتتاحية.

كتبتُ في بداية حياتي الشعرية قصيدة على بحر الهزج. لم يبق في ذاكرتي منها سوى هذا البيت، وليته لم يبق:

«تعالي ننهب اللذات من غفلات دنيانا»

الصبيان أنصع انعكاس للبيئة وللتراث. هل صنعا من عجينتي البريئة مخلوقاً كاذباً ولصّاً أيضاً؟ لم أكن في تلك السنّ قد عرفت الحبّ بعد، ولا أعرف ما هي اللذّات التي ذكرتها، ومن أين جاءتني «ننهب»؟ من التراث أم من البيئة؟ لاسيّما إذا اقترنت بـ«غفلات»؟ أهذه صورة حب طبيعي، أم أنها عملية سطو؟ ولكنْ سطو على مَنْ؟ على دنيانا؟ لماذا عاملتها معاملة عدوّ لا يرحم؟ ثُمَّ لماذا قلتُ «تعالي» باستعلاء؟ لماذا لم أقل دعينا، أو هيّا؟ في البيت أعلاه الذي يتكون من ثلاثة أفعال وثلاثة أسماء. خمس مخالفات

مكتبة الفكر الجديد

قانونية مرّة واحدة، والإثم الأكبر أنها كلّها كذب بكذب.

قادني تصيّد العبارات القانونية إلى شيء لم أكن أحلم به. لقد تعوّدت منذ أسابيع على الذهاب إلى المكتبة، لتقليب الصحف والتمتع بالدفء. لا أدري من أين نزل عليّ وحي غريب. قلت اعتباراً من اليوم، انقل افتتاحية ما، وأذهب إلى البيت وأترجمها إلى اللغة العربية، بعد أن احفظ الكلمات الصعبة والمصطلحات الجديدة. كان يوماً عسيراً يقطع النفس. لم أترجم في ذلك اليوم إلاّ أقلّ من عشرة أسطر. كان قراري في الأصل ذا حدين: أولاً ترجمة الافتتاحية إلى العربية، وثانياً إعادة ما ترجمته إلى اللغة الانكليزية ثانية. قلتُ بهذه الطريقة سأتعرف على عيوبي بصورة أوضح. داومت على هذه التمارين الشاقة لمدّة حوالي ستة أشهر، أيقنت تماماً أننا أمّتان مختلفتان، نحن شرق وهم غرب ولا يمكن لهما أن يلتقيا.

رحت اكتشف عيوبي أكثر فأكثر، كل يوم، وخاصة حينما أُعيد صياغة ما ترجمته من اللغة العربية، إلى اللغة الانكليزية. الكلمات بين يديّ، المصطلحات بين يديّ تقريباً، مع ذلك لا أتمكن من صياغة الجملة كما في الأصل. قلتُ لابدَّ أن طريقة عرض الفكرة هو الفارق الوحيد.

لا يدخل كاتب الافتتاحية إلى الموضوع بأيِّ يقين من أي نوع. يتدرج بالأفكار دون حماسة، وحين يصل إلى الاستنتاج، يكون القارئ قد وصل إلى ذلك الاستنتاج قبله. مع ذلك لا يكون حاسماً أو قاطعاً، لأنه مغلف بخطوط الرجعة والحياد البارد. قد يكون أحد أسباب هذه الطريقة، أن كاتب الافتتاحية يعتقد بيقين أن قارئه ذكيّ وفطن ومطلع وقد يكون خبيراً. لذا فهو حينما

مكتبة الفكر الجديد

يخاطبه، إنما يطارحه الرأي، كندّ، وهنا تبرز عقلانية الجملة وقانونيتها، وهي أشبه ما تكون بواجهات المخازن، تُعرض فيها السلع بدقة، وتوزَّع هنا وهناك، كما تتوزع الظلال والألوان في لوحة. يجب أن تكون منسجمة فيما بينها. حتى فوضى السلع متعمد لإيهام الحواس. لذا يلجأ أصحاب المخازن إلى خبراء في ترتيب المعروضات ويدفعون لهم مبالغ مجزية. كاتب الافتتاحية، واجهة مخزن، خبير بالعرض والإقناع.

الافتتاحية في جريدة الغارديان مثلاً «كورس» معلومات، كاتبها خبير بموضوعه أولاً، ولا بدَّ أنه خبير بالاقتصاد والسياسة وشتى الفنون والتاريخ، وهي تظهر بكلمة هنا، ومصطلح هناك. قد تكون خافية ولكنها تُقرأ فيما بين السطور. الأهم من ذلك أن معالجة ظاهرة سلبية في المجتمع، لا تفقد كاتب الافتتاحية صوابه فيتشنج، أو يعتقد أن تلك الظاهرة علامة من علامات قيام الساعة.

اكتسب كاتب الافتتاحية الصبر والجلد من مجتمعه: من المختبر والمصنع والزراعة المصنعة. فعرف أن لكل مشكلة حلولاً، وكل حلّ يحتاج إلى معالجة دائمة وطويلة.

ها قد مرَّتْ عليَّ ستة أسابيع، لم أدفع فيها ايجار الغرفة. أُغلقتْ الأبواب بوجهي، منذ السبت الماضي وأنا أتهرّب من سيّد البيت. أستيقظ صباحاً، قبل أن يتمغط سيد البيت وسيّدته وقبل أن يتثاءبا، أخرج بأقدام قطة. أفتح الباب قليلاً قليلاً، وأُغلقه قليلاً قليلاً، وانسلّ، ولا أرجع إلاّ بعد أن أتأكد من نوم سيّدَي البيت وانطفاء كل الأضوية. أفتح الباب قليلاً قليلاً، وأُغلقه قليلاً قليلاً، ثم أطمر نفسي في الفراش المتثلج. ماذا لو طالباني بدفع الإيجار، أو ترك الغرفة؟

مكتبة الفكر الجديد

لقد تراكم عليَّ الإيجار الآن لمدة ستة أسابيع، وترك الغرفة، يجب ألاّ افكر بذلك. أين أذهب بشنطتي المقطوعة المقبض؟ يجب أن أحملها على ظهري كحمال شرقي في هذه الحالة. سأكون أضحوكة. إيجار غرفة جديدة يعني أيضاً دفع ايجار أسبوعين مقدماً. هل أترك كل شيء وأهيم على وجهي، أتسكع طيلة الليل في «سوهو» وأنام على المصاطب نهاراً متظاهراً بالتعب؟ ليت المسألة بهذه البساطة.

كان عليَّ أن أخرج صباحاً تحت كل الظروف، ولو نقعت بالمطر الشديد البرودة. قدماي قطعتا ثلج وأذناي يابستان ببرودة معدن. ما الذي جنيته يا ربُّ! ولكنْ لِمَ كلُّ هذا التشبث بالحياة؟ هل كنت أخدع نفسي، حينما تمنيت أن أموت بعيداً، في خارج بلدي؟ ما الذي حبّب لي الحياة العقيمة؟ نقمت على ضعفي، ولكن من أين المهرب، والمأزق هذه المرة حقيقي والمصيدة على وشك الإطباق؟ حين رجعت البارحة في الثانية صباحاً، فتحت الباب كالمعتاد قليلاً قليلاً، وأغلقته قليلاً قليلاً. دخلتُ في البيت كمية من الهواء الرطب البارد توقظ حتى الموتى، ولكن أحداً لم يستيقظ. لم افتح ضياء غرفتي، ونمت بكامل ملابسي بإجهاد شديد. استيقظت، قبل أن يتمغط سيد البيت وسيّدته وقبل أن يتثاءبا، قلتُ ولكن إلى متى؟ وقعت عيني على ظرف ابيض بلا طابع كتب في وسطه «مستر صلاح نيازي»، تهالكت على الفراش، قلتُ ما من مفر.

قرأت الأسطر الثلاثة المرتعشة بوجل. يريد سيد البيت وسيّدته أن يزوراني عصر هذا اليوم في الساعة الرابعة، إذا كان لديَّ الوقت لرؤيتهما.

مكتبة الفكر الجديد

شعرت براحة عجيبة، المسألة ستحسم إذنْ وليكن ما يكون. لا حاجة لي للخروج هذا اليوم. كفى تشرداً. عدتُ للنوم ثانية بكامل ملابسي، لم آكل شيئاً طيلة البارحة. الجوع ينفخ عظام الرأس. يصبح معه النوم صحواً متورماً. اختلطت مشاهد حياتي مرة واحدة، ولم يعد لأيٍّ شيء جدوى، تذكرت قصيدتي «كابوس»:

الأرض لا تـــــــدور أو تـــــــدوز

الـشـرق غـرب والـشـمـال فـي الجنـوب...

ورددت عدة مرات:

يا بـؤس إنـسـانٍ يموت لا يـقـدر أن يمـوت

أو أن يـحـسّ الـلـذة الـسـوداء فـي الـوفـاة

عظم في عيني السهروردي الذي اختار موته جوعاً. ما أصلب إرادته! مات بكامل وعيه، أحس اللذة السوداء في الوفاة، فليكن ما يكون، قلت، وأنا ارتعش من البرد في الفراش بكامل ملابسي. منذ الساعة الثالثة عصراً وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، انشلّ دماغي من التفكير، وقبل الرابعة بدقائق أُصيبت أحشائي بالمغص والهلع.

فتحت الباب، دخلت أولاً سيّدة البيت يتبعها سيّد البيت، هل تسمح لنا بالجلوس؟ نسيت حتى أصول الضيافة. قلتُ عفواً. كانت حواسّي مستوفزة وكلماتي مبعثرة. توقعت في كل لحظة أن يطالباني بالايجار لمدة أسابيع، أو الأسوأ من ذلك أن يطلبا مني إخلاء الغرفة. لم يذكرا شيئاً أوّل الأمر، قلت إنهما يتحينان الفرصة. تبادلا النظرات بينهما، فشعرت بأنني أصغر وانكمش. قالت سيدة البيت غرفتك باردة. هل جهاز التدفئة على ما يرام؟ لم أُجب، قالت هل تركتَ التدخين؟ لم أُجبْ. قالت لم تقدم لنا شاياً

مكتبة الفكر الجديد

ـ كما هي عادتك ـ ؟ لم أُجب، أردت أن يدخلا في صلب الموضوع فلِمَ اللّف والدوران؟

تبادلا نظرة طويلة ذات مغزى أوضح، ونهضا معاً، وودعاني باقتضاب.

دخلت في الفراش ثانية، ووجدت نفسي ريشة في مهب الريح، حقيقة لا مجازاً. أدخلتني زيارتهما القصيرة في حيرة مستغلقة، وقلق غامض. بقيت المسألة معلقة وأصبحت أكثر تعقيداً. ما الذي ينويان عمله؟ شعرت بحاجة إلى مَنْ يفكّر بالنيابة عني، إلى مَنْ يقودني إلى ملجأ أو مستشفى. كنتُ بحاجة إلى حنان، كنتُ طيلة حياتي بحاجة إلى حنان. وفي هذه اللحظات أصبحتُ بأشدّ الحاجة إليه. دخل الليل، ولم أفتح الضياء، دُقَّ الباب دقّاً خفيفاً. اضطربت تماماً. لماذا عادا إليَّ؟ هل قررا حسم الموضوع بالنيابة عني؟

فتحت الباب، وإذا بسيّد البيت، يقدّم لي صينية، قال أرجوك أن تتقبلها هدية. تناولتها ونسيت أن أشكره.

فتحت الضياء، كانت فيها أربعة ساندويتشات: بيض ولحم وطماطم وخيار مع ورق خسّ، وعلى يمين الصينيَّة صُفَّت كارتونة سكائر «روثمانز» وإلى اليسار عشرون جنيهاً، بينها جنيه بالشلنات لإلقام جهاز التدفئة.

نظرت إلى الصينية عدّة مرات، وفي كلّ مرّة أشعر باشمئزاز أكثر، كنت بحاجة إلى حنان فهل أصبحتُ مخلوقاً أُثير الشفقة؟ الشفقة قاسية. هل كانا يعرفان أنَّ كلّ ما ادعيت به باطل؟ وأن طموحي فارغ، وان ما سأجترحه من معجزات ضراط معزى؟ ما الذي جنيته يا عراق لتجعلني هنا أُثير الشفقة؟ هل كان سيّد البيت

مكتبة الفكر الجديد

وسيدته يراقبانني، رغم ما يتظاهران به من عدم التدخل في شؤون الآخرين؟ الانكليز عموماً فضوليون تماماً ولكنهم مهرة في إخفاء فضولهم. ربما ما أثار شفقتهم هو مثابرتي على التعلّم. إنهم لا يحبون الإنسان الفاشل لكنهم يتعاطفون مع الإنسان الخائب المجدّ.

مع ذلك كانت تلك الصينيّة نقطة تحوّل جديدة، ظهر لي من خلالها ان برود سيد البيت وسيدة البيت، لم يكن برود قطّ. الأدهى، ما الذي اكتشفاه من عيوبي الأخرى؟ قمت على الفور بتنظيف المغسلة لدرجة اللمعان، رتبت الفراش على أفضل ما يكون. مسحتُ الأخشاب، والتقطت حتى أصغر قشّة من الأرض. صففت الكتب بانتظام ووضعت قصاصات الجرائد في دفتر. رتبت ملابسي في المشاجب بعناية، وجعلتُ الأحذية مصفوفة بنظام داخل الدولاب. جمعت الملابس الوسخة في كيس وركنته إلى جانب. أصبحت الغرفة أكثر انسجاماً وودّاً. نظرت إلى الصينية مرّة أخرى، عدت إلى قدح فرشاة الاسنان ونظفته بعناية. تركت الغرفة، وما تزال الصينية على حالها ولم أمسسها. تركت الغرفة والصينية وهمت على وجهي جائعاً.

كنت أسير في الشوارع مخذولاً، وصداعي لا يُحتمل. خدعتني سذاجتي. شخصيتي مزدوجة. بيني وبين نفسي، أنا انسان هشّ، وبيني وبين الناس، أنا الفارس المغوار هل من مبارز؟ كان على أمهاتنا ـ وهنّ أصل الداء ـ أن يزقفنا التواضع مع الحليب. كان على حكوماتنا أن تفتح عيادات للمغرورين، وأن تفرض ضريبة على كل كلمة مغرورة يكتبها أديب. لماذا لا نجعل الغرور جناية فعلاً؟ لماذا لا نجعل التواضع ركناً من أركان الدين؟ لو سردتَ لي مائة سبب لتخلّف الشخصية العراقية، أو لتدهور

مكتبة الفكر الجديد

الأوضاع السياسية في العراق، لقلت الغرور على رأسها وأخطرها جميعاً.

هذه الليلة مختلفة.الصينية في الغرفة، ومعدتي خاويةٌ ليومين. أسير مخذولاً في «بيكاديللي سيركس»، مع ذلك كنت منتشياً، أفكر بسيد البيت وزوجته، وبكل الذين التقيت بهم في المكتبة أو في المقهى، وما من أحد يتحدث عن نفسه، أو عمّا سيقوم به في المستقبل، إلاّ أنا انفخ أوداجي وأفرغ الحلبة من أيِّ منافس.

مرّة ـ وكان سيّد البيت وزوجته في زيارة لأقاربهما باسكتلندا ـ رأيتُ رجلاً مسناً يخرج من البيت الذي أسكن فيه، لا ينمُّ زيّه ولا مشيته على أية لصوصية. مع ذلك شككت به. اندفعت وراءه، وبصوت يابس متجهم سألته ما الذي كان يفعله في البيت رقم (٢٦). قال وما الذي يهمك من الأمر؟ قلت بصوت يابس متجهم: إنني أسكن هناك، وأن سيد البيت وزوجته غائبان. قال: تشرّفنا، اسمي مستر جون، لقد ذكر لي قبل أشهر سيّد البيت أن الغرفة مؤجرة. ما اسمك قلت: مستر نيازي، قال تشرفنا ومضى.

حين عاد سيد البيت وزوجته من اسكتلندا، بادرتهما فوراً بخبر الرجل الغريب الذي ذكر ان اسمه مستر جون. قال سيّد البيت ان مستر جون يسكن منذ سنتين في الطابق التحتاني، وهو متقاعد لأسباب صحية. إنه رجل منقطع إلى نفسه، وله اختراعات مهمة في الكهرباء. ولاعتزاز الشركة به، فإنها تدفع له راتباً شهرياً وتشتري منه اختراعاته الجديدة.

يا لله، رجل بهذا المقام، لا يسوّق نفسه للناس ولا يبشّر بها. رجل منقطع كلية إلى الاختراع بصمت وبلا منّة. لماذا لا أنزع عن صدري نياشيني الكاذبة؟ لماذا لا أكون مثله، جذراً صامتاً وعميقاً؟

مكتبة الفكر الجديد

المسألة ليست بهذه البساطة. الأوروبيون منذ عصر النهضة اكتشفوا أهمية تفاصيل الأشياء، كيف أفسّر ذلك؟ نحن نتحدث عن الغابة والبستان، وهم يفحصون كل نبتة على حدة، طولها، عرضها، خلاياها، أنساغها، لحاءها، استنباتها، تطويرها، أفضل بيئة لها. نحن نتحدث عن الصحراء، وهم يضعون قبضة من رملها تحت المجهر. يفحصون عناصرها وصفاتها. نحن نتحدث عن البحار ونتلذذ بأشرعتنا الضائعة استدراراً للعطف، وهم يصنعون البوصلة ويرسمون جغرافية البحر. يدرسون الرياح ويتنبأون بهبوبها. كان بعض العلماء في العصر العباسي أوّل من دشّن في تاريخ العرب التدقيق في التفاصيل. في تحليل الشعر والنثر، في ضبط معاني الكلمات، في تمحيص التراث، في دراسة الأمراض الحيوانية والنباتية، وكانوا السباقين في دراسة الإنسان تشريحاً، وفي كتابة النوتة الموسيقية. لكنهم واجهوا عنتاً وصلفاً من قبل العلماء من ذوي العقليات الشفاهية، مع ذلك تطور النثر في العصر العباسي تطوراً عجيباً وفي شتى الفنون، إلاّ أن الاضطرابات بين المتنافسين على السلطة مهّد لدخول المغول فقضوا في الواقع على الأخضر واليابس. وما الأخضر هذا إلاّ العقلية التدوينيّة، فرجعنا إلى الوراء قروناً.

أنا ضحية العقلية الشفاهية السائدة بالعراق.

كانت إشارات المرور تشتغل حتى عند عدم وجود السيارات. كبست على الزر وانتظرت إلى أن أصبحت إشارة المرور حمراء فعبرت الشارع بكرامة. بين غرفتي وبيتي الآن حوالي ساعة مشياً على الأقدام. في الاشارة الثانية للمرور، رأيتُ سيارة تبطئ لأن الإشارة صفراء وتوقفت عندما أصبحت حمراء. ما من سيارة

مكتبة الفكر الجديد

أخرى في الجهة المتقاطعة مع الشارع. مع ذلك ظلّ السائق منتظراً إلى أن أصبحت الإشارة خضراء. هؤلاء قوم يطيعون القانون يذعنون له لأنه يحميهم بالتساوي. لكن ألا تدلّ إشارات المرور، وأسماء الشوارع وأرقام البيوت وإشارات السيارات في الانتقال من ممر إلى ممر، أو الانعطاف إلى اليمين أو إلى اليسار، على العقلية التدوينية؟ تشتري قميصاً مهما كان رخيصاً، فتجد في ظهر رقبته رقعة نايلون وفيها تفاصيل كيفية غسله وكيفية تجفيفه. هل هو من القطن الخالص أم هو مخلوط بالنايلون، ما نسبة الخلط. وفي أيّ بلد صنع.

خطرت ببالي وأنا أغذ السير إلى غرفتي، فكرة كدت أضحك من غرابتها. خيّل لي أن المشرّع الإنكليزي يكره الإنسان. ليست له ثقة بإنسانيته أو نزاهته ويرتعب من عدوانيته ووحشيته، فراح يقيّده بقوانين ظاهرها عادل وباطنها صارم. عادل لأنها مطبقة على الجميع، وصارم لأنه لا يجوز فيها التسامح. ثمة براهين كثيرة في الأدب الإنكليزي ـ وخاصة في الرواية ـ توحي أن الإنسان شرير بطبعه. لذا لا يتركون الأطفال على سجاياهم ولا الكبار إلى نواياهم مهما بدت حسنة.

يبدو أن عقليتنا العربية على العكس من ذلك. نحن نؤمن أن الإنسان خيّر بطبعه. ترى شخصاً يعتدي على شخص آخر بالضرب والسباب، وتسمع من يقول: كان عصبياً، آ، لو تعرف قلبه؟ إن قلبه قلب طفل ممتلئ بالطيبة. متى كان الطفل بريئاً، ومتى كان طيباً؟ إنه أنانيّ يستغلّ صلة الرحم ومحبة الوالدين إلى أبعد حدود الاستغلال. يقول تعبير انكليزي متداول: «حتى تكون عادلاً فكنْ قاسياً».

مكتبة الفكر الجديد

لم أكن جادّاً في هذه الأفكار، ربما كنت أُبعد بها عن ذهني قصة الصينيّة، ولكن لماذا لا اعترف أنني مخلوق أُثير الشفقة فعلاً. ها أنني بلا تاريخ وبلا غدٍ، معدتي خاوية، أسير في الشوارع مخذولاً، وعظامي تصطك من البرد. ملابسي منقوعة بالمطر، وقد وصلت الرطوبة إلى جسدي. لماذا أكابر الآن؟ اعترفت مع نفسي انني مخلوق أثير الشفقة حقاً، وتحلُّ عليَّ الصدقة والصينية.

فتحت الباب قليلاً قليلاً، وأغلقته قليلاً قليلاً. تلمست طريقي إلى باب غرفتي بهدوء تام.

يا لله لم أجد الصينيّة. ماذا حدث؟ رأيت مظروفاً أبيض على الطاولة باسمي. فتحته بيأس قاطع: «لم نكنْ نعني شيئاً سوى التعبير عن ودّنا الأكيد لك».

هل أحسا أنني أُهنت فأخذا الصينية وما فيها؟ كيف أقاوم الجوع والبرد هذه الليلة؟ عونك يا ربّ.

في اليوم التالي استيقظت مبكراً. حين سمعتُ سيدة البيت تفتح الباب الخارجي كالمعتاد لجلب قنينتي الحليب، فتحت الباب. أُخذتْ على حين غرة، وراحت تعتذر بلا انقطاع عن فعلتهما البارحة. قلت، ولم اكن صادقاً، لقد غادرت الغرفة لموعدٍ مهم. نظرت إليَّ بعمق وصدّقت ما قلت. ثم خرجت من فمي جملة لم تكن بالحسبان. قلت لها، حتى نصلح الأمر وأثبت حسن نيّتي، فانني أدعو نفسي للفطور معكما هذا الصباح. وبما يشبه الضحك قلت: لا أُحب لحم الخنزير، وأفضل لحم الضأن مع البيض والبطاطس. قالت بابتهاج: إذن في الساعة الثامنة، بعد ساعة. أهلاً بك.

مضغت اللقمة الأولى كأني أجترها، ومصصت جرعة من

مكتبة الفكر الجديد

الشاي. كادت معدتي تشهق إلى الأعلى لتناول الطعام. وددت لو أنهما تركاني لوحدي لأتمتع برحمة الطعام وكأني أتعبده. كانت أحاديثهما كالمعتاد، مجرد تعليقات سريعة ضاحكة على ما قرآه في الجريدة وعلى ما شاهداه في التلفزيون. لا يذهبان في أحاديثهما إلى ماضٍ سحيق لاستنباط عظة منه، ولا يعدان في مستقبل بعيد لاستكناه أسراره. كانا يسميان السياسيين: «محتالين»، ومع ذلك يفوّضان أمورهما لهم.

شعرتُ بسعادتهما، وقد سوّي الأمر على هذه الصورة. كنت أُطيل المضغ والإصغاء، ولكن من أين يأتيان بكل هذا الرضا وتلك الطمأنينة؟

كانت الحضارات منذ البداية معنية بالهيمنة على الغد. الغد مجهول فلا يصح ائتمانه. محاولة كلكامش في الخلود، التناسخ، المحنطات الفرعونية كلها جهود تدلّ على قلق الانسان من مصيره أولاً، وعلى الخلود بعد الموت، في الغد المجهول.

سيّد البيت وسيدته، واقعيان عمليّان قانعان. يؤمنان أشدَّ الإيمان بالحظ ولكنهما لا يتكلان عليه. وهما في هذه الحالة يعكسان فلسفة الحضارة الانكليزية، ولاسيما في الهيمنة على الغد.

كنت قد نشأت في العراق على معنى واحد للغد، هو إرضاء الله، ومعنى واحد للخلود هو الجنّة، فأصبحت سعادتي مرهونة بغيب مجهول، لا يتحقق ـ إن تحقق، فبعد موتي.

القوم هنا وان آمنوا بالجنة والنار بصورة غامضة إلاّ أنهم واقعيون وعمليون. الغد الذي يعنيهم هو الغد القريب، الغد المعاش. ومن محاولاتهم للهيمنة على هذا الغد، نظام التقاعد مثلاً، حيث يزداد مرتب المتقاعد سنوياً بمقدار مستوى المعيشة، ونظام التأمين على

مكتبة الفكر الجديد

الحياة، وعلى الصحة، وضد الحوادث التي تقعد الإنسان عن العمل، التأمين على السيارة والبيت وأثاثه. بالاضافة إلى النقابات التي تحمي منتسبيها من استغلال أصحاب العمل، وإلى ما تعطيه الحكومة من إعانات مالية للعاطلين عن العمل.

لماذا لا يكون إذن سيد البيت مطمئناً يتحدث بلا تشنج، ما دام مرتبه الشهري يزداد سنوياً، وما دامت سيّدة البيت تحصل على مرتب تقاعدي بحكم سنّها. وفوق هذا وذاك تذاكر سفرهما في القطار أو الباص مجاناً، والتطبيب والأدوية مجاناً، ولهما تخفيض في أسعار تذاكر السينما والمسرح.

كان فطوراً شهيّاً، ثملت من لذاذته، ومن حرارة المدفئة. تمددتْ عضلات جسمي وشربتُ كوبيْ شاي كبيرين وكأني أرضعهما. رأيت الصينيّة إياها مركونة قرب المغسلة. تناولت علبة السجائر، وشربت سجارتين مرّة واحدة. قالت سيدة البيت خذ السجائر كلها. اقبلها هدية رجاءً. قال سيد البيت: خذ العشرين جنيهاً رجاءً، وإذا شئت اعتبرها ديناً. قلت: وهو كذلك. إنني سأتسلّم صكاً غداً صباحاً، وسأدفع الايجار وأردّ العشرين جنيهاً. أنا متأكد من ذلك (مرّة أخرى ألجأ إلى الكذب. لماذا قلتُ ذلك؟ لماذا قلت غداً؟ ولماذا قلتُ أنا متأكد؟).

قال سيد البيت لدينا ثلاثة راديوات، لماذا لا تستعير واحداً، سيساعدك في تعلّم اللغة الإنكليزية. ثم علمني عدد المحطات الإذاعية وأطوال موجاتها ونوعية برامج كل محطة. أصبح الراديو كتابي الجديد، كنت أشتري مجلة برامج الإذاعة والتلفزيون وأتابع البرامج الثقافية وعلى الأخص القصص القصيرة. باتت عادتي أن أعلّم على البرامج الثقافية وأذهب إلى المكتبة، مستفسراً إن كانت

مكتبة الفكر الجديد

لديهم هذه القصة أو تلك، حالفني الحظّ في معظم الأحيان. أستعير الكتاب وأقرأ القصة بمساعدة القاموس عدة مرّات، ثم حين أسمعها في الراديو التحم بها بانتشاء وكأني اكتشفت أشياء جديدة. الإلقاء الجيد نوع من النقد التطبيقي.

خرجت مساءً إلى قلب لندن، بالباص هذه المرّة. السفر بأية واسطة للنقل يثير في الإنسان مشاعر دفينة وكأنها تتراجع وتصبح جزءاً من الماضي. حينما كنت أمرُّ على نفس المشاهد، مشياً على الأقدام، كنت أصلها وهي ثابتة كأنها هي التي تتفرج عليّ. أما محمولاً في الباص، فالجانبان يتراجعان كالأمواج على جانب سفينة. كنت شخصاً غيري هذا المساء. أخترتُ طاولة وشربت القهوة بالكريم، وضعت سيجارة جديدة في فمي وتنفستها وثملت. نظرت في قائمة الطعام. فتحت شهيتي بشوربة خضروات. طلبت سمكة «تراوت» مع بطاطس وسلطة، وختمتها بعصير برتقال. رجعت إلى الغرفة مبكراً. وضعت جنيهاً كاملاً في جهاز التدفئة، وفتحت الموقد الكهربائي المعلق فوق فراشي مباشرة، اسودّت أسلاكه وطقطقت في البداية، ثم انتشر لونها الدافئ الوردي في أرجاء الغرفة. فتحت موجة راديو (٣) فانتشى كل شيء. حتى الستائر بدت مختلفة في الضوء الوردي الدافئ وفي الموسيقى. كم مضى على هذه الستائر من شهور، ولم تسمع سوى الصمت، ولا تتحرك إلاّ حينما ترتجف من سيوف البرد الهابة من شقوق الشبابيك؟

غسلت قميصين وبعض الجوارب والملابس الداخلية. وعلقتها بأناقة مقابل المدفئة. انسللت في الفراش. كان دافئاً فتمددت بطولي. تركت الراديو حتى منتصف الليل، ونمت من أعلى المخدة

مكتبة الفكر الجديد

إلى نهاية السرير، والمدفئة فوق رأسي حتى الصباح.

استرخت عضلات جسدي بارتياح شديد. استيقظت، وعدت للنوم بتلذذ حتى الساعة التاسعة صباحاً. فتحت الراديو وأغمضت عيني. سمعت دقّاً خفيفاً وظننت أني أحلم. ثم دقتين وصوت يناديني. قال سيد البيت: رسالة مسجلة لك. كان ساعي البريد بالباب. مَنْ الذي يرسل لي رسالة مسجلة من لندن؟ قرأت اسم المرسِل على الظرف الخلفي فإذا به اسم مؤسسة أو شركة. تطيرت. قلت لأفطر في البداية قبل شيء، تجرأت وفتحتها، في بداية الرسالة شكر لي على مساهمتي، وجملة لم أفهمها تماماً ولكنها تشير إلى إعجاب بمقالة، آ، بمقالتي. كان مرفقاً مع الرسالة صك بخمسين جنيهاً. قرأت الرقم ثانية خشية ان يكون خمسة. قرأت الكتابة فتأكدت «ادفع لصلاح نيازي خمسين جنيهاً لا غير». في الواقع لم يكن صكاً، بل كان حوالة بريدية أستطيع أن أصرفها في الحال.

إذن لم أكذب البارحة حين قلت لسيد البيت وزوجته: «انني أتسلّم صكاً غداً صباحاً...». صعدت إليهما على الفور لأريهما الرسالة والحوالة البريدية. لأبرهن على صدقي أولاً وعلى أني أديب يعيش من كتاباته.

كانت هذه الحوالة البريدية أوّل مكافأة نقدية في حياتي عن مقالٍ كتبته. مسألة هذا المقال كالتالي: كنتُ قد تعرّفت على محرر فلسطيني عن طريق صديق امتدحني بمبالغة. وبدون مقدمات أعطاني ديواناً جديداً لنزار قباني، وسألني إن كان لديّ وقت للكتابة عنه. لم يكن شعر نزار قباني يعجبني يوم كنت ببغداد. كنت أشعر أنه يتقن صناعة الشعر ولكن لا يخلقه. كنت أفتش في الشعر عن الأصالة الدامية حتى العظم. قلت للمحرر بلا

مكتبة الفكر الجديد

تردد: هل لي أن أكتب رأيي الحقيقي؟ وحين وافق، قلتُ هل يمكن أن أوقع المقال باسم مستعار، لأنني لا أريد أن أدخل في متاعب، فلديَّ منها ما يكفي وزيادة. وافق وقال سندفع لك مكافأة. خُيِّل لي انها ثلاثة جنيهات من الطريقة التي نطق بها «مكافأة» بسرعة واستحياء. وها هي الآن خمسون جنيهاً. عدّها المحاسب مرتين وسلمني إياها.

على الفور دفعت ايجار الستة أسابيع المتأخرة، وأرجعت العشرين جنيهاً.

فتح لي هذا المقال ثلاثة أبواب صغيرة مرّة واحدة. كان المحرر الفلسطيني يسألني أن أراجع له مقالته الشهرية، نحواً وتركيب جمل. قال الأمر بيننا وأعطاني ثلاثة جنيهات. مع ذلك كان لا يكفّ عن المماحكة، وكثيراً ما كان يمتحنني بمعنى كلمة أو بصيغة صرفية، أو بقاعدة نحوية. لا يريد أن يقتنع مهما حاولت في إعطاء الشواهد رغم أنه كان يأخذ بكل تصوياتي. يقرأها كأنه انتصر على زملائه الذين يتندرون على ضعف لغته وأسلوبه. مع ذلك لم يشكرني مرّة، بل كان يفاجئني بالقول مثلاً: وجدت لك بعض الأخطاء، أو ابقيت معظم الجمل التي غيّرتها. باختصار كان همه التشكيك بقابليتي اللغوية، ولكن سمعت من اثنين في الأقل، أنه كان يمتدحني ويضعني فوق مصاف أفضل زملائه.

عن طريق ذلك المقال كذلك تعرفت على موظف عالي المنصب في شركة «شل» كان في نفس الوقت طالب دكتوراه في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة لجامعة لندن.

منذ البداية عيّن ما نوع المساعدة التي ينبغي عليَّ أن أقدمها له. مراجعة نصوص عربية شعرية قديمة. قال سيدفع جنيهين في

مكتبة الفكر الجديد

الساعة. وهذه الساعة يجب أن تكون في الرابعة عصراً من كل يوم خميس، ولمدة شهرين. قال سيدفع لي أجور الطريق بالباص ذهاباً وإياباً. كان يدوّن بنود عقد واضح العبارات حتى وإن كان يقول ذلك شفاهاً.

وبعد يومين وصلتني رسالة منه يؤكد فيها الاتفاق.

المسألة بمنتهى الجدّ. كانت المقطوعات الشعرية أمامه ونسخة منها أمامي. أوراق وعدة أقلام. استأذنني بتسجيل الدرس.

بدأنا الدرس بقصيدة لدعبل:

كانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعتْ
فقصُّ مرُّ الليالي من حواشيها
أضحى أبو القاسم الشاوي ببلقعةٍ
تسفي الرياح عليه من سوافيها
هبّتْ وقد علمت أن لا هبوب به
وقد تكون حسيراً إذ يباريها
أضحى قِرى للمنايا رهن بلقعةٍ
وقد يكون غداة الروع يفريها

قرأتها بإلقاء لا يخلو من تكلف. أردت أن أبهره بصوتي ولغتي. لكن وهن صوتي قليلاً، حين مررتُ بكلمة ببلقعة. أعرف أنها مكان ولكن ما نوع المكان؟ وحين وصلتُ إلى كلمة «حسيراً» ارتجف صوتي فعلاً. ذلك أني لا أعرف للحسير إلاّ معاني معينة لا ينسجم أيٌّ منها مع معنى البيت.

ثمَّ ما القرى بالضبط، هل هو مجرد طعام، أم أنه طعام خاص؟

مكتبة الفكر الجديد

وما معنى «تسفي»؟ وما معنى «لا هبوب به»؟ هل الإنسان يهبُّ؟

لا ريب أننا نرث هذه الكلمات ونتداولها، ولكنّنا لم نربَّ على التدقيق فيها في القاموس أولاً لمعرفة معانيها الأخرى، ولا كيف وظفها الشاعر، وما هي تداعياتها في النصّ؟

يبرز هذا العيب حين تشرع في الترجمة. الترجمة محكّ للفهم.

قال تلميذي ذو المنصب الكبير: لأدقق معك معاني الكلمات. وأخرج ورقة:

الثاوي: المقيم

البلقعة: المكان الخالي

تسفي الرياح: تطيّر التراب

الهبوب: الانتباه والحركة من النوم

حسيراً: ضعيفاً

القرى: طعام الضيف

ثم سألني هل صحيح أن معنى قصَّ هو تتبّع؟

تنفست الصعداء وأنا أتعلم ما غمض عليَّ. أنقذني من إحراج محقق..

قلتُ ربما ثمة خطأ في الطباعة، فالتتبع هو لمرور الليالي. القصّ هنا بمعنى يقطع. ويقال في العربية: قصَّ الموت فلاناً إذا دنا منه، مما ينسجم مع ما آلت إليه خزاعة من انكماش.

سألني بعد ذلك أسئلة لم تكن لتخطر على بالي. كنت أمرَّ بامتحان عسير.

سأل لماذا قال الشاعر «ما اتسعتْ» ألم يكن تعبير «ملء الأرض» كافياً؟

مكتبة الفكر الجديد

ثم توالت الأسئلة:

لماذا ذكر الشاعر مرُّ الليالي، ولم يقل الزمان؟ هل كان يعني إلحاح النكبات التي لا تنقطع؟ هل كلمة قصُّ مع ذكر الحواشي تدل على أن الشاعر كان يفكّر بثوب واسع دلالة على سعة العيش؟ لماذا قال الثاوي ولم يقل ثاوياً؟

ثم فاجأني حقاً حينما سألني لماذا أكّد الشاعر في البيتين: الثاني والثالث على الرياح؟ ثم سألني ما دلالة «رهن» في البيت الرابع ولماذا قال الشاعر أضحى مرتين ولم يقل أمسى؟

ثم قرأنا قطعة ثانية وثالثة وانتهت الساعة. قلت بلا تردد: أرجو إرسال ما تريد أن نقرأه في الخميس المقبل، لأتوسّع فيه.

كان إحراجي واضحاً، ولولا تعلّلي بضعف لغتي الانكليزية (وضعف لغته العربية) لصرفني عن تدريسه. لكنه كان لطيفاً. سلّمني الجنيهين في ظرف انيق مع عبارة شكر. كرهت النقود في تلك اللحظة، لقد أعطاني هذا التلميذ اللعين دروساً عملية، دلّلت على قصوري في فهم ما كنتُ أستاذاً فيه، أو هذا ما خوّلتني إياه الشهادة الجامعية.

لدى توديعي عند الباب، سألني بجدّ لماذا ربط الشاعر الطعام بالمنايا؟؟

قلتُ سنرى.

طيلة الطريق إلى غرفتي، كنت أفكّر مبهوراً ومرتعباً، بساعة الامتحان تلك. شعرتُ بالفشل يخنقني، فرحت أصغر. هل كنت أجترّ الأدب العربي دون أن أهضمه؟

أستعدتُ ما دار بيننا من أسئلة وأجوبة. قرأتُ الأبيات ثانية

مكتبة الفكر الجديد

وثالثة. لماذا قال الشاعر الليالي بدلاً من الأيام؟ ما الفرق؟ هل لأن الليالي حبالى بالظلام والمجهول والغموض، بينما الأيام مجرد توالي الزمن؟ وهل الليالي هي التي استحالت إلى «المنايا» في البيت الرابع؟ ولكنْ لماذا جُمِعتْ المنايا فعلاً مع القرى أي طعام الضيف؟

خيِّل لي أن الليالي في البيت، إلحاح متواتر، كإلحاح جناح صقر وهو يصفق وجه غزال، فيسدُّ عليه الطريق. عندئذ خُيِّل لي أن المنايا، على ضوء ذلك، هي أقرب ما تكون إلى الطيور الجارحة، حينما تجتمع على بقايا ميّت. إذن هل كان المرثيّ مكشوفاً في العراء أي في بلقعةٍ، بعيداً عن الأهل؟

تذكرتُ ما قلته له تفادياً، إن الأبيات قطعة عضوية متواشجة ذات بناء دقيق. إلى ذلك فهي على العموم صراع بين حركتين غير متهادنتين. صراع ممضّ بين الإنسان وبين القدر الذي ينتصر في نهاية المطاف ودائماً.

كتب تلميذي على عجل، ما قلته. رفع رأسه وقال ضاحكاً: بالتأكيد لم يقرأ بيتهوفن هذه الابيات حين ألّف سمفونيته الخامسة! أو أنهما على طرفي نقيض؟ قال: في هذه السمفونية C. MINOR التي يبدأ فيها القدر بالدق على الباب، صراع ثلاثي محتدم بين الآلات النحاسية التي ربما تمثل القدر وبين الآلات الوترية التي ربما تمثّل الإنسان، والأبواق التي تتحلل فكرتها الرئيسية إلى أسلوب مكون من لحنيْن لهما علاقة بالفواصل الموسيقية الأولى. ثم قال: في الفاصلة الموسيقية ٢٢٨ يتشكل الموضوع الرئيسي ثانية بأسلوب جديد ذي علاقة بالفواصل الافتتاحية. كذلك تبدأ النغمية باكتساب وجهة معينة. هذا الأسلوب الجديد يعود للظهور في الختام الضخم ثم قال: ـ كما تعلم ـ فإن بداية الحركة الأولى شبيهة

مكتبة الفكر الجديد

بمقطع من ترتيلة دينيّة لكوروبينو HYMME DU PANTHEON، وراح ينشدها باللغة الفرنسية. ثم قال:ـ كما تعلم ـ هناك تشابه بين الموضوع الافتتاحي في حركته البطيئة وبداية الحركة البطيئة للسمفونية الأربعين لموتسارت.

ثم قام إلى البيانو وعزف موتسارت أولاً، ثم بيتهوفن. التفت إليّ وقال: التشابه واضح. أليس كذلك؟

كانت هذه الـ «أليس كذلك» وتلك «كما تعلم» مطرقتين، كدقات قدر بيتهوفن على الباب. لم اشعر بخجل من جهلي بقدر ما شعرت بوخز وخيبة ورثاء لنفسي. هكذا كان الاحباط يطبق عليّ. معرفتي بالأدب العربي سطحية تلقينيّة. وها أن معرفتي بالموسيقى الغربية ضحلة محزنة.

استمعت ببغداد إلى السمفونية الخامسة. عدّة مرات، مع صديق ثريّ. حَفظت بعض أنغامها ببغاوية. كنت من خلالها ابتعد عن الواقع. يهيم بي خيالي جبالاً ووديااً ورياحاً وأمطاراً. أسبح في عالم من صنعي لا علاقة له بالسمفونية. مع ذلك كنت استعلي به عليّ لداتي. وإن أنسَ لا أنسَ رسالة صديقي إلى زميلته الجامعية، التي افتتحها بقوله: بينما كنت استمع إلى سمفونية بيتهوفن الخامسة محلّقاً في سماواتها، فإذا أنت أمامي بنظراتك الحامية وابتسامتك الحييّة. قبل يومين عرفتك من بين كل الطالبات، من شعرك الأسود، المتموج على كتفيك، كم تمنيتُ لو تلتفتين إليّ، ظلّ خيالك معي، حتى وأنا استمع إلى المحاضرة...

بهذه الصيغة أو بصيغة شبيهة بها كنّا نستمع إلى السمفونية الخامسة. تلميذي الانكليزي اللعين يعرفها بالتفصيل وكأنها شيء مجسم. يعرف كل آلة فيها، دلالتها، علوّها أو انخفاضها، متى

مكتبة الفكر الجديد

دخلت في النسيج الموسيقي وكيف؟ متى ذابت وتلاشت؟ لماذا ذابت وتلاشت؟ ما لونها؟ ما نغميتها؟ ما مساحتها؟

قلت بنفسي: يا لله ايّها التلميذ، إذا كنت ملمّاً بكل هذه التفاصيل الدقيقة، فما علاقتك بدعبل و «وكانت خزاعة ملء الأرض ما اتسعت»؟

بعد يومين وصلتني رسالة من تلميذي ومعها النص الذي سنراجعه يوم الخميس المقبل.

استغربت حقاً، من أمر تلميذي. ما الذي حبّب إليه رثاء «مويلك المزموم» لامرأته أم العلاء:

أمرز على الجدث الذي حلّتْ به
أم العلاء فحيّها لو تسمعُ
أنّى حللتِ وكنتِ جدُّ فروقةٍ
بلداً يمرُّ به الشجاع فيفزع

بادرت على الفور بمراجعة القصيدة كلمة كلمة. احتطت لكل شاردة وواردة طرحتُ على نفسي اسئلة توقعتُ تلميذي سيسألني إياها. تكشفت لي معانٍ لم تخطر ببالي من قبل. فإذا هي قصيدة متلاحمة حقاً، وإذا هي في قمة الرثاء العربي.

قبل الدرس الثاني، قدّم لي تلميذي هدية، فتحتها فإذا هي شريط للسمفونية الخامسة، مع مقالة مصورّة عنها. قال على عجل: كنتُ محظوظاً هذه المرة، فقد عثرتُ على هذا التسجيل النادر بقيادة أرتورد توسكانيني، في محلٍ متخصص ببيع الاسطوانات القديمة في «شبردبُش». ثم أمطرني بالاسئلة، وابتدأ لهاثي، وجدتُ في القصيدة معاني أخرى، قال: إنها قصيدة مؤثرة، ربما من

مكتبة الفكر الجديد

الصعوبة العثور على شبيه لها في الشعر الانكليزي. لقد زاد الشاعر من درامية القصيدة بوجود الطفلة اللاهية، التي لم تكن تعي الموت، موت أمّها.

ذكرت له قصيدة رثائية فريدة أخرى، للطغرائي، فاقترح أن نقرأها معاً مع أبيات للشنفرى، سيرسلها لي بالبريد.

لماذا كان هذا التلميذ مهتماً بقدر بيتهوفن؟ هل أُعجب بإرادته؟

لماذا جاء ذكر السمفونية الخامسة مع دعبل؟

قال بيتهوفن عام ١٨٠١: «سأزنق القدر. لن يهزمني كلية». ولكن لماذا؟ أو بماذا يختلف توسكانيني عن غيره في قيادة هذه السمفونية؟ تصفحت بعض ما تيسر لي عن توسكانيني في المكتبة. ولكنّ ما ظلّ ببالي جملة في وصفه: «أنه لا يؤمن بالحماسة والخيال، وانما بالتقنية». ما معنى ذلك؟ هل التقنية في العمل الفني هي أهمّ ما فيه؟ هل تلميذي بلا حماسة ولا خيال، ولكنّه يؤمن بالتقنية فقط؟

عدتُ أفكر بما قاله عن الاسطوانة مرة أخرى: كنت محظوظاً هذه المرّة، فقد عثرت على هذا التسجيل النادر بقيادة أرتورد توسكانيني في محل متخصص ببيع الاسطوانات في «شبردبُش».

جلب انتباهي أولاً «محظوظاً» و«هذه المرة». يعزو الانكليزي نجاحه عادة إلى الحظ لا إلى قابليته. «وهذه المرة» تواضع ثان، تنمُّ عن أنه لم يكن محظوظاً دائماً. ثمَّ ميّز فرادة التسجيل بذكر توسكانيني، وعيّن لي المكان حتى يرشدني إن كنت حريصاً على شراء اسطوانات قديمة، أو ربما لديَّ معلومات عن محل متخصص آخر، أقرب وأفضل.

لو أراد بعض العراقيين أن يعبروا عن تلك المعلومة، فما الذي

مكتبة الفكر الجديد

يمكن أن يقولوا؟ ربما قال أحدهم: «لا بدَّ أن أعثر على هذا التسجيل، بقيادة أعظم قائد موسيقي توسكانيني. ذهبت البارحة إلى المحل رأساً. وقعت عيني من بين مئات الاسطوانات عليه. اشتريته بأرخص ثمن الخ»، في قول كهذا نرى أن المتحدث ينسب إلى نفسه معجزات لا يمتلكها السامع مما يثير حفيظته. فحين يقول، لابدَّ أن أعثر، جملة يقينية تدلل على ثقة بالنفس عالية لا يمتلكها غيره. وحين يقول: «إلى المحلّ رأساً»، فكأنما كان مدفوعاً بقوة غيبيّة تلهمه هو وحده دون غيره. المعجزة الأخرى في «وقعت عيني»، أي أنه لم يفتش، أو لم يبذل جهداً، وكأن الاسطوانة اختبأت عن أعين الناس لتكون له وحده. فما أن دخل المحلّ حتى برزت له. في كل جملة أعلاه كان المتحدث يوجه إهانة إلى مستمعه وان كان لا يدري. لكن الأدهى من ذلك هو استعمال «أفعل التفضيل». ما الذي دلّ المتحدث على أن توسكانيني أعظم قائد موسيقي؟ هل هو أعظم قائد لهذه السمفونية بالذات أم في كلّ ما قاد؟ التفضيل هنا يدلل على أنه سمع كل القواد الموسيقيين أولاً، وعلى أنه على دراية تامة بالقيادة الموسيقية ثانياً، مما يجعل المستمع ضئيلاً. هذه هي إحدى عاهاتنا التعبيرية بالعراق، أي استعمال أفعل التفضيل. لقد وُجِدت هذه الصيغة، للمفاضلة بين قيمتين أو شيئين ويقصد منها الإرشاد والإخبار. إلاّ أننا في العراق نستعملها للتنابز والمفاخرة والمتايسة، وأسوأ من ذلك للاستفزاز، خاصة إذا أضفنا إليها «أل» التعريف. الزعيم الأوحد. الشاعر الأكبر. الإمام الأعظم، وكأن المتحدث يقول لك اخرس ولا تناقش. وهكذا أصبح التفضيل حتى في أحاديثنا اليومية استبداداً لا يؤدي إلاّ إلى النقاشات الحادة والزمانات والتنافر.

شعرت خلال الشهرين مع تلميذي، بضآلة معلوماتي حقيقة.

مكتبة الفكر الجديد

شعرت أني أجوف مصنوع من ضوضاءات منوعة. إنسان هامشي فعلاً لا أتقن شيئاً.

مرّة كتب لي ملاحظة في أسفل رسالته المعتادة مع النص الجديد، يسألني فيها إن كان لدي الوقت لتناول الشاي معه بعد الدرس.

كان شخصاً آخر، وهو يعدُّ الساندويش. خيّرني بالمشروب، فقلت شاي رجاءً. سألني أي نوع من الشاي أفضل؟ صمتّ بحيرة فأومأ إلى علب الشاي وراح يعدد انواعه وألوانه وفوائده الصحية. قلت بارتباك: شاي سيلان.

ذهب إلى المطبخ وعاد. كيف تحبُّ شايك؟ أسود أم ابيض؟ هل تحبُّ الحليب مع الشاي ساخناً أم بارداً؟ هل تفضله غامقاً أم فاتحاً؟ هل تأخذ الشاي مع السكر؟ كم ملعقة؟ اختفى في المطبخ وعاد معتذراً: نسيت أن أسألك هل تريد أن اضع الحليب أولاً ثم أصبُّ عليه الشاي، أم انك تفضل أن أصبَّ الشاي أولاً ثم أضع فوقه الحليب. (أهذا شاي أم امتحان ثانٍ يا ابن الحلال!) قلتُ الشاي أولاً ثم الحليب. انبسطت أساريره وقال: هذه الطريقة التي اتناول فيها شايي. ثم قال لا أدري كيف يستطعم بعض الناس صبّ الحليب أولاً. النكهة تختلف.

مرَّ ببالي، ما ذكره لي الممثل المعروف يوسف العاني عن فرّاش «فرقة المسرح الحديث». كان بعض أعضاء الفرقة، يجتمعون على العشاء بعد اجراء التمارين، فيوصون الفرّاش بجلبه من المطعم. يقول يوسف: أوصيه بأن يأتي لنا برزّ وباذنجان فيأتي بكباب، نوصيه بالكباب، فيأتي بالفاصولياء. كان يوسف يظنُّ أن طلبه يغيّره أحد أعضاء الفرقة. لكنْ عنَّ له أن يسأل الفرّاش: كلما

مكتبة الفكر الجديد

طلبتُ منك أكلة تأتيني بأكلة غيرها. وهنا قال الفراش: أستاد (بالدال) يوسف أنا لا أشتري لكم إلاّ ما أشتهيه تلك الليلة.

ما لفت نظري في غرفة تلميذي طزاجة الأثاث ألواناً ولمعاناً وكأنها تُدَّشن لأوّل مرة. الحائط مزيّن بأربع لوحات كبيرة وتخطيط بحجم دفتر مدرسي. سألته عن صورة الطفلة المبتسمة ذات الشعر الأشقر. قال إنها ابنتي سوزن أصبح عمرها الآن ثلاثة عشر عاماً.

ثم سألته عن اللوحات الأربع، فقال: إن زوجتي رسامة محترفة، ولكن للأسف لم تكن محظوظة. التنافس شديد في سوق الفن هنا. كانت طيبة. تركت لي هذه اللوحات.

كان يتحدث عنها بالفعل الماضي وبرفق. ظننتها ماتت.

منذ ستة أشهر وهي تعيش مع شريكها المطلّق، كنت أعرف بعلاقتهما، وحين صارحتني لم أفاجأ. قلتُ لها: اذهبي وعيشي معه لمدة ثلاثة أشهر. جرّبيه فإذا لم تنسجما، فارجعي. عاشت معه لمدّة شهر، وعادت فعلاً. تصوّرت أن الأمر انتهى، ولم يكن سوى نزوة عابرة. إلاّ أنها عادت إليه بعد أسبوعين. أرسلتُ لها بطاقة بمناسبة عيد ميلادها.

والآن؟

نحن أصدقاء، تعرّفتُ على شريكها، يبدو معقولاً، المهم أن ابنتي سوزن تعتقد أنه طيب.

سألته عن التخطيط، ويبدو أنه من عمل رسام محترف. قال إنها لديفذ جونز. لقد نوّه تي. أس. إليوت بعبقريته الشعرية، وكان عشيق والدتي.

مكتبة الفكر الجديد

كان تلميذي، يقول تلك الأخبار المفزعة بأسلوب واقعي محايد، وكأنه يتحدث عن جدول ضرب. لم اشعر أنه استفزَّ قناعاتي وقيمي.

سألته بصوت خالٍ من أيِّ اختناق: هل أنت واقعي؟ ضحك. أبعد رأسه إلى الخلف قليلاً كأنه يتفادى سوء تفاهم، وقال: أبعد ما يكون عن ذلك. معظم مَنْ أعرفهم بعيدون عن الواقع. ثم ما الذي تعنيه بالواقع؟ ربما تعني أننا أناس عمليون أي المعنى الآخر لـ Realistic فإذا كان هذا ما تعنيه فأنت على حق.

الغريب أن تلميذي ـ كما يبدو ـ وكذلك سيّد البيت وزوجته، حينما يقعون في مشكلة يكونون أمام أمر واقع. يفتشون أولاً عن حلّ قانوني قبل تدخّل أية عاطفة. يأخذون صفة الطبيب. لا يعتب على المريض، ولا يعنّفه، ولا يحمّله أية مسؤولية. مهنته إيجاد العلاج فقط. الطبيب في هذه الحالة عملي وليس واقعياً.

قلتُ له: هل أنت طموح؟

نظر إليَّ نظرة طويلة ذات مغزى، وكأني تدخلت في شؤونه الشخصية.

توترت عروق رقبته ثمَّ استرخى. ربما تذكر أنني أجنبي، وما سؤالي إلاّ بدافع فضول مَنْ يريد أن يتعلم.

قال انني أؤمن بالتدرّج، أي الصعود خطوة خطوة. الإنسان الطموح خطر، لأنه يريد أن يختزل المراحل، فيلجأ إما إلى التحايل أو إلى الاستبداد، كل ما أريده في الوقت الحاضر هو التدّرج في وظيفتي. ولتحقيق ذلك تراني أكدّ في عملي بلا تهاون. أقوم بما هو مناط بي على خير ما يرام حسب قابليتي، ثم أترك الأمر إلى الحظّ.

مكتبة الفكر الجديد

يجب أن أعترف، أنه على الرغم من خوفي الأسبوعي، كل خميس، وأسئلته التي لا تبدو أنها تنقطع، بأنني كنت في المرات الأخيرة أشعر بنشوة وهو يُلقي عليَّ الأسئلة، كما يُلقي الطبيب الاسئلة على المريض. كنتُ مريضاً بصورة ما، وعاهاتي الثقافية راسخة ومتجذرة، كم كان بودّي أن أسأله عن عيوبي.

ـ عيوب، يالله، يمكنك أن تقول اختلاف البيئتين. أنت منحدر من بيئة، وأنا منحدر من بيئة أخرى. هذا كل ما في الأمر. لقد نشأنا منذ عصر النهضة على التدوين. أصبحت عقولنا تدوينية. جاءت الثورة الصناعية إلى بريطانيا في القرن التاسع عشر، فترسخ التدوين أكثر.

ـ هل تعني أن عقلياتنا شفاهية؟

ـ يمكن القول إنها غير تدوينيّة، كما يجب. شهدت الفترة العباسية أكبر العقول التدوينية في تاريخكم العربي. لا أعني بالتدوين، الكتابة طبعاً. لكنها لم تستمر للأسف نتيجة الحروب والاضطرابات الداخلية.

قبل الدرس الأخير وصلتني هذه المرّة بعض النصوص الغزلية منها أبيات لكثيّر عزّة:

وددتُ وما تغني الودادة أنني
بما في ضمير الحاجبيّة عالمُ
فإن كان خيراً سرّني وعلمته
وان كان شرّاً لم تلمني اللوائمُ
وما ذكرّتك النفس إلاّ تفرقت
فريقين منها عاذر لي ولائم

مكتبة الفكر الجديد

فريق أبى أن يقبل الضيم عنوة
وآخر منها قابل الضيم رائمُ

وفيها أبيات كذلك تنسب إلى الشماطيط الغطفاني:

ولما أبى إلاّ جماحاً فؤاده
ولم يسلُ عن ليلى بمالٍ ولا أهلِ
تسلّى بأخرى غيرها فإذا التي
تسلّى بها تغري بليلى ولا تُسلي

كتب في نهاية الرسالة انني مدعو إلى عشاء في مطعم صينيّ، ورجاني ألاّ يكون لديَّ مانع إن شاركنا صديقه جونثان ـ طالب دكتوراه ـ وخطيبته واختها. وضع تاريخ الدعوة. وأرفق خريطة للوصول إلى المطعم، واسم المطعم.

تأخرت قليلاً عن المطعم. في الواقع لم أتأخر، ولكنَّ المطر كان شديداً. وقفتُ قرب باب مخزن دافئ، لتجف ملابسي.

كان الأربعة بانتظاري بفضول وربما باستبشار أحاطوني بدفء إنساني حقيقي.

حين رجعت إلى غرفتي، استرجعت ما دار بيننا من حديث. في الأصح من أحاديث. لم تكن أحاديث على وجه الدقة، وانما كانت تعليقات سريعة لمّاحة، ساخرة في معظم الأحيان، عن الطقس، بعض البرامج التلفزيونية والاذاعية، مفارقات، مشاريع بخصوص المصائف الساحلية التي سيقضون فيها إجازاتهم السنوية. ما من إطناب، ما من سياسة، ما من ذكريات، اللهمَّ إلا مفارقات مقرونة بالحظ بين إجازات حدثت في السنين الماضية. كان تلميذي قد برّر اختياره لهذا المطعم الصيني. أكدّت ماركريت صحية المطبخ

مكتبة الفكر الجديد

الصيني، صحتها هي في أوج ترفها، لم تعلّق أختها «جيني». كانت حزينة قليلاً، العيون الايرلندية معبّرة وحركة، عيون الأختين بمنتهى البلاغة والود. سألتني الصغيرة إن كنتُ مسلماً. قالت بودّي أن أعيش في الصحراء، خيمة بيضاء ونوق وشمس نقيّة، الصحراء هي المكان الوحيد الذي بقي نقياً على وجه الكرة الأرضية. تساءلتُ مع نفسي هل نحن غرباء في أوطاننا، مأسورين بالاوهام، واذا ما تحررنا من أقفاصنا نحنّ إليها بعد فترة. قلت أنا مسلم بالولادة. لكني منذ زمن بعيد، أصبحت انتقائياً .Ecclectic ضحكت بسجية مرحة وسألتْ تلميذي ما معنى هذه الكلمة. سخروا من الديانة المسيحية. وروى جونثان نكتة عن المسيح. قلت ولكننا نؤمن بالمسيح فاعتذر على الفور واعتذروا. وجّهت الكلام لجيني: يبدو عليك الحزن. قال جونثان كنّا البارحة في حفلة ولم يرقص معها أحد! وضع يده على كتفها. لا تهتمي قد تصادفين من يرقص معك في المرة القادمة، والتفت إليّ، ليسألني: هل أنا مرتاح في البيت الذي أسكن فيه؟ تحدثت عن سيد البيت وزوجته بودّ. تحدثت عن الملحمة المرعبة التي عشتها مع البومة وكيف تطيّرت. وحينما ذكرتُ انني لا استطيع النوم دون أن أضع منشفة عليها، ضحكوا طويلاً. ثم ذكرت لهم عن قراءتي لبخت سيدة البيت في فنجان القهوة، دفعاً للملل وكيف آمن بي سيّد البيت وزوجته بما كنت أهذي به لدرجة أن دعوا جملة من معارفهم لقراءة فناجينهم. غمزت لي ماركريت: ليتك تقرأ فنجان «جيني» غير أن تلميذي صاح أنا أحوج منكم لمَنْ يقرأ طالعي، ولكني لا أؤمن بذلك.

سألتُ جونثان الذي كان يطعّم حديثه بجمل عربية سليمة، ما موضوع أطروحتك؟ قال لهذا السبب رجوتُ أن نلتقي بك، لأنني أريدك أن تساعدني، موضوع أطروحتي «الخيمة العربية». كدتُ

مكتبة الفكر الجديد

أشرق بفنجان القهوة. وللتأكد استفسرتُ: ماذا؟

أكّد بجدّ: «الخيمة العربية».

قلتُ بنفسي هل انتهت الموضوعات، ولم يبق الآن إلاّ موضوع الخيمة العربية. ما الذي يهمكم من أمرها؟ ما الذي تريدون أن تفعلوه؟

ـ يقتضي ذلك مني أن أطوف في الصحراء لبضعة أشهر.

ـ وماركريت؟

نظر إليها وضحك، غمز لا تخفْ عليها ستجد مَنْ يراقصها! ضَرَبَتْه على ذراعه بحنان، فوضع ذراعه على كتفها. هكذا إلى أن قمنا للوداع.

لم أتوقع قبلة ماركريت على وجنتي وبحرارة.

لم أتوقع قبلة «جيني» على وجنتي وبحرارة.

صافحني جونثان بودّ. تكومت عليَّ نظراتهم بإشفاق. فشعرت بامتعاض غامض لم أعرف كنهه. أوصلني تلميذي إلى باب محطة القطار الأرضي. مصرّاً على شراء تذكرة الرجوع. قال: لنكنْ على اتصال، وتمنّى لي حظّاً سعيداً.

في الواقع لم أكن موفقاً، أو لم أكن صادقاً كل الصدق، فيما حاولتُ من وصف لدعوة العشاء. أولاً لم يكونوا ينتظرونني بفضول ولا استبشار. لو فعلوا ذلك لكنت المحور الأساسي بينهم ولا تتم الجلسة بدونه. ما كان الأمر كذلك. فما أن وصلتُ حتى أعلنوا عن جوعهم وبدأوا يقرأون قائمة الطعام. لم أكن مصيباً حينما استعملت كلمتي فضول واستبشار. هذا ما كنتُ أتمناه فقط. إذ أنا ربيت كبقية الاولاد أن نكون المحور دائماً. صحيح أن

مكتبة الفكر الجديد

عيون الفتاتين ممتلئتان بالحيوية والسحر، ولكن لم يقل لي أحد إنهما إيرلنديتان. ربما كانتا اسكتلنديتين. لا أدري.

أكثر من ذلك، صوّرت ما دار بيننا (في الواقع بينهم) من أحاديث، كأننا كنّا متكافئين، أو كأني فهمت كل شيء، أو كأني عبّرت عن نفسي بسهولة.

إذا دُوزِنتْ الأذن على صوت متحدث واحد، تكون الكلمات أوضح حتى وإن خفي معناها ولكن حينما يتبادل الحديث مجموعة بطبقات صوتية مختلفة، أنثوية ورجالية، فإن طبلة الأذن الأجنبية تتشوش ويصعب عليها فرز الذبذبات كما ينبغي. فاتتني أشياء كثيرة. الإصغاء المتعمد متعب. أضحك إن ضحكوا فقط. ولكن كان واضحاً أن ضحكي لم يكن بنفس التوقيت أو بنفس الكمية، وليست فيه تلك النهاية الدقيقة التي توحي بالتواصل من الطبقة الصوتية التي انتهى منها الحديث. المحاورة الجيدة تناوب آلات موسيقية، مرّة تشترك ومرة تنفرد. باختصار كنت منافقاً أو ربما مجاملاً في مشاركتهم الضحك، لدرجةٍ تدهور معها لحم خدّي بخدرٍ نافر.

حتى حين سألتُ «جيني»، أو حينما قلتُ لها يبدو عليك الحزن، لم أكن إلاّ خبيثاً. ربما كانت حالمة، ربما كانت متعبة، ربما كانت متوعكة، كنتُ في الواقع أحاول تغيير دفة الحديث.

فكلُّ ما دار بينهم أشياء خارجية، ما من شيء شخصي، مجرد أخبار منتقاة بعناية، ولكنها غير ملزِمة. لا تروى على أنها سبق صحفي، بل تروى وكأنها معروفة لدى الجميع لذا تخلو من التفاصيل المملة. لقد نشأت في بيئة لا نتحدث فيها إلاّ عن أنفسنا: أين كنّا، من رأينا (وما رأيَنا.. وما رأيُنا؟) ما قرأنا (وما رأيَنا بما

مكتبة الفكر الجديد

قرأنا؟) ماذا سمعنا (وما رأينا بما سمعنا)، ما مشاريعنا الأدبية والحياتية (لإظهار السامع عاجزاً أو أقلّ منّا شيئاً). لنا حكم على كلّ شيء حتى قبل أن يقع. كلنا حاكم يحمل محكمته معه اينما حلّ، ومحكمتنا لا تقبل الشهود، وأحكامها غير قابلة للنقض. خُيّل لي أنه عن طريق الحزن، من نقطة الضعف هذه سأتسلل. نحن في كثير من الأحيان نبدأ الصداقة من نقطة ضعف. نتظاهر بالتعاطف. نتلذذ بما نسمع من أحزان واكدار ونتظاهر بالتعاطف. ضعف الآخرين قوّة لنا. تقوى أواصر صداقتنا بقدر ما نتبادل من إحباطات، وأسرارٍ غير لائقة. باختصار الصداقة تبدأ عندنا بالمأتم الذي نجد فيه قاسمنا المشترك الأعظم.

لم يكن جواب جونثان: «كنّا البارحة في حفلة ولم يرقص معها أحد!» ينمُّ على عيب في الآخرين الذين لم يراقصوها، حتى يتسنى لي أن أتسلل وأفتح نيراني عليهم: كيف لم يثمّنوا اخلاقها، هل كانوا عمياناً فلم يروا جمالها، ليتها أجابت هي، لفتحت لي باباً ولا همَّ إن كان مواربا. يعني جونثان، أن أحداً لم يراقصها، لأن حظّها هي كان منحوساً تلك الليلة، وكل ما ستفعله في المرّة القادمة أنها ستحسن من حالها، انها ستكشف عيوبها فتحاول إصلاحها، أي أنه وضع المسؤولية على عاتقها، ولم يَلُمْ أحداً غيرها. اذن كيف أقحم نفسي؟ فلتتْ مني الفرصة، رغم تربصي.

لم أكن دقيقاً كذلك فيما نقلته عن جونثان حينما سألني: «هل أنا مرتاح في البيت الذي أسكن فيه»؟. لا يمكنه أن يقول ذلك. فوضعه المالي والاجتماعي لا يسمح له أن يتصور أنني غير مرتاح وأبقى ساكناً فيه. ما الضرورة لذلك؟ ملاءمة المسكن في هذه الديار أقوى من العلاقة العاطفية به.

مكتبة الفكر الجديد

كان جونثان في الواقع قد سألني في أيّ جانب من «باترسي» أسكن. يعرف المحلة وكأنه يعيش فيها، إلاّ أنني وان كنت قد فهمت سؤاله بدقة تقريباً، إلاّ أنني أنا الذي نقلت الجواب إلى البيت الذي اسكن فيه، ومنه إلى سيد البيت وزوجته، وقراءة الفنجان. أما ما قلته عن البومة، فلم يكن صحيحاً، وخاصة ما ذكرته من أنهم ضحكوا طويلاً. بالتأكيد لم يضحكوا قط. لكنهم ابتسموا اندهاشاً وتبادلوا نظرات فيها الكثير من الاستغراب. ليتني لم أحشر موضوع البومة. لم يفهموا سبب خوفي من طائر لا علاقة له بتصوّراتنا عنه. صحيح انني أظن ان عينيها أكبر مما تحتاجه، وأكبر من عيون بقية الطيور، صحيح كذلك أن عينيها جامدتان ثاقبتان لا يمكن قراءة ما تبطنان قط، صحيح أنها بمنقارها المعقوف، وصمتها المرعب، لا تعلن عن نواياها (وهذا ما يخيفني في كل مخلوق)، إلاّ أن هذه تصورات فردية لا تعني أحداً في المطعم الصيني. ما يرعبني فيها حقاً ذنبها القصير، وجناحاها الوطواطيّان. لا تعلن عن نواياها، ومرّة واحدة تنحدر بخط مستقيم، ولا تصعد إلى الأعلى إلاّ وفي مخالبها فأرة أو أرنب ربما يتعرف على الحياة الخارجية لأول مرّة. ولو تشفعت الديانات كلها للأرنب، فلن تؤثر في شهية البومة. ليتني لم أذكر لهم البومة. حسناً فعلتُ لأنني لم أتوسع في مفهوم علاقة البومة بالأطلال والبيوت المهجورة، وان كنتُ قد هممت.

قالت ماركريت: كنا نعتقد في السابق بأشياء مماثلة، وضرب تلميذي العصر الاليزابيثي مثلاً واستشهد ببعض أبيات من مسرحيات شكسبير. لأقلْ إنها لم تكن دعوة، بقدر ما هي محنة مازلت أعاني من مرارتها. باتت معها كلماتي المتقطعة كالحجر على لساني كما يقول أحمد شوقي. كنت مزهواً بذاكرتي

مكتبة الفكر الجديد

وقابليّتي على الحفظ، والآن تهرب الكلمات وتمّحي. وما أتذكره منها يكاد يتفتت في فمي. لم يكن ثمة تناسق بين دماغي ولساني، وفي الفشل يعلو الصوت. علا صوتي بأوتار محتقنة، وتمططت الدقائق وأبطأت، كأنها توقفت.

لكن الأهم من ذلك، أنني لم أتبْ. فقد قررت منذ أسابيع ألا أعود إلى تلك العادة المتأصلة ثانيةً، في الدخول في الصداقة عن طريق نبش الحزن، والتظاهر بالتعاطف.

كنت مرّة أنتظر دوري في مستشفى العيون. المرضى يملأون القاعة. إلى جانبي رجل عجوز مقعد، على عربة. يداه ترتجفان، وعينه اليسرى حمراء متورمة. لم يحلق ذقنه. شعرت بفرحٍ بوجوده إلى جانبي. كان يسعل بألم، ويشفعها بكلمة: اللعنة. قلتُ بنفسي لا أسهل منه في الدخول معه في صداقة مهما كانت عابرة، فبيني وبين مجيء دوري للفحص ـ كما يبدو ـ مسافة زمنية مملّة.

فعلاً، لم يتوقف. لعن الحرب والحكومة عدّة مرات. تنكرتْ له الحكومة ولم تعطِه ما يستحقه من تعويض، عما لحق صدره من تلف من جراء الغازات السامة التي كان يستعملها ضد العدو في الحرب.

ـ من يساعدك في شراء حاجياتك؟

ـ أدفع للبلدية ثمناً مقطوعاً وهم يجلبون لي وجبات الطعام وهم مسؤولون عن تنظيف البيت.

ـ هل زوجتك معك؟

ـ ماتت.

ـ هل لديك ذرية؟

مكتبة الفكر الجديد

ـ ولدان متزوجان.

قلتُ هذه هي فرصتي. شعرت بانتصار في نجاح مخططي. سيظهر حزنه ويتظلم وأظهر تعاطفي. قلتُ له بصوت مواسٍ:

ـ هل يساعدك ولداك؟

التفت إليَّ بكل رأسه. صبَّ عينيه النازّتين كاللحم النيء في عينيَّ وقال بغضب:

ـ هل أنت مجنون؟ لهما حياتهما الخاصة، يجب عليهما أن يرعياها. ليتمتعا بها، كما تمتعت أنا أيام شبابي. حياتي مسؤوليتي، وليست مسؤولية أحد غيري. أعاد رأسه إلى ما كان عليه، ولم يكلمني قط. يسعل ويلعن الحرب والحكومة. بلعتُ الإهانة كأحسن ما يكون عليه بلع الاهانات. قررت منذ تلك اللحظة، ألا أعود إليها. تلك توبة نصوح.

حين سألتُ «جيني» أو حين قلت لها يبدو عليكِ الحزن، شعرت على الفور بذنب، بخسّة من نوع ما. ما الذي يهمّني من حزنها؟

فتحت الراديو، قلت لعلَّ الموسيقى تكون أكبر من هواجسي وخيباتي.

في اليوم التالي ذهبت إلى الكنيسة. معظم الحاضرين من العجائز بأفضل زينة وملبس. المساحيق مغالى بها، لدرجة أصبحتْ معها وكأنها أقنعة مضللة. هل نخاف الواقع؟ فنمحوه بالمساحيق أو بالكلمات الزائفة؟ هل هذا ما عناه تلميذي حين قال: إنني ابعد ما أكون عن الواقع؟ لماذا يتفرد الكاهن بهذه الملابس المزركشة؟ لماذا يريد أن يظهر بمظهر مختلف كممثلي الادوار التاريخية؟ كان إلقاؤه واضحاً، وصوته بلا نتوءات من كثرة التدريب والتمرين.

مكتبة الفكر الجديد

كتبت بعض الكلمات الصعبة، باللغة العربية.

بعدما حصل لي ما حصل في الليلة البارحة، لم أجد في خطبة الكاهن عزاء. بدا في استهلال الخطبة مثل طبيب ماهر ولكن دون دواء. بقيت حوالي النصف ساعة، وهو بلا دواء. أكثر من ذلك، كان ايقاع كلماته مواسياً، بلا تخديش. وتيرة واحدة من التخدير والتضميد. الغاية قطع الأوجاع. عاملنا جميعاً كالولد الضال، كالحَمَل الضال.

لغة سيد البيت وزوجته قليلة القاموس تتكرر مفرداتها وتكثر فيها الأمثال والحكم. لغة بلا رتوش ولا زركشة. مادة بقدر غايتها. وغايتها لا تعدو أن تكون إيصال المعنى فقط، دون أية محاولة للاقناع أو التأثير، لذا خلت جملهما من الصفات التي تنمُّ عن اجتهاد شخصي.

كانت لغة تلميذي واصدقائه، وهم من الطبقة المتوسطة العليا، محكمة وحذرة المعنى ولا تلزم صاحبها بمعنى محدد. تكثر فيها خطوط الرجعة، كما يكثر فيها كل ما يهوّن من غرورها وغلوائها. حتى إن تخاشنتْ مفرداتها فهي كلعبةٍ رياضية شديدة الإيذاء، ولكن تحت شروط وقوانين.

لغة الكاهن هذا الصباح جميلة بيضاء كبياض القطن. ألفاظها مصنوعة من قطن. يقي الجرح من الجراثيم ولكن لا يشفيه. كنت بأشد الحاجة إلى دواء. تركت الكنيسة، وذهبت إلى متنزه «باترسي» لأراجع بعض الجمل والمصطلحات بصوتٍ عال. الأشجار من بعيد، كمسوّدة رسم بالقلم الرصاص. ما تزال البراعم مختبئة. سوداء وكبيرة كضروع الماعز. أصبحت مهووساً بالبراعم، أريد أن أراها وهي تتفتح. كم كان يسعدني منظر تفقيس بيض

مكتبة الفكر الجديد

الدجاج أمام عيني. حذرتني والدتي من لمس البيض أولاً لأنه سيفسد، وحرمتني من لمس الفراخ، لأن الدجاجة ستنفر من الفرخ الذي فيه رائحة غير رائحتها.

أُعجبت بالجذور العميقة الصامتة القوية. تصوّرتها قوية الإرادة. تحفر ببطء وجَلَد، بلا توقف. قلتُ ليت لي إرادة الجذور. هل تعلم بيتهوفن إرادته منها؟ إذن لأكنْ في البداية مسؤولاً عن حياتي مثلها قبل أن أصبح جذراً. وعليَّ أن أعترف أن ما وقع لي بالعراق كان من مسؤوليتي، لأنني كنتُ ساذجاً لم أقرأ الغد. لم أسجن كالآخرين. ولكن ضُربت ورُكلت ونُهرت. ذلك صحيح ولكن لم أُعذَّب. مع ذلك كان السجين أسعد مني حالاً. له لداته يشدّون أزر بعضهم بعضاً. في الأقل عرفوا مصيرهم. لم أعرف مصيري وقتها. كنت حرّاً طليقاً ومطلوباً وممنوعاً من السفر. أصبحت هدفاً متحركاً أمام صياد جائع ومجنون أرتعص خوفاً من بقائي حياً. مجهولية مصيري أقسى تعذيب. كنت هلعاً كهدفٍ متحرك. حتى إن أخطأني التصويب مرة فلا يعني النجاة مطلقاً، بل يعني أن المصوّب سيكون أكثر دقة في المرة الثانية. ليتني فقدتُ هويتي. ليتني فقدت اسمي. ليتني لم أنشر شيئاً. هل اسلّم نفسي إلى الشرطة ولو كان فيه تمزيقي فأرتاح؟ إلى متى أبقى هدفاً متحركاً؟ الزمان يطاردني في كل آن، والمكان مصيدة، نظرت إلى الأشجار فأعجبت بصمود هياكلها، وفكرت بجذورها من جديد. أنتظر تفتح براعمها هذه المرّة بشوق مختلف. سأصفّق حقاً للمولودات الجديدة على الأغصان.

كنت في هذه المرحلة أقترب لأوّل مرّة من النبات وكأني اكتشفت سلالتي الأصلية. بدأت أتأفف من المريء والمعدة والتبوّل

مكتبة الفكر الجديد

والتغوط والمطاعم، والمزابل بأبواب البيوت. حيثما رأيت قصاباً التفت إلى الناحية الثانية. بتٌ أتقزز من منظر الخراف المسلوخة المعلقة بالمقلوب. الرؤوس المقطوعة إلى جانب، وهي تنظر باستعطاف. أفخاذ دجاج بلا أقدام. أجنحة منتوفة على حِدة. رقاب وحواصل مكوّمة في صينيّة. أكارع وأقدام بظلفين موضوعة بصورتها الطبيعيّة وكأنها تهمُّ بالمشي.

البارحة حلمت انني عائد إلى بغداد في زورق طويل مع شلّة من الناس. كان ماء دجلة أسود غريباً، والأشجار مسخمة مخيفة كالأشباح. توقفت عند كهف واسع وفيه تنانير مشتعلة كالبراكين. صياح الموقوفين الذين يعذبون بالاسياخ المحمية يصمّ الآذان. صعد ثلاثة عسكريين يفتشون عن الهاربين عن وجه العدالة. كانوا يتفرسون في الوجوه بوجوه متعضلة مزمومة، لا انفراج فيها كتجعدات جلد حذاء رخيص لم يصبغ. تقدم مني أحدهم. تبعه الاثنان وتكوّموا فوق رأسي. سألني: اسمك؟ قررت لن أذكر له اسمي الحقيقي دفعاً للشر. جأرتُ بسرعة وثقة اسمي: ناجي عبد الله. قال قمْ، أنت الذي كنّا نفتش عنه. اقتادوني بعنف. لسعتني نار اول تنور، فصحت. كنت ارتعش. مددت يدي ودقات قلبي داوية، إلى الضوء وفتحته، نظرت إلى السقف إلى جدران الغرفة إلى الطاولة إلى الكرسي إلى حذائي إلى دولاب الملابس إلى المغسلة البيضاء إلى الستائر إلى الرسالة التي لم أكملها إلى الراديو، كأني أتعرف عليها من جديد. غسلتُ وجهي. شربت سيجارتين مرّة واحدة، ونمت ثانية بتعسر، ولم أطفئ الضياء. خفت أن يعاودني الكابوس. لم أنم. نمت.

عليَّ أن أذهب يوم الاثنين المقبل إلى «الناشنال غاليري» في

مكتبة الفكر الجديد

الساعة الثانية عشرة. كنت قد زرتُ الناشنال غاليري عدة مرات. مرّة للتدفئة والتخلص من غرفتي الباردة، ومرّة للفضول. كنت أمرُّ على الصور مرور الكرام، إذ ليست لديَّ أدنى فكرة عن كيفية دراسة اللوحة، وبالتالي التمتع بها لدرجة الثمل. كنت كمَنْ يتلذذ برائحة الفواكه وألوانها وطعمها، ولكنه يجهل مكوّناتها وفيتاميناتها.

انجذبت أوّل ما انجذبت، وبصورة أشبه بالسحر إلى لوحات الرسام الانكليزي «تيرنر». أنسجم مع لوحاته وكأني أحسُّ زيوته على جسدي حين أخرج من الغاليري، وأني جزء متلاحم من لوحاته. شعرت بيأس واحباط حقاً، حينما تمعنت بلوحته الكبيرة «نار على البحر». هل كان «تيرنر» يصوّر عن تجربة، عقم كفاح الإنسان وسط العاصفة والكارثة؟ وما المخلوقات البشرية إلاّ حطام سفينة بسيط خالٍ من أية زخرفة في بحر هائل هائج؟ كان «تيرنر» بالفعل قد مرَّ بتجربة «زوبعة ثلجية في البحر»، حيث الريح بأعتى عضلاتها الكاسرة، والثلج في دردور مدوّم، وحيث المركب بدأ يتلاشى في أعاصير الامواج ولم يعُدْ يُرى منه سوى جزء صغير من الصارية. في لوحات كهذه ينعدم لدى تيرنر الأفق والسماء والأرض. كلها واحد في براكين لونية متداخلة بتوحش، تنزف اللون الأصفر واللون البرتقالي وكأنها أوشال جراحٍ تسحّ آخر ما فيها من دم.

كانت أعمال «تيرنر» الأخيرة متشبعة بالضوء واللون، لدرجة كما قيل عنها، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الرسم.

يظهر التأثير العاطفي للون في لوحته الشهيرة «مطر، وقاطرة، وسرعة». عناصر الطبيعة هنا انطلقت من قماقمها بأشرس ما يكون

مكتبة الفكر الجديد

عليه التدمير. توقع في النفس الخور والإحباط، فإذا بقطار يشقّ طريقه فوق جسرٍ عالٍ عبر الضباب والمطر. للقطار وهو قادم من بعيد مفعول وصول نجدة بعد يأس. إنه بلا شك يدشّن عهد الثورة الصناعية الجديد. الماكنة هي التي ستروّض الطبيعة، وعضلات القطار الحديدية رمز لها، ورايتها تلك الصارية البخارية. كنت أجلس أمام هذه اللوحة مرّة بعد مرّة، وأجد فيها نوعاً من المواساة والأمل.

منذ طفولتي بالناصرية، وأنا مبهور بهذا المخلوق الحديدي العجيب. نعبر الجسر إلى الجانب الآخر، ونرى مئات المودعين بعيون دامعة. وحين تشتعل عينه الواحدة بأقوى ضوء، وتدوّي صافرته البخارية، ترتفع الأيدي، تلوّح، ويبدأ صراخ الأمهات. إلى أيّ مجهول سيأخذ هذا المخلوق الحديدي ركابه، بعينه الواحدة؟

هذه هي المرة الثالثة التي أراها على المصطبة أمام لوحة «مطر وقاطرة وسرعة» لم أحسّ بوجودها في المرتين السابقتين. لا أحسست بوجودها، ولكني تصورتها تستريح مما يخلف النظر إلى لوحات مختلفة من جهد عقلي وذهني، يسبّب خدراً جسدياً بدوره. شابة في مقتبل العمر. آثار النعمة بادية عليها. في وجهها رونق وملاحة. في وجهها عمق لا يأتي إلاّ من طول تأمل وقراءة، وهو بلاشك أفتن ما في المرأة من مفاتن.

ابتسمت لي في المرّة الثالثة. كانت عضلات وجهي ناحلة. نظراتي لا تتركز في شيء من الجوع واليأس. ربما أوحيتُ لها بأني في خضمّ عملية فلسفية أو في منتصف تأليف شعري أو موسيقي. لم أجد حاجة لتمشيط شعري هذا اليوم ولا لحلاقة لحيتي.

قالت: كلما شعرت بحزن، آتي إلى الناشنال غاليري، للنظر إلى

مكتبة الفكر الجديد

لوحات «تيرنر» انها تسرّي عني فأشعر براحة. من أين يأتيها الحزن، قلتُ. طازجة كالفاكهة على غصن، ملابسها ناعمة جديدة الألوان، حزام خصرها من أرق الجلود وأغلاها، كيف يأتي الحزن لفتاة شابة تمتلك كل الحرية بالتصرّف بجسدها كيفما تشاء. ما من عيون جارحة كاسرة تراقبها، ولا حسيب ولا بني غطفان!

كل ما عرفته عنها، أنها طالبة بعثة من منطقة «كَنْت» بإنكلترا وتدرس بباريس، وانها في إجازة قصيرة. لم تخبرني باسمها. اجتذبتها لكنتي وسحنتي الأجنبية. لم أكذّب خبراً ففتحت لها جرابي قدر ما أسعفتني لغتي. تبسطت في الحديث عن وطني، مفتتحاً الحديث بألف ليلة وليلة. انبسطت أساريرها. حدثتها عن نهري يوفريتس (الفرات) وتايغرس (دجلة) عن مائهما الصافي ورمال ضفافهما الذهبية، عن النخيل والطيور والغروب، عن الأمسيات التي نقضيها في المقاهي القريبة من الأنهار، عن جبال العراق في الشمال والأهوار في الجنوب، وبابل في الوسط. اندفعت بالحديث عن الوطن وكأنه جنّة يسكنها ملائكة. حدثتها فعلاً عن جنائن بابل المعلقة. وبينما كنت أحدثها عن كلّ شاردة وواردة عن نفسي، عن شعري وذكائي وطموحي. قالت آن وقت الغداء وكأنها لطمتني. هيّا .

قلت لها: أنا مسلم، وأنا صائم لأنه شهر رمضان. من أين جاءتني هذه الكذبة البلقاء؟ ماذا لو رأتني أشرب سيجارة بعد قليل؟ ماذا لو عرفت أن شهر رمضان لا يحلّ إلاّ بعد أربعة أشهر؟

قالت سأرجع إلى هنا بسرعة لتحدثني عن الإسلام.

خرجتُ على عجلٍ إلى ميدان الطرف الأغرّ ومصصت سيجارة كأنها طعام. سرعة التدخين تورث الكآبة والصداع. والطيور هنا

مكتبة الفكر الجديد

بمنتهى تآلفها مع البشر. تقف على اكتافهم، وأذرعهم وتلتقط الحبوب من اكفّهم. لا تشبع. الكاميرات المبتهجة الضاحكة تسجّل الوقائع. لماذا أسهبت في الحديث عن نفسي وكأني بضاعة للبيع؟ قلتُ أنا ضحيّة بيئتي التي علّمتني أن أعيش إنساناً متنكراً. نحن أُناس متنكرون، نتخفّى حتى عن أنفسنا. نحن غرباء حتى عن أنفسنا.

قالت: ليس لنا وقت طويل فبعد عشر دقائق سيأتي المحاضر لتحليل لوحة «تيرنر» «مطر وقاطرة وسرعة».

علمت منها أن ثمة محاضرة يومياً في النشانال غاليري عن إحدى اللوحات وكذلك في «التيت غاليري» والمتحف البريطاني. ويمكن الحصول على برامج المحاضرات قبل شهر. جاءت المحاضرة ومعها شلة، وبأيديهم كراسي صغيرة خفيفة تُطوى. جلسوا. بقيت واقفاً. كان الحديث عن اللوحة طلاسم لغوية وفنيّة. أذكر أنَّ المحاضرة ابتدأت بالتحليل من وسط اللوحة، وراحت تنتقل في اجزاء اللوحة بوصة بوصة، كما يحلّل المايسترو الآلات الموسيقية في اوركسترا كبيرة ويعرف ادوارها صوتاً صوتاً، علوّها وانخفاضها. حيويتها وضعفها. وقفت جانباً، ورحت اكتب بالعربية ما كانت تقوله بالانكليزية، وفي البيت استعصت عليَّ معظم الجمل والكلمات، لكن قلت: شيء، خير من لا شيء. أخذت البرنامج. وعرفت أن محاضرة ستُلقى يوم الاثنين المقبل عن لوحة جان فان آيك JAN VAN EYCK المعنونة «زواج ارنولفيني». حينما رأيتها لأوّل مرّة، اصفررت، وشعرت بمغص. جفَّ حلقي كذلك. تفاصيل، تفاصيل لا تنتهي إلاّ بألغاز، وألوانها مشبعة بثراء. ابتعد عنها. أنظر في لوحة سواها، وأفكر بها ثم اعود إليها. حدثت

مكتبة الفكر الجديد

نفسي أن شيئاً مسحوراً في هذه اللوحة. إنها موسيقى صامتة من نوع نادر. بلغت ألوانها حدّ نضجها وتوقفت عن الشيخوخة والذبول. ثمة سرّ دفين في هذا الزواج. من هو أرنولفيني يا جان فان آيك؟ هل كانت زوجته محظيّة من قبل فاضطر للزواج منها خشية الفضيحة؟

في وسط اللوحة فتاة تلبس رداء اخضر تدلّ تكسراته النضرة على الثراء. حوافي الثوب صفراء. كمّ ثوبها أصفر وواسع تماماً. على رأسها وشاح أبيض مطرّز الحوافي تبدو من أعلى جانبه الأيسر كتلة شعر صفراء غامقة. يدها اليمنى ممتدّة وكفها مسترخية في يد زوجها أو موضوعة على يد زوجها باسترخاء، وجهها أبيض بض وفمها مغلق وكأنْ بكآبة، يدها اليسرى موضوعة على أعلى بطنها، إنها لا تنظر إليه من خجل أو حياء، نظرتها مركزة بشكل غامض في نقطة أبعد من جدران الغرفة، ربما توحي أنها مركزة في فكرة مقلقة. في خلفيتها فراش لا يبين إلا جزء منه.

أما الزوج فيعتمر قبعة زرقاء غامقة واسعة وثوباً بنّياً يبدو وكأنه كاهن. يده اليمنى مرتفعة امام صدره وكأنه يؤدي طقساً كهنوتياً دينيّاً. كفّه اليسرى تحت كف زوجته. إلى يمينه وإلى الخلف قليلاً شباك عالٍ يأتي منه الضوء من الخارج وهو الضوء الوحيد في الغرفة. نظراته إلى الأمام وكأنه يتفاداها. يرين على وجهه صمت جامد يتراوح بين الخشوع والحيرة.

في أسفل الصورة - إلى يسار الزوج على الأرض قبقابان متجهان إلى خارج الغرفة، ينمّان على الخروج لا على الدخول. وفي اسفل الصورة في الوسط كلب صغير ينظر لا إلى الزوجين بل إلى الخارج بفضول.

مكتبة الفكر الجديد

أما خلفية الصورة فتفاصيلها أكثر تعقيداً. لماذا الشموع فوقهما، وفي أعلى الصورة مطفأة إلاّ شمعة واحدة تشتعل نهاراً. لماذا؟ هل العواطف بينهما خابية إذا استدللنا من الخلفية على ما يفكر به الأشخاص عادة؟ ما أهمية المرآة والمسبحة خلفهما على الجدار؟ أكثر من ذلك لو نظرنا إلى الزوجة مرّة أخرى لرأيناها خارج إطار السرير إلاّ قليلاً. بينما الخلفية وراء رأس الرجل، مجرد التقاء حائطين، فهل كان نهب فكرتين؟ ما الفكرتان؟

قيل إن «جان ڤان آيك» أوّل رسام اهتمَّ بالتفاصيل في عصر النهضة.

قلت كان عليَّ أن أصل إلى الناشنال غاليري في الساعة الثانية عشرة ظهراً. شغلت نفسي في الأيام الماضية بالذهاب إلى مكتبة المحلة، اطلعتُ تصفحاً وبقدر ما سمح لي فهمي للغة الإنكليزية على حياة جان ڤان آيك وأهم لوحاته استعداداً لمحاضرة اليوم عنه. كنت في أشدِّ فضول لفك اسرار هذه اللوحة الملغزة. كم تمنيت لو كانت لغتي الانكليزية أفضل، أو كان لديَّ مسجّل لتسجيل المحاضرة.

لعجبي رأيت الفتاة إياها في الصف الأمامي وهي تدوّن باختزال. ذكرتُ لها أن أشياء كثيرة فاتتني ولم أفهمها.

اقترحتْ عليَّ أن نذهب إلى الكنيسة المجاورة: «سانت مارتن أون ذي فيلد». ذكرتْ أنهم يعزفون يوميّاً موسيقى كلاسيكية. قالت هذه فرصة لا تفوّت. سيعزفون اليوم بعض أشهر المقدمات الموسيقية الأوبرالية ومن بينها، أوبرا «نورما» لبلليني وأوبرا «دون باسكال»، وأوبرا «حلاّق اشبيلية» و«سميراميس» لروسيني. نظرت إليَّ نظرة طويلة لا تخلو من غيبوبة. قربت وجهها من وجهي

مكتبة الفكر الجديد

واضعة يديها على كتفي وقالت: أوبرا نورما معجزة عاطفية وموسيقية حتى «فاغنر» كان من المعجبين المتحمسين لهذه الأوبرا، وهي تعتبر من أفضل ما كُتِب من مقدمات أوبرالية.

رانت على وجهي شبه غيبوبة مخدِّرة، وأنا أشاهد لأوّل مرة في حياتي، اوركسترا حيّة أمامي. كنت قبل الآن أستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية كخليط من الآلات المتناغمة. أما الآن فيدلني «المايسترو» على تفاصيل الآلات، تفرّدها وذوبانها في بعضها بعضاً، تماماً كتلك التفاصيل الدقيقة التي ذكرتها المحاضرة حينما كانت تشرح وتحلل صورة زواج ارنولفيني. في الواقع كان المايسترو يرسم في الهواء ألواناً صوتية متناغمة، وتستجيب له الآلات الموسيقية بانتباه شديد.

سألتني عن عنواني. قلت لها حان وقت الافطار، ولابدَّ أن أذهب إلى البيت لطبخ شيء خاص بالصيام. طبخ اللحم، طبخ اللحم، ظللت اكررها ولم أجد في قاموسي كلمة «الحلال». أعدت صياغة الجملة من جديد وبتلعثم أشد ولا وجود لكلمة «الحلال». ابتسمتْ بعطف فربما تصوّرتني نباتياً.

أصعب الايّام على الغريب، هو يوم الأحد. المدينة تموت جزئياً، ويستكن الناس في بيوتهم المغلقة الأبواب دائماً. تزداد الغربة فيه أضعافاً ويصبح السير في الشوارع توجساً. استيقظت مبكراً. فتحت الستارة. نظرت إلى السماء. كانت الغيوم راسية كالجبال، ولكن في أقصاها الجنوبي، ثقوب زرقاء من حيث تهبُّ الريح. تفاءلتُ، ربما ستطلع الشمس هذا اليوم.

نظرت إلى دفتر مذكراتي الذي اشتريته قبل أسبوع حيث قررت الانكباب على كتابة ما أمرُّ به من تجارب. لم تكن لي أية رغبة في

مكتبة الفكر الجديد

قراءة ما كتبت. من باب الفضول نظرت نظرة جانبية باستعلاء، إلى بعض الأسطر في صفحة لا على التعيين. عدت وقرأتها من البداية، ثمَّ عدتُ وقرأت الدفتر من البداية. كنتُ جاداً فيما كتبتُ وصريحاً تماماً. شدّني الألم. وانتابتني حيرة مدوّخة. الكتابة هي المرآة الحقيقية للانسان. انهلعت. فقط حينما يمسك المتسابق بالشريط الأخير، تكون لكل خطوة خطاها من بداية السباق أهمية. لكنني لستُ في سباق. ولم يضع لي أحد شريطاً في نهاية الشوط. قلت الكتابة هي المرآة الحقيقية للإنسان، قد يكون الأمر كذلك. ولكنّها جذور تريد أن تضرب بعيداً في الغد. أين مني الغد؟ ما جدوى ما أكتب؟ همّي الأول والأخير غريزياً، أن أعيش يوماً آخر ولا أدري لماذا. أريد أن أعيش نسياً منسيّاً، وأمسح من كل الوثائق الرسمية. نظرت إلى الدفتر بحنان. قرأت بعض صفحات تأثرت مما كتبتُ، واندهشتُ كيف صغت بعض الجمل. أمسكت بالدفتر وظل ينبض بين يديَّ، وبدون تفكير مزّقته وأعدت تمزيقه إلى قطع أصغر، حتى لا أعيد ترتيبه من جديد، ورميته في المزبلة.

امتدت صفائح الشمس من خلال الستائر، وافترشت السرير والأرض. دافئة قليلاً وضوؤها بمنتهى النبل والنقاء، كأنه اغتسل بماء ينبوع جبلي.

منذ أيام ابتدأ فصل الربيع. اكتست المتنزهات والحدائق بالسوسن الأصفر. الربيع هنا يبدأ باللون الأصفر. السوسن أوّل الأحياء بعد فصل الشتاء. زرتُ الأشجار الكبيرة عدّة مرات. ما تزال أغصانها عارية وبراعمها ملمومة لا تخاطر بفتح أكمامها. ماتزال متفحمة كضروع الماعز.

مكتبة الفكر الجديد

تغيرت ملابس النساء خاصة. انفرجت عضلات الوجوه. وبدأ مرح العصافير، جماعات جماعات، ودكنت أصواتها، وتحشرجت بالغلمة. لكن ما تغيّر حقاً هو المساحة أو دائرة النظر. في الشتاء حيث البرد الرطب وحيث المطر والثلج، لا ينظر المرء عادة إلاّ إلى مسافة محدودة وإلى الأمام وهو مطرق في أكثر الأحيان. في الربيع تتوسع حدقة العين فتشمل معظم الشارع والسماء والأشجار. يصبح المرء أوسع صدراً، ويتخذ تنفسه عفويته. حتى التسكع في الربيع غير قسري وله طابع الفراشات. القراءة حتى القراءة في الشتاء ادخار، وفي الربيع مشاركة.

كان الشتاء رحيماً بي بصورة ما، كالآخرين منطوياً على نفسي، مطرقاً ومجال نظري قصير، لا أهتم بأحد ولا يهتمُّ بي أحد، لكل عالمه. الأصوات مكمودة تخرج من الأفواه بدفعات من البخار. كنت كالبراعم المتفحمة كضروع الماعز داخل أكمامي. المشاركة هي ـ كما يبدو ـ المصيبة التي لم أكن أتوقعها. أزور مَنْ؟ يزورني مَنْ؟ وكما يفرض كل فصل ملابس معينة، كذلك يفرض أخلاقاً معينة. حتى الأحاديث تتغير من فصل إلى فصل. في البلد الامّ تكون الفصول امتدادات عفوية لا يشعر بها المرء لأنه تعوّد عليها وأعدَّ لها العدة. بينما تبدو الفصول لدى الغريب وكأنها أوطان مختلفة ومنفصلة عن بعضها بعضاً.

اشتقت إلى زوجتي وطفلتي. ليتهما! ولم أتمنَّ شيئاً مع هذه العيشة الهامشية.

اشتقت إلى كسرة صديق عربي، ومقهى، واحاديث مفككة «عامي شامي» كما نقول بالعراق. المسافة ليست بعيدة. سرتُ حوالي ساعة على الأقدام. كان أكرم مع شلّة من الاصدقاء في

مكتبة الفكر الجديد

نفس المقهى في «بركستن». هبَّ أكرم مرحباً، إلى باب المقهى. شتم صحابه وقال إنهم ليسوا من طينتك. رجع إليهم والكل ينظر بفضول. ثم اقترح عليَّ أن نزور بعض أصدقائه. كان في كل مرّة يطلب مني الوقوف على بعد أمتار قبل أن يقرع الجرس. ثم يتكلم بصوت خفيض. زرنا خمسة من أصدقائه. دعاني إلى غرفته المشعثة على وجبة رزّ. أكلت بشهيّة. مايزال البخار يصعد من الماعون. كان أكرم موظفاً صغيراً في الإذاعة العراقية. أحاديثه الاجتماعية عفوية لا تُملّ. حدثني عن مغامراته النسائية ولاسيما ليلة الجمعة والسبت والأحد. سألته لماذا هذه الأيام؟ وضَّح لي ان في بركستون سجناً للنساء. ويُسمح لهنَّ في الخروج في هذه الايام وحتى المبيت في الخارج فيفتشن عن أيّ واحد يهيّئ لهن مبيت ليلة. ثم قال لا تنسَ أن النساء يعشقن الأكتاف العريضة وأشار إلى كتفيه.

كان أكرم فعلاً ذا كتفين عريضتين، وطويلاً إلى حدّ ما. لا يتكلم الإنكليزية حتى ولا بربع طلاقة، وهذا جزء أساسي من شخصيته العفوية المحبوبة. حينما يمشي يرتفع ذراعاه إلى أعلى وإلى اسفل إلى خارج الجسد ولا يتزامنان مع حركة ساقيه. بهذه العفوية واللغة الطفيفة يستحوذ على الفتيات. فإن فشل مرّة لا يرتدع كمنْ يصيد سمكاً بصنارة لا بدَّ له من صبر طويل. أوقف فتاة أمامي فعلاً فابتعدت حياء. لم أسمع ما قال ولكنها كانت مبتسمة. كتب رقم هاتفها على راحة يده. نظرت إلى كتفيه هذه المرّة بتمعن، كان كريم العين بصورة واضحة. نساء كثيرات يشعرن بحرج من ردع ذوي العاهات. رُوِّضن على كتم وكبح حنانهنَّ، وحين يغدقنه يغدقنه بانهمار. لكن كتفي أكرم عريضتان حقّاً، تلمّان صدر امرأة بسهولة. تمتعت غاية التمتع بأحاديثه وكأني أشرب سلافاً.

مكتبة الفكر الجديد

ذكر كيف عُذِّب في السجن بتهمة الشيوعية. توسّل إلى معذِّبه عدّة ليالٍ ولم يرأف به. قال المعذب له، هل تذكر قبل ثلاث سنوات يوم كنت أمشي في «الكريعات» مع ...؟ تذكّر أكرم، قال ضاحكاً: كانت الفتاة التي يصطحبها في غاية الجمال. اندفعت من بين أصدقائي دون إرادة. أوقفته وقلت له: بعثي متآمر، وبصقت بوجهه أمامها. توسّل أكرم إلى معذِّبه: بصقت بوجهك، إذن ابصق بوجهي ودعني أخرج. توادعنا بحرارة. قلت هذا الأكرم ملجأ حميم سأتعلم منه العفوية.

بعد ثلاثة أسابيع دُقَّ الباب وإذا بثلاثة شبّان عراقيين مهمومين. وجوههم متعبة من جراء الدراسة والاستحلام. تفضلوا.

ـ استاذ نحن نحبّك ونحترمك، تصوّرناك عند كلمتك. لقد حان موعد الدفع منذ اسبوع.

ـ أيّ دفع يا اخوان؟

ـ الدين

ـ أيُّ دين؟

عرفت ما الذي أوقعني به أكرم، ولماذا كان يطلب مني أن أقف على بعد امتار من أبواب أصدقائه. توقفت تعابير وجهي كساعة معطوبة. أما وجوههم فكانت وكأنها خالية من أيّ ود منذ سنين. إذن هيّا لنذهب ونواجه أكرم. لم يقترح أحد أن نستقل الحافلة فحمدت الله. كان المطر خفيفاً، ولكنْ منذ أيام وأنا اعاني من تجمّد في قدميَّ، من جراء ثقوب صغيرة في حذائي. الماء يصعد قليلاً قليلاً إلى الجورب. وضعت قطعة نايلون في الحذاء. أسمع له خشخشة تحت قدمي ولكن لا يصدُّ الماء. كان أقسى ما في سيرنا هو الصمت المتورّم. حاولت أن ألهيهم عن الموضوع إلى حين نصل

مكتبة الفكر الجديد

فلم أفلح. كانوا فلاحين أميين قرّروا الثأر، فلا يثنيهم عن مرامهم شيء، لدرجة أشعَروني بها أنني أسير لديهم، وكأنني سرقت نهود أمهاتهم، وقبضوا عليّ، حينما كنت أعرضها للبيع. قطعنا نصف المسافة، قال أحدهم لنتنازل عنها هي مجرد ثلاثة جنيهات، ويجوز أن الاستاذ ليس لديه نقود الآن.

قال آخر والله أنا محتاج ولكن...، أما الثالث فابتعد قليلاً وكأنه لا يريد أن يشرك نفسه في الموضوع. استغربت. قلت بنفسي هل كان أكرم محتالاً فعلاً، أم ان اولاء الثلاثة هم المحتالون، فاخترعوا هذه الطريقة لابتزازي؟

لم نر أكرم فقد انتقل إلى مدينة أخرى. حُسِم الامر بكره بعضنا بعضاً.

حين رجعت إلى البيت، ذهبت رأساً إلى المزبلة وأخرجتُ أوراق مذكراتي قطعة قطعة. حاولت إعادة ترتيبها، فوجدت نفسي متعباً. قرأت فيها قليلاً، نصف كلمة هنا، حرفين هناك. لم أجد كلمة واحدة كاملة. شعرت بالتعب وضعتها جميعاً في كيس نايلون ودفنته في الحقيبة. أغلقت عينيّ كأنني أغلقهما عن العالم. اندسست تحت اللحاف لاعناً كل بداية وكل نهاية، في كل شيء. تسللت أضوية الشارع الذهبية من خلال الستائر المفتوحة. هذه عادة، استجدَّت اثناء وجودي في الغرفة. حينما أكون داخل الغرفة في النهار، أُغلق الستائر تماماً فأشعر بأمان وأتبادل الودّ العميق مع السقف والجدران والأرضية والأثاث، وكأني لا أريد أحداً أن يشاركني هذه المحبّة الخاصة، وحين أطفئ الضياء ساعة النوم أفتح الستائر، أريد أن أشعر انني جزء من العالم الخارجي. جزء حيّ واسع.

مكتبة الفكر الجديد

لليوم الثاني حيّتني أذرع الشمس المغتسلة بماء الينابيع، وافترشت وجهي ونصف سريري. تنفست دفئها فسرت بلذاذة في كل جسدي. بقيت في الفراش لا رغبة لي في أي شيء بعد ملحمة الليلة البارحة. ثمَّ ما من أملٍ منظور مهما كان بصيصاً. وما من مالٍ مهما كان ضئيلاً. قررت أن أصاحب الراديو لأتعلّم، والكتاب لأتعلم كذلك. بين كلمة وأخرى ويتكوّم عليَّ موقف الشبان العراقيين الثلاثة، ووجوههم المتعسّمة المشفوطة بالاستمناءات، ثمَّ سيرنا الطويل الصامت وكأنني سرقت نهود أمهاتهم وقبضوا عليَّ حينما كنت أعرضها للبيع. ندهوا فيَّ عالماً مرعباً كان مدفوناً. نسيته في معمعات الغربة والجوع والفقر وتغيّر المشاهد والبشر واللغة. حينما رجعت منهم البارحة داهمني ظلام «باترسي بارك»، وبدت أشجاره العارية كسعالى بمئات الأيدي. تكمّشتُ. أسرعت. لا التفت إليها والتفت بتصلّب كأنها ستتحرك وتطوّقني. اختنقت. سمعت صوت أقدام ورائي. تورمت أُذُناي. أسرعت، كانت تقترب أكثر حين سبقني ظلّه الطويل، تلوت الشهادة، كأنه اخترق جسمي، عبرني فجمعت نفسي بلهاث ولم أصدق. نحن العراقيين نولد وفي جيناتنا الخوف، نرث الخوف كابراً عن كابر، كما نرث السحنة والملامح والأمراض، سرُّ نكباتنا هو الخوف، حتى استبداد حكامنا نابع من الخوف. وحتى تتأكد الامهات من فاعلية جينات الخوف فإنهنَّ يقدمن إلى اطفالهنَّ مع الوجبات الغذائية الطنطل والسعلاة والشرطي والأب. الأب الذي إنْ غضب يُصاب بداء الكلب ويضرب بأقصى ما في عضلة يده من طاقة.

أعاد لي العقل الباطن صوراً نازفة بدأت بالفلاحين الجياع كالجراد أيام الفرهود في الناصرية وهم يقطعون الأصابع بالمسحاة من أجل خاتم، إلى صراخ السجناء الذين يُصبُّ الماء المغلي بآذانهم.

مكتبة الفكر الجديد

يعترفون بكلّ ما يريده السجّانون، ومع ذلك يصبُّ الماء المغلي بآذانهم. صراخ لا ينقطع وحقد لا ينقطع. تذكرتُ تلك المرأة الريفيّة التي زوّقت ابنتها ولم يتجاوز عمرها العاشرة. قالت للضابط جئتُ بها هدية لك، افعلْ بها ما تشاء، هدية لك، دلّني فقط أين أخذوا معيلي الوحيد ـ ولدي، وأنا أرملة.

تجمدت على حين غرّة، حين تذكرت ذلك المعلم، وهو يحتلُّ كرسيَّ المدير. دخلت إلى غرفة الاساتذة. سلّمت كالعادة. الصمت مشحون مرعب، العيون باتجاهي، شتمني المعلم بكل بذيئة. كانت أمّي على لسانه قحبة عادية وسحاقيّة ووالدي قرناناً قوّاداً ومأبوناً. رفع السماعة. خاطب منظمته: وصل هذا الابن القحبة الشيوعي. طبيعي «نكسر عينه». جرَّ مسدسه من حزامه ووضعه على الطاولة. وصرخ: قم انزعْ بنطلونك من الآن. حضِّرْ نفسك، سنشقّك شقّاً هذه الليلة.

تعوّذت من الشيطان، غسلت وجهي، حاولت أن أحفظ بعض المصطلحات الانكليزية، فلم استطع التركيز. عاد المعلم. وقف وراء طاولة المدير وبيده المسدس. صرخت بكلّ ما أمتلك من صوت، خذلتني حنجرتي، صوتي شاحب باهت مبحوح. البكاء يملأ حنجرتي «أين أولّي من الأرض والسماء»؟ كما قال المعرّي. لماذا ولدت؟ أردت أن أقول له: إن بنطلوني جزء من لحمي، ولن تنتزعه إلاّ بقطع وريدي. لم أقلْ له ذلك كان صوتي جافاً التصق بلهاثي. خرج مفتتاً. اتصلت أمامه بكل رباطة جأش: بضابط بعثي احتلّ منصباً كبيراً في الوضع الجديد. حرّكتُ فيه أيّام طفولتنا بالناصرية. قال: لينزعْ بنطلونه هو، وكلّمه. ارتخت أولاً يد المعلّم وترك المسدس على الطاولة. شحب صوته وجفَّ وتفتت. سيدي

مكتبة الفكر الجديد

اعتذر، سيدي أقبّل يدك، سيدي عائلة كبيرة برقبتي. لم يُعطِني المسدس أحد. أنا لستُ بعثياً، أنا كما تعرف يا سيدي، لستُ بعثياً ولكن أنا ـ كما تعرف ـ يا سيدي. لا استطيع أن أقول فالغرفة ممتلئة بالناس. أنا ـ كما تعرف ـ يا سيّدي منتسب إلى مديرية الأمن العامة، سأعتذر منه، سأقبّل يده الآن. قبّل يدي. ها انني قبّلت يده وسأعتذر له.

المشكلة أنَّ الاساتذة جميعاً لا يؤيدون انقلاب البعثيين. نظروا إليَّ بشك الآن متصورين أنني بعثي مدسوس بينهم، وتوترت العلاقة بيني وبينهم.

لم تبق إلا دقائق قليلة على بثّ «الفصول الأربعة» لفيفالدي من الراديو. كنتُ قد سمعتها ببغداد، وعشت في طبيعة تخيلتها. قرأت في مجلة الإذاعة قبل خمسة ايام عن إذاعتها هذا اليوم. انشغلت في الأيام الماضية، بقراءة ما استطعت عن حياة فيفالدي، وبعض التحليلات للفصول الأربعة.

كانت الموسيقى التصويرية Programme music، أقل رواجاً في ايطاليا منها في فرنسا في القرن الثامن عشر، حيث كانت فكرة الفن على انها تقليد (للطبيعة)، تؤخذ حرفياً «كانت الطبيعة ماتزال تتركز في الإنسان، وإخضاع نشاطه إلى عناصر الطبيعة الجامحة». حلَّ فيفالدي مشكلة توليف المحتوى التصويري باللاالتزام بصيغة القرار أو اللازمة المتعارف عليها بطريقة بسيطة ومرضية في آن واحد.

انتهى المذيع، وبدأ الربيع وايقاعات الرقص. الطيور تغني اغنية مرحة. كورس فيفالدي الذي يناسب الطيور يستخدم ثلاثة كمانات منفردة. أما الأقسام الاوركسترالية فقلّلت إلى عازف

مكتبة الفكر الجديد

واحد. امتلأت أذني بأصوات الطيور البهيجة الخصيبة الخالية من كل نشاز.

ـ استاذ نحن نحبّك ونحترمك. تصورناك عند كلمتك. لقد حان موعد الدفع منذ أسبوع.

ـ أيّ دفع يا إخوان؟

ـ الدين

ـ أيُّ دين.

عادت وجوه الشبان العراقيين الثلاثة المشفوطة بالاستمناءات. ركّزت أكثر على الموسيقى. الجداول تسري، تحركها الأنسام الرقيقة. عاد المعلم الكريم العين. المسدس على الطاولة، وفمه محشوّ بكلمات مصنوعة من التفال. «الرعد والبرق يغلفان الهواء بكفن أسود. اهتزاز الأرغن يصوّر الرعد. النوتات الصاعدة السريعة، وتوقيع النغمات المتعاقبة السريعة تمثل البرق».

عادت الطيور إلى الغناء في الحركة الثالثة بعد أن كانت صامتة. يبدأ فيفالدي بفكرة كثيراً ما توجد في أعماله وتتعلق بالنوم، ومن ثمَّ يعيد ثانية، وبصورة مخففة موضوع الطيور المتكرر.

في كونشترو الشتاء يصوّر العازف المنفرد والاوتار الدنيا الراحة قرب وجاق المدفئة، بينما تمدّنا الكمانات بقطرات المطر في الخارج. شعرت بقشعريرة وخوف وحنق وأنا أسير بين هؤلاء الشبان العراقيين الثلاثة. صعدت الرطوبة إلى الجورب. الشرطة، الفراشون، المسؤولون، ينظرون خلالك ولا ينظرون إليك. تكرر السؤال عشرات المرات، والكل ضائع: لا أدري، وما تزال جثة أخي في الطب العدلي ليومين كاملين. سألتُ معاون الشرطة عن ملابس أخي، عن محفظته، عن دفتر مذكراته، عن ساعته الجديدة التي

مكتبة الفكر الجديد

اشتراها قبل اسبوع. لا أدري قال معاون الشرطة. هل جاءكم أخي عارياً؟ استملح المعاون النكتة. ضحك وترك الغرفة. الجثة العارية الآن في الطبّ العدلي. نحن في انتظار مجيء الطبيب منذ يومين.

وُضع التابوت على السيارة في الطريق إلى النجف. كانت رائحة جثة أخي لا تُطاق. شدَّ سائق السيارة «يشماغه» على أنفه. أومأت إلى السائق في ربع الطريق فوقف. قلتُ له: الرائحة لا تحتمل. رجوته أن يسير خلف طابور السيّارات. قبل ثلاثة أيام فقط زرته في بيته في الكاظمية. كان عطر الصابون في جسده وشعره مايزال بليلاً. نظرت إلى ساعته الجديدة وإلى شعر يده الكثيف ونحن في سيارة الأجرة كان مرحاً في سيارة الاجرة. مازح السائق بأخوة وودّ. قلت له لا تذهبْ إلى مقهى «البيروتي» اليوم. الغريب أنني عانقته عند الوداع، بحرقة. شبه وداع أخير. ربّت على كتفي، وقال سأذهب بعد ذلك إلى شارع «أبي نواس». بقيت متسمراً في مكاني إلى أن غاب في الزحام. كانت مشيته ممتلئة بالحيوية، كأنه مندفع إلى الترحيب بشخص عزيز منتظر. وصلت إلى البيت، وكان الغبار يملأ الشوارع. أخبرني شخص، لم أعرف صوته: أخوك ضُرِب بسكين بذراعه ونُقِل إلى مستشفى في شارع الشيخ عمر. قال: جرح طفيف. كان الجرح في القلب. آخر ما سمعت ضحكة المعاون وهو يترك الغرفة وأخي عارٍ في الطب العدلي.

عند الدفن، اقترب مني شخص ملتحٍ. همس بأذني: ادفع للحفّار هدية عشر دنانير ليحفر حفرة أعمق. أصابني إصابة عميقة فارتجفت. تمنيت في تلك اللحظه أن يُترك أخي بلا قبر ولتأكله الكلاب. إلهذا الحدّ وصل الخراب!

بعد المحاكمة والشهود الزور، حُكِم على القاتل بالسجن خمس

مكتبة الفكر الجديد

سنوات. الرشوة مقسمة بين الحاكم والمحامي والشهود. كان والد القاتل موسراً. اليأس التام وحده منع عينيَّ من البكاء. خرجتُ من المحكمة وأنا اشتم القوانين برمتها. بلغت حدّ الجنون. قلت لا ينقذني إلاّ السجن. الشوارع لا تطاق. الحرية لا تطاق. وقفت أمام وزارة الداخلية. شتمت الوزارة بأعلى صوتي. ثم شتمت عبد الكريم قاسم بأعلى صوتي. تجمهر حولي بعض المارّة. خاب أملي بالسجن. جاء البعثيون إلى الحكم. رأيت عبد الكريم قاسم في التلفزيون مثقوب الجبهة وعيناه مفتوحتان. رأيت الجندي وهو يهزُّ رأسه الميت من شعره. بكيت وللدموع في عيني فعل الوخز والنخس. أطفأت آلات فيفالدي، في الراديو، وخرجت لأتنفس هواء غير هواء غرفتي.

اختنقت وكأن حبلاً يُشدّ على عنقي.

استيقظت كالعادة مبكراً. نظرت إلى السماء، كانت «السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين» كما قال ايليا أبو ماضي، وممطرة. داكنة. البارحة تركت للشمس الستائر مفتوحة لتدخل من خلال زجاج النافذة المنغلقة. أصبحت الشمس تتحكم بمزاجي كلّه. ليتني تحت شمس العراق لساعة. لا ألوم عبدة الشمس بعد اليوم. رجعتُ إلى الفراش مخذولاً. لأنام فما من شيء ينتظرني إلاّ القراءة وحفظ مزيد من الكلمات. الكلمات الجديدة مخلوقات غريبة وأنانية لا تشرك معها شيئاً، وألدّ أعدائها الخوف والقلق. لا تنبت إلاّ في الذهن الصافي، وتحتاج إلى كثير من المداعبة والملاعبة والتغزل بها حتى ترسخ. لا ترسخ الكلمات إلاّ إذا أطمأنت إلى الترحيب بها، ترحيباً خاصاً. الكلمات كالبشر. بعضها ليّن مطواع. بعضها يقدم إليك نفسه بكرم وطواعية. بعضها

مكتبة الفكر الجديد

لئيم يتكبر عليك، وبعضها يستغلق ويستعصي. بعضها يزعل من لكنتك الأجنبية فيستجيب للحفظ كالمأجور، وبعضه يطرب لجرسه المختلف. ما من شيء ينتظرني. ولم أتوقع فرجاً من أيٍّ نوع. ليتني أنام أياماً بطولها ولا استيقظ إلاّ على معجزة. بين اليقظة والنوم، عنّفت نفسي أشدَّ تعنيف. لماذا انصعت للعراقيين الشبان الثلاثة؟ لماذا رحّبتُ بهم؟ لماذا أعطيتهم شاياً؟ لماذا ذهبت معهم؟ ندمت تماماً على ذلك السلوك المشين. ألم يكن بمقدوري أن أقول لهم بحزم صادقاً: هل أعرفكم؟ هل استدنت منكم؟ راجعوا البوليس إن شئتم. ثم أُغلق الباب، وأنا مطمئن. لكن الاشاعات على لسان العراقي تأخذ طابع الهتك والتدمير. ألسنة العراقيين أسلحة فتّاكة لا يسلم منها حتى الصديق. انهارت ثقتي بنفسي، وحين انقلبت إلى جهة الحائط، دُقَّ باب الغرفة نقرتين خفيفتين مهذبتين. موسقت سيدة البيت صوتها وقالت حمل البريد لك بعض الرسائل. دفعتها من تحت الباب. أربع رسائل مرة واحدة.

الأولى من إذاعة لندن والثانية بلا طابع، والثالثة من العراق والرابعة من لندن. لا أدري لماذا استوفزت أعصابي. اقترحت على نفسي أن أفطر اولاً، وأقرأها بعد كوب الشاي الثاني. شربتُ السيجارة بتلذذ حالم.

كانت رسالة المخرج الإذاعي الفلسطيني مكتوبة باللغة الانكليزية. لغة عملية تماماً وكلها احترام. أعجبتُ بهذا الفلسطيني الذي يطعّم كلامه دائماً بجمل انكليزية طويلة. شريف مع الفتيات ويتحدث إليهنَّ بلباقة كبيرة ودماثة يخفيان قهراً دفيناً. حين يلتفت إليَّ، تتحنن نظرته، وكأنه يتذكر تشرّده بالقاهرة بعد نكبة فلسطين. يسألني في رسالته أن أكتب له أربعة أحاديث

مكتبة الفكر الجديد

قصيرة لا تتجاوز مدة كل واحد منها أربع دقائق. وكلها مرهونة بنجاح الحديث الأول عن ابن المقفع.

الرسالة الثانية من سيد البيت وزوجته يدعواني فيها على أكلة «كاري» بمناسبة زيارة ابنتهما وحفيدهما الوحيد. سيكون الغداء يوم السبت المقبل أي بعد أسبوع.

الرسالة الثالثة من زوجتي أجّلت قراءتها حتى أتفرغ لها. عجبت من الرسالة الرابعة موقعة من قبل ذلك التلميذ. لغة الرسالة مهذبة موزونة، مروّضة بالجمل الاعتراضية. أحسست أنه يخاطبني إنساناً حقيقة. يسألني إن كان لديَّ وقت لقبول دعوة جونثان وزوجته في بيتهما على عشاء. قال إن زوجته وكذلك شقيقتها أعجبتا بي. كتب في نهاية الرسالة ملحوظة: سأعرّفك على شريكتي الجديدة ولديها فضول كبير للتعرف على عربي. أرفق مع الرسالة خريطة المنطقة والعنوان وأفضل طريقة للوصول إليه بالحافلة أو بالقطار. ثم رقم هاتف جونثان، في حالة عدم تمكني من ايجاد طريقي.

أكاد أعرف خط سميرة حتى وإن كنت نصف مغمض العينين. الكلمات تبنيجية. أغمضت عيني نصف إغماضة وأصغيت إلى الكلمات. موسيقى خافتة حنون. موسيقى غاضبة أشدُّ حناناً. قرأتها عدة مرّات. هل صعب على الله والدنيا أن تهيئ لنا لقاء وان كان قصيراً؟ أريد أن أعتذر إليها عن خيبتي. أنا إنسان خائب. تصوّرت أن الأيام بعد ثورة ١٩٥٨ ستكون لبناً وعسلاً فتزوجت. لماذا غررت بها بالشعر. كنتُ أنانياً، كالسمّاك الذي يغري السمك بالطعم، أغريتها بالشعر وفرشت لها طريق المستقبل بالورود. صدّقتِ المسكينة شعري وتحرّك خيط الصنّارة، فجذبتها. ليتها

مكتبة الفكر الجديد

تصدّق الآن انني إنسان مدحور. أخاف من البومة التي أهداها لي سيد البيت وزوجته. مازلت ألفّ رأسها بالمنشفة ليلاً فتبدو لي كمومياء، كرأس انسان مكفن. أخاف من كل خطو يسير ورائي في الليل. انغرزت السكين في ظهر أخي من الخلف. أحمل سكيناً أبدياً في ظهري. هل صعب على الله والدنيا أن تهيئ لنا لقاء وان كان قصيراً. أريد أن اعتذر لها واقبّل ابنتي وأشمّها واحضنها، ثم لا يهمّ بعد ذلك إن عشت أو متّ. تعتّم كل الماضي في عينيّ واختلط كبحرٍ مظلم. لم يبق منه سوى بصيص فنار. أنت الفنار يا عزيزتي سميرة، ولكن ما العمل؟ هل أعود من أجلك؟ أم أبقى بعيداً من أجلك؟ لا نلتقي إلاّ بمعجزة أين سأعثر على المعجزة؟ منذ طفولتي وأنا افتش عن «عرق السواحل»، وطاقية الإخفاء. وضعت الرسالة تحت المخدّة وكنت في أشدّ حاجة إلى حرز.

في العاشرة والربع. دُقَّ باب الغرفة على عجل. صوت سيدة البيت مرّة ثانية: شخص يطلبك على الهاتف. الفلسطيني الذي نشرت في مجلته مقالة عن نزار قباني.

ـ أريد أن أزورك بعد ساعة، هل لديك مانع؟

ـ أهلاً وسهلاً. قلتها ولم أعنها.

ـ لديَّ مقالة ترجمتها البارحة عن «منطقة البحيرات» وأريدك أن تدقق في الترجمة.

ـ لكنَّ لغتي الانكليزية لا تساعد.

ـ لا. أقصد إصلاح أخطائي اللغوية والاسلوبية. يجب أن اسلّم المقالة هذا اليوم في الساعة الثانية. رجاءً تفرّغ لي.

سحرتني منطقة البحيرات وقصيدة وردزورت عن السوسن البرّي. لم أجد أخطاء كثيرة في القواعد. قدّمت وأخّرت قليلاً.

مكتبة الفكر الجديد

ورجوته أن يرسل لي نسخة من المجلة لاقرأ المقالة بتمعن. قررت في سرّي أن أزور منطقة البحيرات حالما يتيسر الحال. قام على عجل، ووضع في يدي مظروفاً مغلقاً كُتب عليه بالانكليزية: المستر نيازي المحترم. قال لي لا تخبر أحداً قط رجاءً. ذكرتُ له أن لغتك جيدة وفوق المستوى، ولكن يبدو أنَّ اصدقاء السوء أفقدوك الثقة بنفسك. ضحك مؤكداً ما ذهبت إليه، وقال رجاءً لا تخبر أحداً قط.

رأيتُ داخل الظرف ستة باوندات ورسالة شكر بالعربية، ويرجوني فيها أن أساعده في المستقبل. كتب في آخر الرسالة ملحوظة يذكر فيها أنه حثَّ قريبه في الإذاعة للاستفادة من معلوماتي الأدبية. اشتريت حذاء على الفور. وأكلت «شاورمة» وحمص بطحينة مع السلاطة «والطرشي» في مطعم يوناني قريب. شعرت بلذة الأكل تسري في كل جسدي وتنزل إلى أخمص قدميَّ. شربتُ شاياً أسود وثنيته بآخر. النشوة، النشوة تتشكل وحين وصلت أقصى كمالها، شعرتُ بإثم. كيف أفرح ولا أدري ما حلَّ بزوجتي وطفلتي الآن. كل طارئ ممكن.

منذ طفولتي وأنا أتوجس خيفة من الفرح التام، وانعته دائماً بالطيش. معادلة بسيطة وربما سخيفة ولكنها أساسية. الفرح الغافل طيش. الفرح الطائش غفلة.

كان أخي الذي قُتِل في أقصى انتشاء حين زرته في بيته في الكاظمية في ذلك اليوم المشؤوم. نظرت إليه أمّي وإلى قامته الطويلة المتناسقة نظرة مسحورة. نجح من كلية التجارة بتفوق وها هو موظف. انتقل ـ بعد سنين طويلة من الكدّ ـ من مرحلة الفقر، إلى مرحلة الملابس الجديدة، وتعطير الذقن بعد الحلاقة. سهوت

مكتبة الفكر الجديد

وأصابتني عدوى النشوة، وحين كنّا في سيارة الأجرة، نظرت إلى وجهه عدّة مرات. أردت أن أطبعه على ذهني. أغمض عيني وأحاول رسم ملامحه ملمحاً ملمحاً. أفتح عيني لأتأكد، تأكدت من كل شيء تماماً. وقبل أن نتوادع ألقيت على وجهه نظرة شاملة مدققة، فارتبك، واصفرّ قليلاً. لا أدري لماذا افترضتُ أنني قد أنسى شكله إنْ مات. الأموات أشدّ مخلوقات الله أنانية. كلما زاد حبّك زادت أنانيتهم. يراقبونك. يترصدونك. تتصورهم في كل مشهد ويطلعون عليك في الظلام أشباحاً. تسمعهم يتحدثون إليك. تلتفت فلا تجد أحداً. ينقلبون إلى قوى شريرة يفاجئونك حين تبلغ نشوتك أقصاها. كأنهم يعاتبونك على نقض العهد بينك وبينهم على عدم نسيانهم. حياتك إمّا مأتم وإلاّ فلا . الغريب أن الأموات مهما كانت معزّتهم، كائنات مرعبة، وخاصة إذا زاروك في الحلم. ترتعد وتتصبب عرقاً، وتتلمس أعضاءك لتتأكد من وجودك. الحلم بالأموات شؤم، يورث الهواجس.

ذهبت إلى مكتبة كلية الدراسات الشرقية والإفريقية التابعة إلى جامعة لندن، لكتابة نبذة عن ابن المقفع. رغم أنني درسته في جامعة بغداد وحفظت منه مقاطع في دروس المطالعة في الثانوية، إلاّ أن معلوماتي لا تكفي لكتابة حتى ولا عشرة أسطر. أين ومتى ولد؟ ما ثقافته؟ ما مؤلفاته؟ بمن تأثر؟ ما تأثيره ومكانته؟ متى طبعت كتبه وأين؟ متى مات وكيف مات؟ كانت معلوماتي التي تصوّرتها مرضية وشاملة عن ابن المقفع لا تكفي للإجابة عن تلك الأسئلة باطمئنان. كنّا نقرأ الأدب لنجتاز امتحاناً، ونعلّمه للتلاميذ ليجتازوا امتحاناً. أمّا كتابة حديث فمسؤولية. يجب أن أدقّق فيما استعمله من كلمات وآراء. يجب أن تكون كلماتي منتقاة، وآرائي غير جازمة مهما كنت متأكداً من مصادري. علّمني تلميذي أهمية

مكتبة الفكر الجديد

الجمل الاعتراضية التي أسميها خطوط الرجعة. علّمني اللايقين حتى في اليقين. قلت لأقرأ الأدب الصغير والأدب الكبير وكليلة ودمنة حبة حبّة وبتأنٍ. القراءة لا تُخصب إلاّ إذا أصبحت نوعاً من الكتابة.

تذكرت تلميذي وهو يسألني عن كل شاردة وواردة. ولكنَّ المسألة تختلف مع ابن المقفع. لأنه لم يكن مبدعاً يستلهم نصوصه عن طريق العقل الباطن، ولا تختلط في نصوصه الحواس. كان أديباً بالمعنى العام للكلمة، ولكنه لم يكن أديباً حقاً. صحيح أن أسلوبه متقن وكلماته بمقاس الأفكار إلاّ أنه لم يكن أديباً. كان أهمَّ من ذلك.

أهمية ابن المقفع تتجلّى أكثر ما تتجلّى في حرصه الشديد على خلق انسان متحضر وحاكم حكيم. كان الصراع بين البداوة والحضارة على أشدّه في زمانه. نظر في المجتمع، نظر في السلطة والحكام، فوجد خللاً. بدو يعيشون في مدن. يمكن اعتبار ابن المقفع من أوائل، إن لم يكن الأوّل في تاريخنا القديم الذي فكّر بصناعة الإنسان المتحضر. أراد أن ينقل المجتمع من طورٍ إلى طور. قد تنطبق عليه صفة التربويّ العقلاني أكثر ما تنطبق عليه صفة الأديب المبدع. ظهرت صفة التربويّ العقلاني في أسلوبه. سلساً، متهادياً. ليس ساخناً ولا بارداً، ولكنه أبعد ما يكون عن الفتور. وهو أشبه ما يكون بأسلوب طبيب وهو يخبرك عن أسباب المرض والطرق الأكثر نجاعة لعلاجه. كان ابن المقفع طبيباً بهذا المعنى.

قارنه الباحثون للأسف بالجاحظ وفاضلوا بينهما. ولكن الجاحظ أديب وابن المقفع فيلسوف تربوي. تساءلوا بأيّهما يبدأ النثر الفني عند العرب؟ ورغم أن التساؤل في غير محله، إلاّ ان بعض

مكتبة الفكر الجديد

عمري تقريباً ستكون عدوّي الأول؟ وأن القاموس الذي سحتُ فيه كمكتشف، سيكون لي مصيدة أتفاداها؟

حقّاً عجبت من أمسي ويومي. عالمان منفصلان رغم التقويم. شقيقان من أمّ واحدة، وأب مختلف. كنت بالأمس أعاني من الآلام الجسدية، برداً وجوعاً وتشرّداً، وها أنني اليوم محاصر أشدّ حصار بالامراض النفسيّة. حنجرة تكره اوتارها. ذاكرة ندمت على ما خزنت من كلمات. عين تخاف مما ألفت. أذن منذعرة من مطرقتها والسندان.

شربت أقراص فقدان الذاكرة، فاختلّت حياتي. لا يمكن للإنسان أن يعيش بلا ماضٍ. الشجرة لا تعيش الفصول بلا جذور. لكنني انقطعت عن الماضي، واعيش كيفما اتفق .لا يهمني أبداً حلم كلكامش بالخلود. ما يعنيني الآن من كلّ لغات العالم وقواميسها كلمة واحدة أو كلمتان: شفي العراق. اذن ما كان لم يكن، وما حدث مجرد كابوس. كلّ مذهب، كل فلسفة، كلّ شعر، كلُّ سياسة لا أجد فيها ذلك الشفاء باطلة. عبرت سبعة بحار يا كلكامش ولم أجد الشفاء. وها أنني مشرّد خائب، بلا ماضٍ وسقطت هويتي حين رجعت من البحار السبعة.

لكنْ لابدَّ من هوية، أية هوية. ما من شفاء ولكن لابدَّ من هوية ولو كان آجرّة سومرية في صندوق زجاجي في متحف.

حقاً حفظت الشعر العربي، كأحسن ما يكون عليه الحفظ أيام الدراسة، وقرأت امّهات الكتب كأحسن ما يكون عليه الاستعداد للامتحان. لكن كنتُ مثل غصن طعّم في شجرة غريبة عنه، نما وظل غريباً. هل كنت غريباً عن التراث العربي و لم أعرف غيره؟ نموْت فيه وظللتُ سومرياً؟ لساني خارج من خيمة صحراوية

مكتبة الفكر الجديد

وقدمي بأور؟ أين جذوري الحقيقة؟ ثمة شيء مفقود في كلّ ما كنت أقرأ من تراثيات . أتلذذ بما كنت أقرأ، وثمة شيء مفقود. وفي لغة الناصرية، كلمات لا تعثر عليها في كل قاموس. حروف لا وجود لها إلاّ على ألسنتنا نحن في هذه المدينة البائسة المدحورة. حتى طريقة حديثنا تختلف، ونروي القصص بأسلوب لا مثيل له في القصّ الذي قرأته. هل كنت غصناً طُعّم في شجرة غريبة؟ مع ذلك لم يُثمرْ إلا ثمره هو؟ لماذا أشغل نفسي بهذه السفسطات ما دامت حياتي قد ارتبطت بجذور جديدة. قلتُ أقلعت عن القاموس منذ أشهر. أراه على الرف، مهجوراً أتألم وازداد عناداً: لن أقربه. حتى الملحِد يتألم إذا رأى معبداً قديماً مهجوراً. يكابر أوّل الأمر. هل يدخل؟ هل يدخل؟ يدخل ويعلل دخوله بمجرد الفضول، ثم ينتشر الله في جسده.

اقلاعي عن القاموس، وعن التفتيش عن هويتي، قرار لا رجعة عنه. ولكن ما معنى «سومر» أو هل لكلمة «اور» وجود في قاموس تاج العروس؟ فتحت القاموس بحجة منطقية. وكمدخن أقلع عن التدخين وشمَّ علبة سجائر فارغة، تنشّقها فطلب سيجارة باستحياء، قبل أن يشتري علبة كاملة مع علبة كبريت. لكن ايجاد كلمة سومر وأور لا علاقة له بالمثل الذي ضربته عن المدخّن. إنني مدفوع بفضول علمي. (ما أسهل خديعتي لنفسي، ولديَّ أعمق التبريرات لتقبّلها!). قبل أن أصل إلى الكلمتين، نظرت إلى كلمات هنا وهناك بلا أبالية أولاً كمَنْ ينظر بلا أبالية إلى امرأة خدعته وعادت. نظر إليها نظرةً مَنْ يستحيي أن يصفح عنها بدون تأنيب، وكل حجيرة في جسده تصيح: تعالي. لم يفارقني دفئك ليلة، فأقشعرَّ. لم يصفح عنها فتعذّبت، وتعذّب أكثر وذابا لهاثاً. اللهاث حمّى الصمت، وهو أسخنه.

مكتبة الفكر الجديد

الباحثين جنوا أكثر حين ذكروا الشعوبية، فحاولوا طمس ابن المقفع وإعلاء الجاحظ.

لم أكتب كل هذا في الحديث. اقتصرت فقط على سيرته، مكان ميلاده، مكان وفاته وكيف قتل؟ أهم مؤلفاته. وقرأت بعض المقاطع للتدليل على أسلوبه الرفيع. لكني ذكرت مكانته في التربية، ولمّحت إلى خطل إدخال الشعوبية. أحبَّ المخرج الفلسطيني الإشارتين. كانت ترين على وجه هذا الفلسطيني كآبات شتّى، تذكّرك ملامحه المتأزمة بحيف نزل به من جرّاء ضياع فلسطين، وها هو الآن يتحمس لتشخيص أيِّ داء، ويفرح بلا انقطاع إن سمع علاجاً. قال لي بودّ كيف تعلمت اللغة العربية؟ قلتُ له مثلما تعلمت أنت اللغة الانكليزية. دعاني لشرب شاي، وقدّمني إلى مخرجين آخرين. طلب مني وأنا أودعه أن أكتب نبذة عن مقامات بديع الزمان الهمذاني.

لم أهتمَّ بالنثر العربي سابقاً. كان علينا أن نقرأه في المناهج المدرسية، ويُطلب منّا أن نحفظ مقاطع منه وهذا أقصى اختبار. اعتبرته أقلَّ شأناً من الشعر. وهذه مسألة لم تكن موضع نقاش من قبل. لكنَّ انكبابي على النثر الانكليزي لتعلّم اللغة، فتح عيني على أشياء كانت خافية عني. فبسبب ضعف لغتي الانكليزية، كنت أطالع النثر بتأنٍ. أتابع الفكرة كيف تبدأ وكيف تتطور وتستوي. قدرة الشاعر في التأثير، وقدرة الناثر في الإقناع. الأول يتوصل إلى هدفه عن طريق العاطفة، والثاني عن طريق العقل. كنت اقترب في هذه المرحلة إلى العقل أي مرحلة النثر، نتيجة غربتي وظروفي المعيشيَّة. ما سحرني بالنثر الانكليزي أكثر، هو ايقاعه الناجم لا عن جرس الكلمات، بل التقديم والتأخير والمفاجأة، الجمل الاعتراضية،

مكتبة الفكر الجديد

خطوط الرجعة، المداورة، ولكنها تُطرح جميعاً وكأنها عفوية وغير مقصودة.

حين قرأت على ضوء النثر الإنكليزي ؛ ابن المقفع، وبديع الزمان الهمذاني بلندن أصبح لهما طعم مختلف كلية. هل كان ذلك بسبب طريقتي الجديدة في قراءة النثر؟ لا أدري.

وصفت نثر ابن المقفع بأنه «غير ساخن وغير بارد، ولكنه أبعد ما يكون عن الفتور»، وهذه إحدى صفات التجربة المختبرية التي يتحلّى بها النثر الانكليزي. التشابه الآخر، هو ما يحصل عليه قارئ ابن المقفع من متعة وفائدة وهذا أقصى ما يطمح إليه الناثر الانكليزي: المتعة والفائدة. عليهما يقوم الفن. ربما يُعتبر بديع الزمان الهمذاني، أوّل أديب استثمر عنصر التوقيت أو التزمين في الأدب العربي. فمن خلال تزمين حدثين متضادين، أخرج لنا الهمذاني مسرحاً جذاباً ساخراً بلا لؤم، وضاحكاً بلا شماتة. قلتُ مسرحاً، لأن المسرح عموماً، والانكليزي خاصة، يعتمد كل الاعتماد على التوقيت في تصعيد الأحداث إلى أعلى ذروة لها.

الفضل، في الواقع لابن المقفع والهمذاني، في تحبيذ النثر العربي لي، وهما اللذان فتحا لي كنوزاً كانت خافية عني. من يومها انغمرت بتلذذ وإعجاب في ايقاعات النثر، مندهشاً وكأني اكتشف أنفس اللُّقَى.

كتبت رسالة باللغة الانكليزية ـ وهي أوّل رسالة لي بهذه اللغة ـ إلى تلميذي، معتذراً عن تلبية دعوة جونثان وزوجته. بيّضتها عدة مرات. صعدت إلى سيدة البيت، ورجوتها أن تصلح لغتي. ضحكت حتى كادت تسقط أسنانها الاصطناعية. قالت ألا تدري انني حُرِمت من التعليم بسبب الحرب العالمية الثانية. أخرجونا من

مكتبة الفكر الجديد

المدارس وأدخلونا المعامل. التفتُ إلى سيّد البيت وكان يسعل كحيوان مسن. قالت لا فائدة، فهو كثيراً ما يسألني عن بعض الكلمات. نحن نقرأ ولا نعرف كيف نكتب. عندها قررت تلبية دعوة جونثان ولم أكن راغباً فيها. مع ذلك كنت فضولياً للتعرف على بيت إنكليزي من الطبقة المتوسطة.

كنت تصورت، أن ما من أحدٍ في الجزر البريطانية لا يقرأ ولا يكتب. جريدة «الديلي ميل» تصل يومياً إلى البيت. أرى سيد البيت وسيدته يقرآنها باستغراق. يرجعان إلى القاموس بين الحين والحين. يعلقان على ما يقرآن باقتضاب. هل من المعقول أن يكونا أميين؟ سيّدة البيت بالذات تشتري قاموس اكسفورد كل سنة وتحرص على معرفة الكلمات بدقّة. غير أن أحاديثهما خالية من أية إشارة إلى أيّ كتاب أدبي أو فني. يعرفان المناطق السياحية في مدينة «ستراتفورت ـ ابون ـ ايفن ـ» ولا يعرفان مسرحيات شكسبير إلاّ بالاسم. أغلقا باب السياسة بوصف السياسيين بأنهم «محتالون». لم اسمع منهما طيلة الأشهر الماضية كلمة غيبية واحدة، ولا يخافان من أية قوة غيبية، ولا يتكلان على أية قوة غيبية. حياة تبدو ميكانيكية، إلاّ أن الجلوس معهما مريح. لا تنافس. لا تنابز. لا افتخار بماضٍ شخصي، ولا استعلاء بإنجاز، ولا تفاؤل أو تشاؤم من مستقبل. مع ذلك فهما يطبّقان ما يقوله الخبراء تطبيقاً حرفياً، كالامّعات، وخاصة فيما يتعلق بالنظافة والصحة. الحرب قائمة ٢٤ ساعة ضد الجراثيم. المطبخ ممتلئ بأنواع المطهرات، وكذلك الحمّام. أخذا نصيحة الأطباء بضرورة التهوية حرفياً. ينزل البرد صفائح حادة وصفائح مسنونة من شباك المطبخ. المطبخ ثلاجة. ألمنيوم الحوض يشعّ برداً. ينزل البرد بكامل رياحه، وينسلّ إلى غرفتي من أسفل الباب واسمع له صفيراً. يفتحان

مكتبة الفكر الجديد

شبابيك غرف النوم قليلاً عند النوم. مع ذلك تغنّي سيّدة البيت يومياً عند إعداد الفطور.

لم أشمّ يوماً رائحة طبخ، ولم أسمع قلياً أو فرقعة. عرفتُ أن سيدة البيت ستطبخ «الكاري» حسب التعليمات. لديها أكثر من أربعة كتب عن الطبخ. بينها واحد عن الطبخات الشرقية. ربما لم تستعمله من قبل. لكن ستستعين به غداً من أجلي. وستطبخ الرزّ من أجلي. الموعد الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وأنا أجوع عادة من الحادية عشرة مهما كان فطوري متأخراً.

لم أشمّ رائحة طبخ، ولم اسمع قلياً أو فرقعة.

نحن بالعراق، نأكل بثلاث حواس مرّة واحدة. نأكل ونشرب بحاسة الشم. أفضل الشاي ما كان عطراً. نشمّ الخبز قبل أن نأكله. نشمّ البرتقال ونغرز فيه القرنفل قبل أن نأكله وكذلك البطيخ والشمام. وما أزكى راحة الرزّ العنبر. لابدَّ من رائحة في الأكل حتى وإن كانت منفّرة. يطيب لنا الرزّ الغابّ، نبيّته ليلة، ونأكله بشهية صباحاً. نجفف السمك، المسموطة، ونأكل رائحته المميتة. «كل عطور العرب لا تزيل رائحته من اليدين»، كما يقول شكسبير في مسرحية هاملت. نأكل بحاسة الذوق كذلك. يجب أن يكون الأكل مملحاً لدرجة المرارة، ومتبلاً لدرجة إطفائه بجرعة ماء، وحارّاً لدرجة اللسعات في اللهاة. لا نشرب الشاي الأسود إلاّ وربعه سكّر. خمرة «العرق» المصنوع من التمر لهيب حقيقي في الحنجرة، ولا نشبع من حلاوة التمر، ونمصّ عظام رأس السمكة.

كذلك نأكل بحاسّة البصر. يجب أن يكون الأكل وافراً. وفي ولائمنا تتربع جثّة خروف كاملة على تلّ من الرز، ورأسها

مكتبة الفكر الجديد

مفصول مركون إلى أمام الصينية. اظلافها نظيفة ملساء خالية من أية شعرة.

الفلاحون في العراق يضيفون حاسة رابعة في الأكل: محاسه اللمس. يقطعون الخبز واللحم بأيديهم وأصابعهم هي الشوكه والملعقة. يمصّون أصابعهم واحداً واحداً، وينظفون بقايا الطعام بين أسنانهم بألسنتهم، وأفواههم مفتوحة.

لم أشمّ في هذا البيت رائحة طبخ، ولم أسمع قلياً أو فرقعة، واليوم ستطبخ لي سيدة البيت «كاري» في الساعة الثانية والنصف حسب تعليمات كتاب «الطبخ الشرقي». من أين ستأتي بالبهار؟

كنّا حول المائدة سيد البيت وسيدته، وابنتهما «ديانا» وزوجها «هاري» وعلى كرسي صغير ابنهما «ستيف» البالغ من العمر خمس سنوات.

جاءت ديانا وزوجها قبل أسبوع وسيبقيان لثلاثة أسابيع أخرى. جميلة، رقيقة، صبيّة. تنظر بدعة كممرضة حنون، غير أنها تبدو مشدوهة، ملامحها خالية من أيّ احتجاج، أو تمرّد. غير متحمسة لشيء. لغتها قليلة ومقتصرة على تمشية الأمور. زوجها هاري ذو ملامح منشغلة كأنه متأخر عن موعد. لكنته لا تُفهم. وجهه مشرّب بالحمرة المحتقنة. سمين قليلاً ويأكل بشهية متلذذ لا جائع. هاري كذلك بمعاييرنا الشرقية أمّي. لا يخطر بباله أن يقرأ كتاباً، أو يحضر حفلة موسيقية أو عرضاً مسرحياً. ينام في الساعة التاسعة ليلاً كأقنوم ثابت. سمعته مرّة يتحدث عن الألوان. كان صاحب مخزن لبيع الأصباغ، كان يُري حماته «كاتالوك» الألوان، لكل لون عشر درجات مختلفة يعرفها جميعاً، يعرف أسماءها بيسر، يعرف انسجاماتها وتنافراتها، وأيّها أصلح للخشب أو الورق.

مكتبة الفكر الجديد

بعرف أنواع الخشب وشجره وأين يزرع ومن أين يستورد وأهم شركات الاستيراد وأرخصها. كانت سيّدة البيت تفكر بتغيير لون جدران مدخل البيت والمطبخ.

الصحون منسقة على المائدة. إلى أمامها الملعقة، وإلى يمينها السكين، وإلى يسارها الشوكة. تصورت أن صحن الرزّ سيتصدر المائدة ويفوح منه البخار. مرّت سيدة البيت بقدر صغير على الصحون غرفتْ ملعقتين ونظرتْ إليَّ مستفهمة، ملعقة ثالثة؟ تكوّم الرزّ ثلاث كوم صغيرة في وسط الصحن. حباته متلازّة، منتفخة مفطورة، وبيضاء بيضاء بياض كرشة خروف. الرزّ دافئ أقرب إلى البارد. انسدّت شهيتي على الفور. حين جاء دور المرق المتبّل أي الكاري. شعَّ وجه سيدة البيت بحبور أقرب إلى الزهو. وربما الغرور.

نزل المرق في الصحون بتوءدة. كمن ينقل شيئاً ثميناً قابلاً للانكسار من مكان إلى مكان. ملأ المرق ثلث الصحن. لونه بنّي غامق، تدخل فيه الملعقة، كما تدخل في دبس. أربع لحمات عداً صغيرة ولحمة طويلة. مدفونة كلها تحت الدبس كرؤوس مخلوقات سابتة تخرج من برك طينيّة لزجة.

قرّبت قطعة اللحم الأولى من حافة الصحن وانتشلتها بالشوكة. ذابت أو كادت مثل كومة سكر مبلل. أو حلوى تموع، على أصابع الشوكة. وضعتها على حافة كومة الرزّ الأولى تمهيداً لحملها مع جزء من الرز إلى فمي. أغمضت عيني وبلعت اللقمة الأولى.

الرائحة زنخة مقرفة، أين المتبلات؟ أين الملح؟ وضعتُ كميّة لا بأس بها من الملح، حتى أحسّ بطعم ما.

تظاهرت بالمضغ ـ مضغ الخبز خاصة ـ حتى أطيل المسافة بين

مكتبة الفكر الجديد

لقمة دبس الكاري وكرشة الرزّ البيضاء، وأخرى. شربت ماءً ببطء وكأني أشرب نغبة ويسكي. قلت لأتلهى باللحمة الطويلة، وأقطّعها إلى أربع قطع قتلاً للوقت. أمسكت بالسكين بيدي اليمنى حسب الأصول. وغمست الشوكة فغاصت أصابعها فيها ولم تمسك شيئاً. اللحمة ذائبة تماماً. أدرت الشوكة وجعلتها على هيئة ملعقة، باطنها إلى الأعلى. وبمساعدة السكينة استطعت أن أجعلها تستلقي في باطن الشوكة. ونقلتها قرب بقية الكومة الأولى من الرز. ما حدث بعد ذلك، شيء لا يصدّق. قلتُ ما هذا يا سيدتي؟

قالت: موز

ضبطت لعناتي وقلت: هل هذا مكتوب في كتاب «الطبخ الشرقي»؟

لمعت عيناها بزهو وغرور وقالت: وضعته حتى يطفئ حرارة التوابل.

ـ اذن أنت مبتكرة. يجب أن تسجلي براءة الاختراع باسمك.

ضحك الجميع، وأكبروا فيها المبادرة والمغامرة، وتقبلت اعتزازهم بها بإطراقة طفلة خجول.

لقد قتل هؤلاء القوم حاسة الذوق. بالاكلات الخفيفة، وخاصة الساندويش. مطاعم صغيرة تقتصر على بيع الساندويش البارد. خبز أبيض رقيق مقصوص بهندسية شطائر لحم نيّئة، أو شرائح سمك. يخرجونه من الثلاجة. وتأكله بلا تطعّم، كأنك تسدّ جوع معدتك بحشوات من القطن، خالية من أية رائحة. قتلوا حاسة الشم أيضاً.

يشربون الشاي بلا سكر ولا يذرّون فيه الهيل. معظم اورادهم وزهورهم خالية من الرائحة. حتى ورد الجوري كذلك، وما زكا

مكتبة الفكر الجديد

منه نادر وغير حاد. ثم انهم قتلوا حاسة اللمس باستعمال الملعقة والسكين والشوكة.

طيلة الأسبوع الماضي لم أسمع كلمة تدليل للطفل ستيف. لم يحتضنه أحد. لم يقرصه أحد بمحبة. كانوا يعلّمون هذا المخلوق الأصول، ويلقنونه الخطأ والصواب. عوّدوه على أن ينام وحده في غرفة خاصة، وفي الساعة السابعة مساءً. تقرأ له ديانا كل يوم قصة، وينام على صوتها دون احتجاج. إنهم يبرمجون الطفل ويعلّمونه الاعتماد على النفس وتحمّل المسؤولية.

ربما لهذا السبب تعوّدوا على احتضان الدمى القطنية وجني القطط والكلاب. عمّم الأطباء قبل سنين تعليمات إلى الممرضين والممرضات بلمس المرضى لأن ذلك يساعدهم في الشفاء. وذكرت بعض الصحف الجادة ان ثمانين بالمائة من مرضى القلب تخف متاعبهم أكثر، لو كانت لديهم كلاب. وسردوا قصة رجل كان يعاني من سكرات الموت، ورجا أن يرى كلبه قبل أن يموت، وحين لمسه دبّت بأوصاله الحياة من جديد.

على أية حال، كيف انعكس قتل الحواس الثلاث هذه في الشعر الانكليزي: في الرواية، في الرسم، في النحت؟ قررت أن أرصد ذلك في السنين المقبلة. قلت بنفسي لن تستطيع الحضارة الاوروبية مهما أوتيت من قوة وتقدّم، أن تقتلع مني حاسة اللمس. بعض سور القرآن العميقة التأثير مكتوبة بحاسة اللمس. معظم شعر أحمد شوقي مكتوب بحاسة اللمس. أرق الصور الشعرية الشكسبيرية مرسومة بحاسة اللمس. ستتعطل كتابتي لو فقدت حاسة للمس. بها أرى وأسمع وأشّم وأتذوق. إنها كل حواسي. لا تستطيع أن تعبّر عن الحنان إلا باللمس. ولا تعظم الحواس الأخرى

مكتبة الفكر الجديد

إلاّ إذا أصبحت لمساً. الموسيقى العظيمة تلمسك وتنتشر في جسدك. الرائحة الطيبة تلمسك وتخدرك فتغمض عينيك. ترى لوحة، تستطيل ألوانها، تجذبك وتجذبك إلى أن تلمسك فيصطبغ وجهك بها. تذوّق فاكهة ناضجة أو شفة عزيزة حبيبة، أو حلمة فضولية، لمس مسحور.

دُقَّ الباب بحياء. كنت على وشك نهاية قصة قصيرة لسومرست موم عنوانها «الشاعر». لغة سلسة خالية من الإدهاش أو المفاجأة أو التنميق. مع ذلك كانت معالجة «الوهم» فيها، معالجة مختبرية دقيقة ومتقنة. لماذا غاب الوهم في أدبنا؟ نكاد نعيش الوهم من الصباح إلى المساء، ولكننا ما استفدنا منه في آدابنا وفنوننا. نبالغ أشدَّ المبالغات في الشعر، ونحلم ونحن صاحون، إلاّ أننا لا نعالج الوهم كواقع ملموس.

- ادخل.

دخلت ديانا بأزهى ثوب. عيناها الزرقاوان شطّان صافيان وشعرها الأشقر المخصّل كمجسّات خزامى، نبّاضة مع أدنى حركة.

- هل يمكن أن ترافقني إلى السينما هذه الليلة. بودي أن ارى فيلم THE TIME MACHINE سيذهب هاري هذه الليلة لحضور لعبة كرة قدم.

وقف شعر رأسي، وأصبت بالقشعريرة والحمّى. ارتفعت يداي بحركات غير مترابطة تقويةً لما اندلق من فمي من غضب.

إنني انسان شريف ولا يمكن أن أخون صديقاً، قلتُ ذلك ولم أتوقف. قلتُ كذلك أنا عربي ونحن العرب معروفون بالشرف. لم أخن صديقاً مهما كان طيلة حياتي. ذُعِرتْ ديانا. ازدردتْ غصة.

مكتبة الفكر الجديد

قالت شكراً وهربتْ. قررت الخروج من البيت هذه الليلة. دُقَّ الباب ثانية بتصميم. ادخل.

دخل هاري . كنت قد أكملت حلاقة خدّي الأيسر. ضغطت على صوتي محاولاً كتمان سرّ ديانا عنه.

تعرّفت على هاري في أوّل يوم وصولهم قبل أسبوع. وفي نفس تلك الليلة ذهب لمشاهدة لعبة كرة قدم بين فريقه المفضل تشلسي وبين مانشستر يونايد. ذكرت عرضاً أنني أحبُّ «مانشستر يونايد». أُخذ على حين غرّة وسكت بلا تعليق. ظنَّ أن ضعفي في اللغة الانكليزية هو دليل دامغ على جهلي. لكن قبل ثلاثة أيام، حينما دعاني سيّد البيت على ساندويش وشاي. عرف أنني أُحب مانشستر يونايد حقاً، وأنني أتابع أخبار الفريق والمدرب والنادي. تخيّلت أن هذا خير باب لفتح الألفة بيننا ما دمنا نحب كرة القدم إلا أنه راح يقرأ في صحيفة. غمزتْ لي سيّدة البيت. لم أفهم المغزى. في اليوم التالي حدثني سيد البيت. كانت كلماته أشبه بالتعليمات. حذّرني من طرق موضوع في الرياضة، غير موضوع تشلسي. هاري يراهن عليه كل أسبوع. إذا خسر الفريق ينقلب إلى وحش كاسر وتتكدر حياته ليومين أو ثلاثة.

حينما كنّا حول المائدة نأكل الموز بالكاري، كان هاري قليل الكلام يتجنب النظر إليَّ.

ـ لماذا رفضت أن تأخذ زوجتي إلى السينما؟ سأذهب هذه الليلة لمشاهدة فريق تشلسي ضد ليفربول. قال تشلسي بتحدٍّ وثقة بأنه سيفوز، وأشعرني في نفس الوقت، أنني سأكون مسؤولاً لو خسر. خفت حقيقة وتقلصت.

ـ إنني إنسان شريف ولا يمكن أن أخون صديقاً. أنا عربي

مكتبة الفكر الجديد

ونحن العرب معروفون بالشرف. وأضفت: والوفاء للصديق. لم أهن صديقاً مهما كان طيلة حياتي.

جمّع فمّه وزمّه كمنقار معقوف، كأنما جمع آخر لعنة ونفض جملة: «لا تكن سخيفاً» نفضاً بوجهي وغادر بلا ودّ. حلقت الحدُّ الأيمن بيد مرتجفة. لماذا يريدون أن يختبروني؟

خرجت إلى الشارع مشدوهاً. بلحظة واحدة انقلبت إلى بدويّ يدافع عن شرفه وكأنه ثلم. أعدت المشاهد مرة ومرّة فتورّمت مما لحق بي من حيف. لماذا أرادوا أن يختبروني بهذه الطريقة السخيفة. هدأت أعصابي قليلاً حين أدركت أنني اجتزت الامتحان على ما يرام. مع ذلك مازلت أرتجف.

رجعت بعد أن تأكدت من الوقت. السابعة والنصف. هاري الآن في الخارج يتفرج على اللعبة. صعدتُ إلى الطابق الأول. دفعت الباب ودخلت. كان سيد البيت وزوجته وديانا يشربون الشاي. ردّوا على سلامي بهمهمة. وتركت ديانا الغرفة متحججة بغسل الصحون. كيف أبدأ. سعل سيد البيت طويلاً. كان أقربهم إليّ، وأقربهم إلى الموت. يريد أن يودع الحياة بوئام. عنّفني بتسامح. وسألني لماذا أهنت ديانا؟ لن تنسى لك ذلك. مرّة واحدة استرجعت كل حواسّي وتكلمت باطمئنان شديد. شرحت له، وكانت عينا سيدة البيت في الجريدة، وأذناها صوبي . البيئة التي جئت منها، كما تعلم لا يُسمح للنساء بالجلوس مع الرجال، فكيف لي أن آخذ ديانا إلى السينما؟ شيء غير معقول في أعرافنا، ولا يمكن لي أن أصدقه في بلدكم. لم أتوقف ولكن لم اذكر لهما المعلم خضر. تركت سيّدة البيت الجريدة، مبتسمة ابتسامة خفيفة راضية. صاح سيّد البيت: تعالي يا ديانا. إنه لا يعني شيئاً مجرد

مكتبة الفكر الجديد

سوء تفاهم. كانت ديانا تسمع لأني سمعتُ نشجة دامعة وراء الباب. بالفعل كانت عيناها دامعتين حينما دخلتُ. استقبلتها واقفاً بكلمة «متأسف» «متأسف للغاية». صدقيني. قالت That's all right then بانهيار وفرح. ورمتْ نفسها عليَّ وطوّقتني بشدة وراحت تكرر That's all right then عدة مرات وبكت، كأنها مذنبة نادمة.

ـ سأجلب لكِ شاياً اذن. هل تريد بعض البسكويت؟

ـ مع ذلك لا أعقل أنني استطيع أن آخذك إلى السينما.

ضحكت قليلاً.

ـ أنت لا تثق بنفسك. قالت سيدة البيت غامزة لامزة.

ماذا لو ذكرت لهم المعلم خضر؟

كنّا في الصف الرابع الابتدائي في المدرسة الغربية بالناصرية. معلمنا خضر شديد الحرص بحمق. عصيّ تعذيب الأكف معه من أوّل درس. ركن حزمتها إلى جانب. يختار نوع العصا من نوعية المخالفة.

كانت أعمارنا تتراوح بين العاشرة والحادية عشرة. لم نستحلم بعد، ولا ندري ما الذي يفعله الزوج بالزوجة في الفراش، ننام قبلهما. ولكن ما الذي نزل على رأس الاستاذ خضر فحدثنا ـ دون سابق انذار ـ عن طريقة جديدة اكتشفها لامتحان وفاء أصدقائه. قال الأستاذ خضر إذا أردت أن أختبر وفاء صديق جديد، أدعوه إلى البيت. وبعد فترة أقول له لابدَّ لي من الذهاب إلى السوق لساعة أو أكثر. ثم أطلب من زوجتي أن تبادله النظرات والإغراء. فإذا استجاب فإنه ليس بصديق، وإن رفض فهو عين الصديق.

مكتبة الفكر الجديد

عزيزي الأستاذ خضر نحن في الصف الرابع الابتدائي. ما من وظيفة لآلاتنا التناسلية إلاّ التبول على الحيطان وربما في الاسرّة. لا نخجل منها لأنها لا شيء. فلماذا حدثتنا بذلك الحديث السمج؟ لم يكن سمجاً في وقته لأننا لم نفقهه. فقط عندما كبرنا واسترجعناه عرفنا أنه سمج وانت كذلك، يا استاذ خضر، ماذا لو كان صديقك الجديد مغرياً، وماذا لو مالت إليه زوجتك فعلاً وهمّت به وهمَّ بها واتفقا على زنى، واتفقا على أن تقول لك إنه لم يستجب، فيخونك طيلة حياتك وانت سادر واثق؟

بالطبع لم أقل لسيد البيت وزوجته أيَّ شيء من هذا القبيل، حتى ولو دفاعاً عمّا ألحقته بديانا من إهانة. لله درّك يا سيد خضر بالكاد نجوت بالناصرية من عصاك التي تبللها ليكون ايذاؤها اكثر، لتلاحقني بها إلى لندن.

وأنتِ يا جدّتي رضية، أتدرين ما الذي فعلتهِ بي؟ حكايتك حكاية. ظننتك جدّتي فعلاً. لكنها مجرد عادة استحكمت فتصورتك جدّتي لأمي أو جدتي لأبي. عادة مستحكمة خلقتْ أصلاباً وارحاماً، نسمي المسنين جدتي أو جدّي، مجرد عادة.

كنت أراها في غرفة مظلمة تجلس وسط الفراش الممدد على الارض منتصبة لا تتحرك، تئن أنيناً لا ينمُّ عن ألم، بل عن كره وحسد وتطحّر، تركوها لشأنها، لأنها كثيرة الشكوى والمطالب. تشرب السجائر بلا انقطاع وأمامها فنجان النشوق تدحس في أنفها السعوط وتعطس. لكنها تجلس منتصبة لا تتحرك. وأكثر ما كان يخيفني منها عيناها، عيناها واسعتان حادتان ثابتتان كعيني بومة. لا تتحركان. تشعّان في الظلام. كانت كأنها تصغي بعينيها، عيناها لا تتحركان متركزتان في باب الغرفة المفتوحة، كلما

مكتبة الفكر الجديد

سمعت وقع قدم طلبت شيئاً، ماءً، سكائر، كبريتاً، قدحاً آخر من الماء، لا، أريد ماءً بارداً. اشعل لي السيجارة. ارم لي هذا العقب، نظف المنفضة، قلت اغسلها، هل الابريق في المراحيض، هل فيه ماء؟ اذهب وتأكد. أين امك؟ هل هي عند بيت فلان؟ اذهب وقلْ لها أريد أن اذهب إلى المراحيض؟ أين مسبحتي؟ من أخذ مسبحتي؟ افتح الشباك. لا تفتح الشباك. اغلق الشباك لا إلى النصف. الغرفة مظلمة وعيناها تشعان. عيناها ثابتتان كعيني بومة. سمعتهم يقولون انها لن تعيش طويلاً. كنتُ أخاف من النظر إلى غرفتها في الليل. وفي النهار ارتبك من جلستها المنتصبة. قبل أن أصل إلى باب غرفتها أقيس عرضه، أرجع إلى الوراء وأقفز المسافة فتلتقطني عيناها: ها ابني تعال. نظف المنفضة أولاً وارجعْ. ثم الماء. ثم الشباك. ثم السجائر، ثم أين امك، ثم الابريق والماء والمراحيض.

نظرت إلى البومة في غرفتي. العينان هما هما. حادتان واسعتان ثابتتان. مددتُ بتحدٍّ يدي، لمستها، مصنوعة من فخار صيني، ميتة، براقة، لا تتحرك حتى ولو فقستُ عينيها. نظرت إليها بتحد أكبر منتصراً على هواجسي اللامبرر لها، مجرد أضغاث وأوهام. زهوت بانتصاري الفذ. تصبب العرق في مجرى العمود الفقري، وبإرادة قوية هذه المرّة لففتها بالمنشفة وكأني أريد أن أقطع انفاسها المفخورة، كنت أتنفس بصعوبة.

كان ما يصلني من أجور عمّا أكتبه أو أسجله من أحاديث، جنيه من هنا، جنيهان أو ثلاثة من هناك. ولّد في نفسي قليلاً من الأمل الذي ولّد هو نفسه إحباطاً في عموم حياتي. كانت عيشة الكفاف كافية لي، ولكن ما مصير زوجتي وطفلتي؟ لو بقيت على هذه الحالة، لأصبح الفراق المؤقت، انفصالاً بحكم الواقع. الغريب

مكتبة الفكر الجديد

أن مع ولادة ذلك الأمل البصيص، أُصبت ربما لأوّل مرّة، بالحيرة. ابتدأت الاسئلة الوجودية تترى. ما معنى وجودي؟ ما تلك القوّة الخفيّة التي تشدّني للحياة؟ ما التاريخ ما الحضارة؟ لماذا اندثرت الحضارات؟ لماذا أطمع بالخلود سرّاً وأتظاهر بحبّ الموت؟ هل أتنصل عمّا كتبتُ، وأكفّ عن الكتابة في المستقبل؟ ما الدين؟ ما الأنبياء؟ ما الله؟

الانشغال المتواتر بتدبير شؤون اللقمة، أبعدني عن كلّ شيء سوى ملء المعدة. وحين لم أقدرْ اندفع إلى تعلّم اللغة الانكليزية، وإلى إشباع فضول ثقافي قديم. كان القلق سمتي، والخوف من الموت جوعاً علامتي الفارقة. أمّا حياتي، فأعيشها أياماً غير متواصلة. كل يوم عن أمسه غريب. حينما اقضي النهار وأنام ينتهي زمن، وحين أصحو يبدأ زمن جديد. إلاّ أنني في هذه الأيام، دخلت في مرحلة الحيرة، وشغلتني لحدّ القطيعة عن الأشياء، وكأنّ كل شيء باطل وقبض الريح، كل حديث باطل، كل حب باطل، حتى الأمل خديعة، والحياة برمّتها باطل الأباطيل. لم أكن متشائماً. أحبُّ أن أعيش بنعومة وملابسي مترفة وألوانها طازجة إلى أن يأتي الأجل. كنت أسعى إلى الموت بمحض إرادتي، أمّا الآن فليسعَ إليّ الموت.

الحيرة ملء رأسي. انظر إلى الماضي كمستشفى مهجورة، وإلى المستقبل كمستشفى في طور البناء. الحاضر فقط ما أملك وها انذا أعيشه بحيرة. قلتُ لا وجود للحاضر. نصفه ماضٍ ونصفه مستقبل. محطة لا يتوقف فيها أيٌّ منهما. أصبحتِ مثل ملاّح أنهكته الريح. قاوم وقاوم، ثم أنهكته الريح وسقطت كتفاه من التعب. استسلم لها وكان شاطئ النجاة غير بعيد. فاض وعاء

مكتبة الفكر الجديد

الرأس بالحيرة، واصبح أثقل مما يحتمل. أشكو من الصداع، آكل وأشرب بحكم العادة. ذهابي وغيابي بحكم العادة، لا يغريني أيُّ شيء على المشاركة.

حينما أصغي إلى بعض الأصدقاء، وهم متحمسون لحكم أو دين أو قومية، أو يتتايسون حول فكرة أو مفهوم، يزورني داء الحيرة، فأنفصل، وكأنني أصغي لهم من غيمة. رفعتني الحيرة عن دنيويات الأرض، وأصبت بغرور اسود عقيم. بصورة ما، بتُّ أشعر أنني أمتلك سرّ الحياة، وكل ما يعمله الآخرون خديعة للنفس. ذاك ديدنهم، وديدني عدم التبشير بأيّ شيء، ولم أكن أنانياً.

تعرّفت على مخرج إذاعيّ عراقي، في الإذاعة البريطانية. شخصية مختلفة كأنه لم يكن من طينتي. من أوّل لقاء غمرني بودّ عجيب، ورفع الكلفة بيننا من أوّل لحظة. لم يسألني مثلاً عن ديني أو مذهبي، أو انتمائي الحزبي، أو سبب مجيئي إلى لندن. لم يحاول أن يعرف ذلك بأسئلة مبطنة. لكنّه عرف انني قريب العهد في غربتي. تحدث عن سباقات الخيول. كان مقامراً. لكنّه لا يراهن عليها في فصل الشتاء، لأن في ذلك قسوة عليها. يطعّم حديثه بمصطلحات انكليزية عاميّة لا وجود لها في القواميس أحياناً. دعاني رأساً للمشاركة في برنامجه غداً، وقال الأفضل أن تكتب لك السكرتيرة رسالة لتعطيك التفاصيل. ذلك أفضل لك. كان يطبّق القانون بلا تباهٍ. إنسان عملي هو كذلك. معلوماته عملية لا علاقة لها بأيّ خيال. فيما تلا من لقاءات، لم أعِ سرَّ إعجابي به. ثمة سرٌّ فعلاً. بالتأكيد لم يكن بسبب حفظه لمعظم كلمات القاموس، ولا بسبب مرافقته لي إلى المصرف لفتح حساب، ولا بسبب ملء استمارة طلب توظيفي في الإذاعة، ولا بسبب توجيهي

مكتبة الفكر الجديد

في كيفية إدارة الحديث مع العرب الآخرين. ما ذمَّ أحداً قط. عرفت بمرور الايام أن معرفته بالقاموس لم تُعِنْه على تشكيل جمله بالإنكليزية بسلاسة. يعطيك وجهه انطباعاً ان فكره مشغول بصنع الجملة قبل نطقها. وفي جمله إدهاش أو إضحاك دائماً. لا ينقل من الأخبار إلاّ اغربها: ولدت طفلة بعين واحدة، أو ولد طفل بثلاثة أرجل. تتبطن لغته عند الحديث مع السكرتيرات بقرصات لا تخلو من إشارات جنسية. يضحكن بحياء. يضربنه على كتفه بألفة ويطلبن منه أن يكفَّ. ولا يكفّ. كان يتمتع بطفولة بإحراجهنَّ، ويعرفنه عفيفاً. سمعته مرّة يقول لثلاث سكرتيرات على مائدة الطعام وهو يضحك أن المسيح: NINNY فهمن القصد. ضحكن وطلبن منه أن يكف. ظلّ يكررها بين فترة وأخرى، وهن يضحكنَ. وبتورد خدودهنَّ ولمعان عيونهن يتشجع اكثر (تعني: NINNY السخيف، أو المغفل، أو الساذج ولكنه كان يعني بها المخنّث). كنتُ معجباً أشدَّ العجب بمثل هذه العلاقات البشرية البسيطة، ولكن أُعجبتُ أكثر لأنهن لم يزعلن أو يحتججن وقد وصف نبيّهن المسيح بالمأفون. كان مسيحياً. لكنَّ ذلك لم يكن سرَّ إعجابي به كذلك. في حديث عابر مع صديق جاء من بغداد حديثاً، ويعرفه، كشف لي شيئاً لم يكن يقصده. قال أهم ما في شخصيته أنه ديمقراطي بكل معنى الكلمة. نعرفه من بغداد بهذه الصفة. لا يردع رأياً ولا يسخّفه. يصغي كأنه يتعلم ويتكلم وكأنه في امتحان.

في أول اشتراك لي معه في برنامجه لحن باللغة العربية في عدّة جمل. سكتُّ ولم أقلْ له شيئاً. لكن اللحن ازداد. ورغم انني وطّنت نفسي تماماً على عدم التدخل بشؤون غيري مهما كانت الأسباب، إلاّ انني لم أصبر. عادة قديمة. قلت أنبهه من باب

مكتبة الفكر الجديد

العطف أولاً لأنه إنسان طيب أو من باب الحرص على سمعته. وحين امتدح لغتي العربية، تشجّعت، وذكّرته بغلطتين ويدي على قلبي. ضحك فعلاً. قال أنا محظوظ. أرسلك الله لي نجدة، وأعطاني النصّ الذي يقرأ منه لتشكيله. بعد البرنامج شكرني. في الطريق إلى مكتبه شكرني. في مكتبه وأنا أوقّع العقد شكرني.

وفي «الكانتين» شكرني أمام زملائه بحبّ حقيقي.

تعلّمت من هذا الإنسان، شيئاً لم اتعلمه من الكتب. بعض الكتب العربية مهتمة بإطالة اللسان وتحشو رأسك بالغرور. باختصار: الإصغاء لكل رأي مهما كان مخالفاً لقيمي أو معتقداتي، هو العنصر الجديد الذي أدخله هذا العراقي الانموذجي في حياتي الذي يبتعد عن المشاكل قبل التفكير بحلّها، وهو موقف انكليزي عملي. الابتعاد عن المشكلة لا حلّها. كان مصاباً بقرحة في المعدة. نصحه الطبيب أن يخلّص نفسه من كل هم من أيّ نوع. (المحيّر أن القرحة في المعدة والأمعاء هي الأكثر شيوعاً بين العراقيين. لا أدري هل هي بسبب الهمّ أم بسبب أغذية معينة أم بسبب طريقة طبخها). هكذا ببساطة، القرحة تعلمنا الأخلاق. الامراض تعلمنا الأخلاق الواقعية اكثر من الاديان والكتب.

اثناء عملي في الإذاعة، تعرّفت على الطيب صالح. كان أكبر مني سنّاً، وبسبب خبرته باللغة الانكليزية، وحسن إدارته للمحادثة مع الانكليز، بدا أكبر مني بكثير، فتحاشيته أدباً.

في الواقع لم يكن أدباً مائة بالمائة، ولكن كنت أخشى أن يفتضح لديه جهلي. كانت هذه عادتي كلما التقيت أناساً أكثر مني علماً ومعرفة، لاسيّما إذا كانوا أدباء.

علوم الطيّب صالح عافية، كعافية الغذاء، تنتشر في كل الجسد.

مكتبة الفكر الجديد

في حين تعودت بالعراق أن أراها معرضاً أو نياشين. نقرأ لدحر الآخرين أو الاستعلاء عليهم. الكتب التي نقرأها نياشين نعلّقها على ألسنتنا وحين نتحلق في جلسةٍ ترانا معارض ثقافية متنافسة متنابزة. الجلسة مع الطيب مهدئة للأعصاب. له أسلوب فريد في تشجيعك على مواصلة الحديث. كانت مقابلاته الاذاعية مع كبار الأدباء والفنانين من أجمل وألذّ المقابلات. حميميّة مطلقة، وانسياب عفويّ.

قرأتُ له مجموعة «الودّ حامد» و «موسم الهجرة إلى الشمال» قرباني إليه، وأبعداني عنه احتراماً. أسلوب نام ببطء، وكأنه معنيٌ بزراعة أشجار دائمة الخضرة. ونحن ـ الشباب في الأقل ـ كنّا معنيين بزراعة المحاصيل الموسمية، مسرعين ومتسرعين. نختصر المراحل. الحب ينضج بابتسامة أو بنظرة طويلة. الثورة قلعت كل شيء قبلها من الجذور. أكل الثورة يجب أن نراها مصفوفة على موائدنا في العشاء. الطيب صالح على العكس من ذلك صبور، لا يتهيج ولا يتحمس، ويترك الأشياء تأخذ دورتها الطبيعية في إكمال نضجها، كما يأخذ الجنين دورته في الرحم.

لم أسمعه مرّة يتحدث عن نفسه ليتميز عن غيره. يخالفك الرأي بألفاظ مسالمة، وابتسامة متواددة، فلا تشعر باستفزاز.

أعطاني مرّة مجلة أدبية خليجية. في الواقع أنا الذي طلبتها فضولاً.

قرأت فيها مقالاً طويلاً عنه لرجاء النقاش. بعد أيام سألته هل قرأ المقال. قال: لا. لكن قرأتُ العنوان. «دي ابن حلال».

ـ اذن أنت لا تقرأ ما يكتب عنك؟

كثيراً ما كنتُ أراه يحفظ المتنبي، في مكتبه. في الممر. في

مكتبة الفكر الجديد

المصعد. في المطعم. لم اكن ادري أن ثقافة الطيب صالح انكليزية منذ نشأته الأولى بالسودان.

تشبع بها طفلاً ويافعاً ومراهقاً، وهو كثيراً ما يروي قصائد انكليزية طويلة بكاملها عن ظهر قلب.

كنّا نزور المرحوم محمد محجوب ـ رئيس الوزراء الأسبق ـ في شقته المترفة في «نايتسبردج». يكون بين الضيوف عادة وزراء سابقون ووزراء حاليون في زيارة للندن. معارضون، حكوميون. ما أن تنتظم الحلقة، حتى يُخرج المرحوم محجوب ديوانه، ويبدأ بقراءة قصيدة منه. ثم يمرّر الديوان إلى أيِّ شخص إلى يمينه ليقرأ قصيدة منه. وهكذا من واحدٍ إلى واحد. لكن ـ ودائماً ـ ما أن يصل الدور إلى الطيب صالح، ينتهي محجوب وديوانه. تعوّد الطيب قبل أن يبدأ، أن يتلو أبياتاً للمتنبي. الطير على رؤوس الحاضرين. اوّل ما يفعله محجوب في هذه الحالة، هو إعادة ديوانه إلى الرفّ، ويسود جوّ هو الابتهال بعينه. يرتّلون ـ جميعاً ـ وبالتناوب شعر المتنبي ويشملون. تتحول الشقة إلى معبد مفعم بالتراتيل، تعرّفت من خلالها على إيقاعات مسحوره في شعر المتنبي، لم افطن لها من قبل.

ذكرت عرضاً أن الطيب صالح كان معنياً بزراعة أشجار دائمة الخضرة، وذكرت أنه يترك الأشياء تأخذ دورتها الطبيعيّة، في إكمال نضجها، كما يأخذ الجنين دورته في الرحم.

كان المفروض أن أتوسع قليلاً هنا، لأن ذلك من أكبر ما حاولت أن أتعلّمه من الطيّب صالح الذي يتعامل مع الشعر الشعبي بنفس الانفعال والإعجاب. يكتشف في أردأ الأشياء فضائل دفينة، وفي أردأ الكتابات جهداً إنسانياً لا يحسن إغفاله. سألني مرّة عن

مكتبة الفكر الجديد

كلمات هي أماكن بعينها في جنوب العراق. قرأها عليَّ ضمن أغنية عراقية، وسألني: ألا تذكرها؟ فلم أذكرها (في الواقع تذكرتها وخجلت من سذاجتها) فراح يغنيها بلهجة عراقية ريفيّة مسكينة، فأحببتها، وطلبت منه أن يغنيها ثانية.

قرأت في هذه الفترة بشغف «ألف ليلة وليلة» و«أبو زيد الهلالي» و«الزير سالم». وتشوّقت إلى قراءة النساء. ابتدأت بصناعة الجواري في العصر الجاهلي، وتعليمهنَّ الغناء والشعر وحسن المعاشرة احترافاً. تصورت النساء يطفن في المعابد عاريات كما في الحمامات. ابتدأت المشكلة بورقة التوت. القواميس العربية تسمّي آلتي الرجل والمرأة عورة. من هاتين الآلتين تولد الحياة ونسميهما عورة. يا للعجب! قرأت عن قصص الجواري في العصر العباسي. يسامرن ويغنين ويرقصن، ولنظراتهنَّ فعل السحر. النساء وحدهن يجعلن الحياة أكثر احتمالاً وأقلَّ مللاً. بسعادة النساء وحدهن تقاس سعادة الأمم، وفي البلدان التعيسة أوّل ما تتعس المرأة، وترضع طفلها بحزن، فيصاب بالبكاء والإسهال.

من أوّل مرتب، اشتريتُ مسجلاً. ومع الراديو والتلفزيون، كملت أجهزتي الثقافية. كنت أذهب كل اسبوعين إلى مكتبة حكومية متخصصة بالتسجيلات والاسطوانات في منطقة «لستر شكوير» لأستعير بعض الموسيقى الكلاسيكية والكلام المنطوق: شتى القصص القصيرة، شتى الروايات، شتّى المسرحيات، شتّى المقابلات. بات لديَّ الآن برنامج مقتّم بالساعات. أصبحت مبرمجاً بكل ما في الكلمة من معنى. لكن لم يكن لي أيّ هدف من وراء ذلك، ولم أرجُ أية غاية تبشيريَّة أو قيادية في يوم ما. ميزة لندن الأولى ـ كما يبدو ـ في مكتباتها المتخصصة وفي كل

مكتبة الفكر الجديد

موضوع علمي أو لغوي، أو فني، أو وثائقي. لندن ـ بالنسبة للباحثين الفضوليين ـ مكتبات لا تنقطع، أو قل هي مكتبة كبيرة، وما في ذلك إلاّ مبالغة مستساغة.

وصلت زوجتي وطفلتي فامتلأت الحياة. كنت أتحدث إلى نفسي بصوت عالٍ من الفرح، كلما تأكدت من عدم وجود شخص يسمعني. نسيت السعادة، وها أنني لا أعرف كيف أمارسها. أدندن. أغني. أقرأ الشعر بترتيل، وعند المشي يتحرك ذراعاي بنشوة. هذا هو ما نعنيه بشاطئ السلامة، استرخاء لذيذ يجرُّ إلى نعاس لذيذ. كنت أتلذذ بالنعاس لحظه لحظة، ثم يحتضنني النوم كأمّ.

بات فضولي الثقافي، مقنناً أكثر. كانت قراءاتي مثل تناول الحبوب الطبية، للشفاء فقط، أمّا الآن فأخذت صفة الفيتامينات للعافية. لكن إلى الآن لم أقترب من الشعر الانكليزي، ولا من شكسبير، الشعر كالخلقة التي تشكلُها البيئة. وهو العلامة الفارقة للأمّة. لكل أمّة خلقتها، اذن لكل أمة شعرها، لا يتطعمه حقيقة إلاّ أبناؤها. قلت أؤجل قراءة الشعر الانكليزي إلى أن أقرأ ما كُتِب عنه من نقد. أمّا شكسبير فاكتفيت بقراءة الترجمات العربية، وان حضرتُ أحد عروضه المسرحية، فللتباهي فقط، والعيّ غالبي.

التاريخ منذ الصف السادس الابتدائي يفزعني. أحفظه أسماء خلفاء وقواد، واستذكره حوادث، وقتلى، وطرقاً تجارية، وجيوشاً، وسبايا، ويختلط أوّله بآخره. قطعت صلتي به منذ البداية، وانشغلت بالمستقبل. تصوّرت البِرْكة ملوّثة فتعلقت بالسراب. كان عليَّ في الأطروحة أن أدرس التاريخ هضماً. وكان لابدَّ أن أكتب فصولاً عن الخلفية التاريخية والاقتصادية والسياسيّة للشاعر

مكتبة الفكر الجديد

الأحسائي البحريني علي بن المقرّب العيوني. المفروض أن أكتب عنه دراسة باللغة الإنكليزية مع تحقيق جزءٍ كبير من شعره. قلت لأهتبلها فرصة وأتعرف على المدن التي زارها، البصرة، وملكها باتكين، وبغداد وخليفتها الناصر لدين الله، والموصل وأميرها بدر الدين لؤلؤ. جرّني الفضول إلى الدولة الخوارزمية والمغول في شرق العراق، وإلى الدولة الأيوبية، ودولة الموحدين، وإلى الحروب الصليبيّة.

كانت الأطروحة، وأهم من ذلك، ما أثارته لديَّ من فضول محفّزاً لي لدراسة حقل مهم من حقول المعرفة أي التاريخ، الذي شدّني إلى النثر العربي أكثر فأكثر. (بدا لي أن معظم الشعر العربي مريض، وموسيقاه وَرَمُه. شعراؤه لا يستحون من مبالغة أو كذب، او افتخار زائف، أو هجاء عضاض لسّاع نهّاش، ومصدره المرّة وكره البشر).

ليس المهم ما كُتِبَ في الاطروحة، ولكن ما هزّته فيَّ من قناعات سابقة وما خلقته من انطباعات لاحقة كان هو الأهم. فالترجمة من العربية إلى الانكليزية، على سبيل المثال، وبالعكس، تهيّجان للمرء عملياً، تباينات العقليتين، المتناقضة في أكثر الأحايين. يمكن اختصار مثل هذه الفروق بعقلية سردية انتشارية، وعقلية تحليلية. نحن قوم مولعون بالصفات لدرجة تنيبها عن موصوفاتها، ومولعون أكثر بالمترادفات، لدرجة التخمة. أما الجملة الإنكليزية في الكتابة الأكاديمية، فقصيرة ومتدرجة، أي كلّ مرحلة تؤدي إلى مرحلة أخرى. استعمال صيغ الحال في اللغة الإنكليزية يوازي من حيث الكم استعمال الصفات في اللغة العربية. كانت ترجمة بعض النصوص العربية إلى الانكليزية شاقة، لا من حيث لغتي الانكليزية

مكتبة الفكر الجديد

التي لم يشتدّ عضدها بعد ولكن من حيث اختلاف أساليب المعالجة في اللغتين.

أهم من هذا وذاك، وجدتُ نفسي من جرّاء نشداني للتاريخ مقتنعاً بأنه علم وليس مجرد روايات، مما شككني بكل قناعاتي السابقة. كيف تتشكل الدول ولماذا؟ كيف تقوى؟ متى يبدأ انهيارها ولماذا؟ هل الدين أفيون حقاً وأنه أكبر كارثة جلبتها البشرية على نفسها؟ هل التاريخ يعيد نفسه؟ مَنْ يصنع التاريخ، الفرد أم الأمّة؟ ما دور الفنانين في المجتمع؟

لم أستطع الإجابة عن هذه الأسئلة عموماً، لكن رغم ذلك أصبحت تشغلني، أكثر فأكثر. لكن ما أعرفه أنني بدأت أشعر بضيق لا من السياسة ولكن من السياسيين ومن مساعيهم في تمويش (من الماشية)، الناس وتغديدهم (من الغد). السياسيون الفاشلون هم الذين يحدثون الناس عن الغد، أكثر ما يتحدثون عن الحاضر.

باختصار، لم تعد الشعارات الثورية، تلهب في دمي النار، وأصبحت فلسفة «التغيير من الجذور» تفزعني. امّا اللغة الإعلامية فباتت ممرضة، لأنها أشبه ما تكون بتكشيرة فكّيْ جمجمة. (سأتحدث عن عملي في الإذاعة البريطانية بتفصيل في مناسبة أخرى).

لا يمكن للحضارة أن تبدأ بين عشية وضحاها. انها كالبذور لابدَّ لها من نموّ بطيء. قد تُعجِّل في خلق مجتمع متعلم، ولكن من الصعوبة خلق مجتمع متحضر، في فترة زمنية محدودة.

على أية حال حينما أجيزت الاطروحة وجدتُ نفسي أمام خيبتين: مردّ الخيبة الأولى أنني كنتُ منصاعاً باللاوعي، إلى ما

مكتبة الفكر الجديد

تعارف عليه الناس بالعراق، من أنَّ الإنسان بشهادته. الخيبة الثانية، أنها خلقت أمامي فراغاً كبيراً، كيف أشغله؟ كنت خلال كتابتها مثل سجين، ولكن حين أُفرج عنه أصبح مسؤولاً عن نفسه. في الواقع كانت الأطروحة مهرباً عن كل ما يمسُّ الواقع، وخاصة واقعي. أنستني غربتي حيناً، وما كنت أعانيه من تشرد ذهني وعاطفي وجسدي. أنستني حتى إعادة النظر بما آمنت به سابقاً، من أنني غادرت العراق حتى أختار ميتتي بإرادة حرّة. هل كنت صادقاً فعلاً؟ أم أنني كنت أفتش عن حياة أفضل، فخدعت نفسي؟

كنت والأطروحة، كزميلي المصري في المكتب. لمدّة أربعة أشهر، وهو يتلو عليَّ مشكلته. يتحدث عنها بجزع ، ولا يريد نصيحة. التفاصيل ذاتها ـ بزيادة ونقصان ـ ولكنها هي هي. في الاسابيع الأخيرة كنت أنظر إليه ولا أصغي كالغائب عن الوعي، وحين أصحو لم يفتني شيء. في الواقع كنتُ أذكّره إن نسي شيئاً.

في أحد الايّام جاءنا والابتسامة تملأ أسنانه. وصلته برقية وحلّت المشكلة نهائياً. تفاءلتُ خيراً. ولكن ما كنت أدري أن هذه المشكلة التي بدت عويصة، كانت تخفي وراءها وتحتها مشاكل صغيرة لا تحصى. سلسلة من الشكاوى كل صباح. كصداع الشقيقة مثلاً يُنسي آلام المفاصل إلى حين، وآلام الصدر إلى حين. كذا كانت الاطروحة، تخفي وراءها كثيراً من الاسئلة كنت متردداً في مواجهتها، لاسيما وقد استقرَّ وضعي النفسي (بوجود العائلة) ووضعي المادّي (بوجود الوظيفة). ما هي مسؤولياتي الآن؟ لم أحاول الإجابة عن هذا السؤال، لأن ذلك يتطلب مني اما الرجوع إلى العراق، أو البقاء بلندن. لم تكن لديَّ أية قابلية للقطع

مكتبة الفكر الجديد

والحسم. لكني اكتفيت بما أقنعت نفسي به، من أنني ضحية بيئة أورثتني العصاب والرهاب وشتى الامراض النفسية، وها أنني اليوم بلندن أعيش دورة نقاهة مهما بلغت من سنين. لندن اكبر مستشفى وأكبر دار نقاهة.

تحققت لي بلندن رغبتان باطنيتان، لم أكن أعلم كنههما. كانت بمثابة إحساسين نفسيين دفينين، يفسران كثيراً من تصرفاتي التي تبدو متناقضة أحياناً، إلى درجة يجعلانني معها أتخذ مواقف متضاربة تجاه شيء واحد، وفي آن واحد. مع ذلك يظهر كل موقف صادقاً بحدّ ذاته.

الرغبة الأولى لم اكتشفها أنا بنفسي، وانما جاءت كاستنتاج من قبل الروائي والكاتب المصري شفيق مقار في مقابلة أجراها لي عام ١٩٧٩ (نشرت في جريدة العرب):

«الدكتور صلاح نيازي رجل دائماً يحذرك من عيوبه ويقول لك إنها عديدة، وانه فقط يتمنّى لو انك عجزت عن اكتشافها. وذلك دفاع جيّد من عدّة دفاعات يلجأ إليها المرء ليتخفّى، إن كانت تلك رغبة حقيقية. والرجل يقول إنه ـ منذ طفولته ـ توجّس خوفاً من الناس، ويؤكد أنه لا يذكر يوماً خرج فيه مع أمّه إلاّ وهو مختفٍ تحت عباءتها. لكنه نسي أن يقول تحت أية عباءة اختفى في تلك المرات التي خرج فيها بغير أمّه. ولا بأس فتحت سطح الولوع بالتخفي هذه شيطنة لا تخفى، وتحت الشيطنة فيما يُشعر المرء، في بعض اللحظات التي تُنزع فيها الدروع والدفاعات، حيرة موجعة، وألم فراق كاوٍ وبحث عن خباء عباءة الأم المفقودة».

الرغبة الأخرى التي تحققت لي بلندن جاءت من حيث لا

مكتبة الفكر الجديد

أدري. هل كانت صدفة خارجة عن المألوف، أم أنها مجرد حظّ شخصي؟ في واقع الأمر، لم اكتشف هذه الرغبة الدفينة إلاّ بعد سنوات طويلة بلندن.

قلتُ في صفحة سابقة، إنني أتخوّف من الريادة والقيادة، ولكن في الحقيقة تخوّفاتي أكثر مما تحصى. مع ذلك كانت خافية عنّي. لا شكّ أحبُّ ألاّ أُنسى، بكلمات أخرى ألاّ أُشطب وأُمحى، إذا قيست الأمور بما عانيت من سهر على الثقافة والتعلّم، وتكريس كل وقتي لهما. ربما لهذا السبب أتطيّر من كل تكتّل أو تحزّب من أي نوع، لأنه ـ من باب تحصيل الحاصل ـ يرفع ويخفض بتحيّز من يشاء دون النظر في القيم الفنية الأصيلة في النصّ. استقلالية من جانبي، بقدر ما كانت تجنباً.

لم تكنْ لي أية رغبة في النشر، وفي نفس الوقت تهالكتُ على النشر، لإثبات وجود فقط، ولم يخطر على بالي التفوّق على أحد، أو التصدّر بأي معنى. الكتابة لذّة فردية بالدرجة الأولى، في أعلى درجات أنانيّتها. لا أدري كيف أعبّر عن هذا الإحساس الغامض المتناقض؟ أحبُّ الشهرة، وفي نفس الوقت أخشى أن يومئ إليَّ الناس. ولكنّ هذا لا علاقة له، في الظاهر، بالرغبة الثانية التي تحققت لي بلندن.

تعلّم الثقافة، ليس كتعلم السباحة، يمكّنك من أن تسبح في كل ماء. الثقافة إصغاء وتواضع لا يمتلكهما إلاّ تلميذ حريص على مستقبله ومتى كانت الثقافة علاجاً، يكون الإصغاء والتواضع على أشدّهما نفعاً. عند ذاك تكون قراءة الوصفة الطبيّة ذات مغزى حاسم ومعها ينـزل محرار الاعتداد بالنفس إلى درجة صحيّة.

التلمذة، بمعنى الإصغاء والتواضع والمثابرة، هي بيت القصيد.

مكتبة الفكر الجديد

مدينة لندن ـ رغم مختبراتها العلمية ومكتباتها المتخصصة ـ تحمل كلّ صفات التلمذة من الإصغاء والتواضع والمثابرة. إنها تجبرك ـ دون أن تدري ـ على أن تكون تلميذاً، دائم التحصيل، قليل الاكتفاء.

في الواقع، لم أتعلّم من لندن التلمذة، فمنذ البداية كنت أتهيّب أن أكون «اسطة» أو أستاذاً، ربما خوفاً من ان أضلل أحداً، أو ربّما وجدتُ في التلمذة حالة فرديّة، ذات مسؤولية فردية، صوابها لا يعتبر دستوراً للآخرين، ولا خطأُها يجرُّ إلى كوارث.

واصلت روح التلمذة بشغف من تلك الساعة التي قررتُ فيها أن أدرس اللغة الانكليزية بجدّ مريض يواظب على أوقات الدواء. هكذا رجعت إلى طفولة ثانية، ولكن كيف لي أن أتعلّم بيئة جديدة، أدباً وموسيقى ورسماً ونحتاً ومسرحاً وفولكلوراً؟ سعيد مَنْ يموت وهو في قمّة تلمذته.

لكن يجب أن أعترف أن العلاج الذي أعطتني إياه لندن مجاناً هو أقراص منع الغرور. المعروف أن لندن مدينة متواضعة بكل ما في الكلمة من معنى. ربما لكثرة الجامعات فيها وقدمها منذ القرن الثاني عشر، ربما لكثرة المختبرات العلمية، ربما لكثرة المتخصصين في الموضوع الواحد، ربما بتأثير أدبيات شكسبير، أصبح الغرور صفة ذميمة. ليس من الغريب إذن أن يكون من بين معاني CONCIET في القاموس الانكليزي: الزهو، الخيال، الوهم، العناد.

للحقيقة، لم ألتقِ بأحد من الانكليز مَنْ حدّثني عن إنجازاته أو عن شؤونه الشخصية ويظهر فيها نوعاً فريداً. ولكن تحت الإلحاح والاستزادة، يمرُّ عليها سريعاً بجمل قصيرة وتشعر أنه محرج. أمّا إذا امتدحتَ أنت إنجازاته، فإنه سيقع بإحراج أكبر، لأنه لا يعرف

مكتبة الفكر الجديد

كيف يستقبل الاطراء، فيردد: طيبة منك، طيبة منك، وكأنه يتوسل إليك أن تتجاوز الموضوع.

كانت لي زميلة إنكليزية في المكتب كثيرة الاطلاع على الرواية العالمية، لا تقرأ إلاّ الرواية. كل ثلاثة أو أربعة أيام، وفي يدها رواية جديدة. لم تشعرني مرّة أنها تفوق غيرها في معرفة الرواية. لم تتحدث أصلاً عن هذا الموضوع. وما ذكرت يوماً أنها ستكتب رواية. سألتها مرّة عن سبب اهتمامها بالرواية، فاحمرّت حياءً وخجلاً، وكأني كنت أراقب اشياء شخصية في حياتها. قالت باقتضاب: مجرد هواية.

ـ ألا يخطر ببالك أن تكتبي رواية؟

ـ ليست لديَّ اللغة الكافية، كما أنني ضعيفة في تحليل الشخصيات.

كانت هذه الفتاة، أعمق من زميلاتها، وأكثرهنّ علماً وحناناً وأدباً. أحاطتني برعاية مَنْ عانى هو من غربة. رعاية مربية عوّضت عن اطفالها المفقودين، بأطفال غرباء.

كنتُ ألجأ إليها في معنى كلمة أو تفسير مصطلح، أو تحليل بيت شعري. قلت بنفسي هذه الفتاة الصامتة قاموس ناطق. كنت صادقاً في كلّ استفساراتي عما غمض عليَّ، إلاّ أنني جعلتها وسيلة لفتح حديث. يالله، كم حدثتها عن أسلافي القريبين، موصلاً إياهم بالسومريين، ولو كنت أعرف ما الاقوام الذين سكنوا العراق قبلهم، لما بخلت. حدثتها عن بابل، ففغرت فاها. نظرتْ إلى يديَّ حينما أخبرتها بأنني بيديّ هاتين لمستُ حجارة بابل. فازدادت وداعة. كنت أجعل هذه الدوزنات التاريخية تمهيداً للحديث عن نفسي، عن آلامي خاصة وما عانيت، وحين تترقرق

مكتبة الفكر الجديد

أهدابها، أردفها بمشاريعي بتلذذ، ومطامحي وكأنها واقعة لا محالة.

مرّة، وقد أشبعتها مشاريع ومطامح، قالت بخفوت من بين شفتيها الطريّتين:

"AS USUAL, SETTING THE THAMES ON FIRE"

لم أسمع بهذا القول، فابتسمت وكأنني فهمت ما الذي تعنيه، ثم حجبتْ وجهها بين صفحتيْ رواية ذات حجم كبير. قلتُ لابدَّ أنها غارقة فيما تقرأ.

لم أحاول أن أعرف ما قالت في الحال، ولا في اليوم الآخر ولا في السنة التالية، لأنها انتقلت، ولم يكن يعنيني من أمرها شيء، لأن غروري كان أكبر من أي عارض مرحلي.

عرفت، بعد حوالي سنتين، وأنا استرجع تلك الفتاة في ذاكرتي، أنها لدغتني لدغة مهذبة، كلدغة القطرة في العين.

هل كنتُ فعلاً، كما قالت الفتاة الانكليزية ساخرة، أجترح المعجزات وآتي بالمستحيل؟ لماذا كل هذا التشبّع بالذات؟ مَنْ المسؤول عن خرابي النفسي؟

حقاً لقد جئت من بيئةٍ، يكتب فيها أحد العازفين على غلاف اسطوانة بأنه «أعظم عازف عود منذ النبي داود». هل كان النبي داود يعزف العود؟ وما هي تسجيلاته للمقارنة؟ جئت من بيئة يقول فيها شاعر معاصر بأنه قرأ الشعر الفرنسي من بدايته إلى الآن. ويقول فيها مغنٍّ بأن كل المغنين يقلدونه ولم ينجحوا، وحين سئل عن الصفة التي يكرهها في شخصيته أجاب بكل ثقة: التواضع.

جئت من بيئة يقشعر فيها وجه شاعرها الأكبر إذا ما ذكر

مكتبة الفكر الجديد

بوشكين أو بودلير أو شكسبير، ولو عابراً، في مجلس يضمّه.

استمعت مرّة إلى اسرى عراقيين ينشدون في راديو طهران:

يـــا خـــمـــيني ســـيـــر ســـيـــر

احـنـــا (نـحـــن) ابـطـــال الـتـــحـــريـــر

قلت أسرى وأبطال! بالأمس تقاتلونهم، واليوم أسرى لا تذهبون إلى المراحيض إلاّ برخصة وها انكم الآن تنشدون «إحنا أبطال التحرير».

ليت توزع عينات من هذه الأهازيج على المختبرات النفسية لدراستها والتوقف عندها لأنها أصل كل داء في مجتمعنا . ليتها توضع على قرص زجاجي تحت المجهر ينظر إليها المختبريون ذوو الأردية البيضاء والكفوف النايلون بعين واحدة كما يفعلون عادة، ليتعرفوا على انواع الفيروسات في عّينة «إحنا ابطال التحرير» وكيف تشكلت عبر العصور . أدواؤنا بحاجة إلى مختبر إنساني لا إلى ندوات سياسية او مؤتمرات اقتصادية.

قد يغنى البلد، تسود فيه التعددية، وتبقى الأزمات الروحية كما هي. البخيل بالفطرة، يده غُلت إلى عنقه حتى وإن أمطرت سماؤه مناً وسلوى. كذلك العدواني بالفطرة، فإنك حتى وإن هذبته وأنسته وهديته، فإنه سيصنع لك هذه المرّة قيوداً ولكن من ذهب، ويفتخر بتميزه عن غيره من ذوي القيود الحديدية. في كل مجتمع، كما يبدو، صفة منحدرة خاصة به، لا تدخل للأسف في برامج الأحزاب السياسية الخمسية أو الدائمة. فهل وقف سياسي مرة وأعترف بأن من أولويات برنامجه القضاء على الكذب، أو القضاء على المبالغة، أو محاربة الطموح الأهوج المتهور؟ هل وقف سياسي يوماً وأعلنها حرباً شعواء ضد النفاق، وفي برنامجه الدعوة إلى

مكتبة الفكر الجديد

النظافة وتمجيد المنديل؟ أو ضد مصايد صيد العصافير وتحطيم أعشاشها؟!

في كل مجتمع صفة خاصة به منحدرة يرثها ويقوّيها المربون وتتضخم لدى السياسيين، لنقرأ أزمتنا في مناهجنا الدراسية. بالله، ما الذي تفيد منه الفتيات في المدارس المتوسطة من نصوص أدبية رسمية كـ «الخطبة البتراء» لزياد ابن أبيه، حينما اختاره معاوية على الكوفة؟ قال المؤلف: «فلما وصل زياد الى الكوفة صعد المنبر ولم يبدأ بحمد الله والثناء عليه كالعادة، وانما اندفع كالصاعقة يصب كلاماً كالحجارة على رؤوس الكوفيين».

ما هذا الكلام المزدهي بدائه أيها المربي؟ يصعد زياد المنبر، ولم يبدأ بحمد الله، ويندفع كالصاعقة يصب كلاماً كالحجارة! هل كنت شاهداً أيها المؤلف؟ أين أولو الأمر من هذه الأخاليط المؤذية؟ أعلى هذه السنة تنشئ الجيل الجديد؟ ما الذي قال زياد ابن أبيه: «وإني أقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد»

أين الرقيب الأخلاقي؟ هذه كلمات مفخخة إرهابية تُلقى بالقوة على الطالبات وعليها يتوقف مستقبلهن في الامتحانات المدرسية.

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الحجاج بن يوسف الثقفي وخطبته بالكوفة أيضاً:

«أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

متى اضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة، إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها.. وكأني أنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى»

مكتبة الفكر الجديد

أنفتخر حقاً بهذه الدموية المتوحشة، ونجعلها في صميم الدورة الدموية لأبنائنا؟ حتى لو أراد المؤلف أن يعلّمهم التشريح الطبي فإنه لم يعطهم إلا سكين المطبخ وما من تشريح أصلاً سوى مسلخة سادية.

على أية حال، لم تنبت: «إحنا أبطال التحرير» من لا أبوين.

المدينة التي انحدرتُ منها أشدُّ إحباطاً ومكفوفة اليدين. تبكي بصمت لأن حنجرتها بُحّت من البكاء لعصور. الثكنة العسكرية أكبر مبانيها، وشعارها «انصر أخاك ظالماً أم مظلوماً». تتورط مع جندي سيئ النظرات شبقاً، فيلتمُّ عليك الجنود بغلظة حيوانات متوحشة. يُعاقب الجندي الذي لا يأتي إلى نصرة أخيه ظالماً أم مظلوماً.

جئت من بيئة يقول فيها الشاعر:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً

تخرُّ له الجبابر ساجدينا

ثمَّ يحثّك المتنبي على ألاّ تقنع «بما دون النجوم»، حتى لو كنتَ تفتش عن لقمة كالحيوانات السائبة في المزابل.

جئت من بيئة ينشد فيها صبيان المدارس صباحاً:

لاحت رؤوس الحراب

تلمع بين الروابي

هيّا بنا هيّا هـ

وهذه ألـ «هـ» تنخسك. تقول لك يا أنت وباحتقار، كأنك مجرد كتلة بلا هويّة.

مكتبة الفكر الجديد

من بيئة تقول فيها المرأة بحنان مؤذٍ:

خـذونـي لـلـوغـى مـعـكـم خـذونـي

مـضـمـدة لجرحـاكـم حـنـونـا

أدبيات متخصصة بالكذب، ومفهرسة بالغرور. نعرضهما كالسلع في واجهات الشاشات والصحف. أين دواء «بكرين» و«صدامين» اللذين طبل لهما الإعلام العراقي؟ ابشرْ بطول سلامة يا مرض السرطان.

مرّة، قرأت ما قاله أحد الشعراء «الكبار» عن ثقافته. شعرت ببؤس. قال بزهو لمحرر إحدى الصحف إنه كان يقرأ كل يوم رواية أجنبية مترجمة، ولمدة ست سنوات. ما الذي حدث لهذا البلد يا ربّ؟ هل وصل داء العظمة إلى مخّ العظام؟ يقرأ رواية كل يوم؟ كيف بمعنى أنه قرأ (٢١٦٠) رواية على مدى ستّ سنوات. لكن هل تُرجمت في العشرينات من القرن الماضي أكثر من مائة رواية؟ لماذا لم يردّه أحد؟

قد يجد السياسيون أسباباً مقنعة لتدهور العراق. قد يحصر الاقتصاديون تلك الأسباب بالاقتصاد. أو علماء الاجتماع بالروح العشائرية والإثنية، وقد يعزوها رجال الدين إلى ضلال الناس وابتعادهم عن كلمة الحق، وهكذا. بيد أنني ـ وعلى مسؤوليتي ـ أقول إن سبب خراب العراق ـ أفراداً ومجموعات ـ هو الغرور. الغرور أكبر داء بالعراق، خطره أكبر خطر، ومنذ القدم. بيات أكثر خطراً إذا ترافق مع الطموح. البيئة العراقية بما اكتسبته من ادبيات سابقة، منبت للغرور والطموح، وهما على أشدّهما استعلاءً واستفزازاً وعدوانية، يجعلان الإنسان متفرداً لا ينتمي إلاّ إلى نفسه واوهامها المتورمة. يهددك المغرور بأحلامه ويستصغرك بما سيفعل

مكتبة الفكر الجديد

من معجزات في المستقبل. الغرور يحوّل الإنسان تدريجياً، إلى دكتاتور، ساحق مدمّر. يجعل التنافس غَيْرة مسمومة، والغبطة حسداً ونميمة.

ليتَ هناك مادة قانونية في الدستور تحرّم الغرور كالزنى والرشوة، على اعتبار أنه اعتداء على كرامة الآخرين.

ليتَ هناك لجنة متخصصة من كبار القضاة لمراقبة الغرور، اعتباراً من «الأنا» لدى الشعراء المرضى، إلى صور الرئيس، أيّاً كان. محاكمات لا تنقطع إلى أن ينقطع دابر الغرور. عندها سنعيش في بلد متحابّ، في بلد متواشج، وفي بلدٍ مبتسم.

ليت التواضع يكون مادّة تدريسيّة أساسيّة، ليت عبارات مثل «لا أدري» و «الله أعلم» و «وقد أكون مخطئاً» تُعمم وتنشر بين الناس كالأغاني الشعبية. ليت يُنصب تمثال لـ «ربّما» في كلّ ساحة عامة. ليت في كل اتحاد ادباء أو معهد، أو حزب أو تكتل دوراً للنقاهة والابلال من مرض الغرور.

ليت لنا حزباً يبدأ من عيادة نفسية صغيرة وبشعار واحد: «مكافحة الغرور» على غرار حزب «الخضر» بأوروبا الذي رفع شعاراً واحداً في البداية: إنقاذ البيئة من التلوث.

كانت لدغة زميلتي الانكليزية حادّة كسكين مسنونة لا تحسُّ بجرحها فوراً ولا ينزف معها دمك فوراً. ولكن بعد حين يبدأ الألم والنزف.

منذ أن تبينتُ معنى ذلك التعبير الانكليزي، استجدّتْ لديَّ عادة أرهقتني وسبّبت لي عزلة نفسية من نوع خاص.

كنت كلما التقيت بزملائي، أتعقب ما يقولون بدقة، تحليلاً ومقارنة. امتدّت هذه العادة، إلى ما كنتُ أقرأ نثراً أم شعراً.

مكتبة الفكر الجديد

لماذا نتحدث عن أنفسنا بهذا الافراط لدرجة الإسفاف؟ أحزاننا اكبر من كل الاحزان، وأفراحنا ممتلئة بالانانية. وفي بعض الأحيان يكون فرحنا تشفياً، بالآخرين. تقرأ قصيدة مثلاً فترى الشاعر موكلاً بالتجسس على نفسه، فيسرد لك ما حدث له بتفصيل ممل. لا تدور الأرض إلاّ من أجله. الليل والنهار من أجله. إذا أحبَّ فحبيبته أجمل امرأة. صوتها أنعم صوت. فمها أجمل وردة، عيناها نجمتان، ونهداها ألذّ ثمرتين. إذا كان ما يحبُّ سمراء، فلتكن عانسة كل شقراء. وإذا كانت شقراء فما أجمل خيوط الشمس، وما أتعس الليل والسمراوات البائرات! أشعار ممتلئة بالتنابز. أشعار ممتلئة بالاستمناء، بلا اغتسال.

أستمعُ إلى محدثي بشوق. سلام ثمَّ يفتح أمامي كل دكاكين معجزاته. كل الحديث هو وما سيفعل. يدور على نفسه. يُلبس نفسه نياشين معرفية وثقافية من شتى الألوان. إذا قرأ كتاباً، فما من أحد غيره قرأه. وإذا قرأه غيره فلم يفهمه كما فهمه. إذا قرأ نبأً، يأتيك كالحمام الزاجل. ما لا يعرفه لا أهمية له، وما يعرفه دواء لم يكتشف بعد. وفي كلّ هذا، إنما كان محدثي يمهّد إلى النصيحة، بعد أن يتأكد من بؤسك الكامل، وإحباطك المخزي المذلّ. لماذا نحن مولعون بالنصيحة؟ هل لأننا لا نثق بقابلية الآخرين على التفكير؟ تصغي إلى ناصحك على مضض. أصبح أعلى منك، فأشبع غروره.

لا يتمُّ حديثنا ولا يطيب إلاّ بالتشنيع بالغائبين واحداً واحداً، فكراً وعرضاً، خلقاً وحزباً وعشيرة، أصلاً وفصلاً إلى سابع ظهر؟ لماذا نتلذذ بمعرفة شجرة كل شخص، بنات وبنين وأسلافاً، وما من شجرة أخرى في أحاديثنا إلا شجرة العائلة؟ هكذا تنكمش الحياة

مكتبة الفكر الجديد

يوماً بعد يوم، لأننا قاصرون عن تقمص المخلوقات والموجودات، لا نحلّق مع غيمة ولا نجري مع نهر. لا نطير مع جنح، ولا نسكن عشّاً، ولا ندخل جذراً. لا نستبطن هيكلاً عظمياً رميماً، ولا نعبد رحماً رحيماً.

قلتُ لن أتحدث عن نفسي من الآن فصاعداً. عفواً سأحاول.

قال لي أستاذي المشرف على أطروحتي بثقة طبيب وكأنه يعالجني من مرض: إنك تكثر من ألـ «أنا» وهذا لا يجوز في الأطروحات الأكاديمية، ولم يُكملْ قراءة الفصل. كانت تلك الوصفة الطبيّة ناجعة فعلاً، أولاً لأن الـ «أنا» قُرِنت بمرض، وثانياً لأن الاطروحة لن تقبل بوجود هذه العاهة.

كان العلاج صعباً وتطلّب سنوات، ومازلتُ أشكو من عقابيله. أكثر من ذلك ابتدأتُ مرحلة وضع ما أقرأ في اللغة العربية على ضوء هذا المحك الجديد. أتابع الـ «أنا» وأتصوّرها مرضاً معدياً. أرى أمراضاً ولا أرى أطباء، أرى مرضى ولا أرى مستشفيات. العدوى مستشرية وما من تطعيم. شعرت بغربة نفسيّة هذه المرّة لا تقلّ قسوة عن غربة الحواس حينما جئت إلى لندن لأوّل مرّة. غربة الحواس طبيعيّة، تتأقلم بمرور الزمن، وهي لا تخلو من نفع، أمّا غربتك عن لغتك فتؤدي إلى التشاؤم. لم أتشاءم بقدر ما حزنت، لأنني لم أفكر يوماً كما يفكر مصلح أو قائد أو رائد، لإنقاذ أمّة.

انكببتُ على برنامج مقتسم بالساعات لإغناء تلمذتي. كان عزائي التعلّم ولا أدري لماذا. ورغم أنني كتبت عدّة دواوين على مدى سنوات، إلاّ أن الكتابة ـ وحتى الآن ـ لم تكن في يوم ما، شغلي الشاغل. لم تكن ضمن برنامجي التعلّمي أصلاً. على حين غرة، وجدتُ اللغة العربية ثوباً شتوياً في صيف ساخن، وثوباً صيفياً

مكتبة الفكر الجديد

لا يصدُّ برداً. ندمتُ على ما حفظته من أشعار تمجّد اختصار الحياة بالسيف والثأر. ازدادت هذه الغربة أضعافاً بالانتكاسات العربية المؤثّقة بالصور على شاشات التلفزيون وبلغة العرب الإعلامية الباذخة الكذب. قال لي روائي عراقي: لم أعدْ أصدِّق أي شيء أقرأه باللغة العربية حتى لو كان صدقاً. يبدو أن التغرّبَ عن اللغة بات بين المغتربين، شبه حقيقة. كيف يهرب الإنسان عن نفسه إذن؟ كيف يخرج من جلده وتاريخه؟

لكن لابدَّ من انتماء مهما كان وهماً خادعاً؟ دجلة والفرات كالبطيْن والأذيْن في الفؤاد. النخيل في الصدر. الأغاني إيقاع القلب ونبضه. السماء سحنتي، ومن تراب العراق صُنِعتُ. لا تلذُّ للأذن إلا سماعه، ولا تلذُّ للعين إلا مشاهده ولو في بطاقة. أنا منه وهو منّي. لا انفصام. تقمصني الوطن حتى أصبحتُ خريطة مصغرة له. وها أنا اليوم وطن بلا وطن، وجغرافية بلا جذور.

ما قلته أعلاه، لا أكثر من كلمات عاطفية، قيلت بصدق ولكنها منقوعة بالميوعة للأسف. صحيح أنني انشددت إلى التلفزيون والراديو والجريدة. كل نبأ بفزع. أجيب على الهاتف بهلع، وافتح الرسائل بسوء طالع. العراق وحروبه. الراديو وانتصاراته. الحكومة لا تموت. الأرض تتقطع. البيوت تتقطع. الأسلاك تتقطع، والجسور مبقورة في الوسط، لا يضاء ظلام العراق إلا بالصواريخ. ولا تمطر غيوم العراق إلاّ راجمات وطائرات. الجنود ورسائلهم وما تبقّى من مرتباتهم يُدفنون أحياء في مخابئهم. صراخ مدفون، أنفاس مدفونة، وداعات أخيرة مدفونة. أفواه مدفونة، وعيون أطبق عليها الظلام والتراب كلية كالقار الأسود. لا فرح في الغربة إلا بفرح العراق وما من فرح. لا انتصار في الغربة إلا بانتصار

مكتبة الفكر الجديد

العراق، وما في العراق إلاّ اندحارات. هل انتمي إلى انتصاراته الموهومة، أم إلى اندحاراته المأساوية؟ أين العراق؟ سماؤه مغلقة، وحدوده موصدة. وأمام كل بيت مخبر دنيء، وجلف. أدخل إلى السجن مع كل سجين، وأدمع مع كل امرأة يموت وليدها بين يديها. أجوع مع كل جائع لم يتعوّد على التسوّل، وأكفر مع كل فتاة تترزق من جسدها لأوّل مرة. اقف مع طوابير النساء الحوامل على قرصة خبز أو حبّة دواء. أرى نساءً يشربن من ماء البرك الراكدة بلا غلي. بطون الأطفال منفوخة بالمرض، ووجوههم الصفراء تقطّع النياط. العراق يُحرّم فيه البكاء على الأموات، وأمام كل بيت مخبر دنيء وجلف.

هل العراق عراقان: جلاد وضحية؟

هل الوطن في الغربة الطويلة وطنان: خيالي وواقعي؟ هل الوطن هواء وماء وتراب أم أنه خريطة موشومة في الذاكرة؟ هل الوطن باب مفتوح أم باب مغلق؟ هل الوطن مخبر أم أديب؟ هل نَبَت الجلاوزة والأبالسة من لا شيء بالعراق؟ يا فلاسفة العالم هل نبتوا من لا شيء؟

الحرب طاحنة ساحقة ماحقة ضروس. الإعلام لغة خبيثة خائفة. لغة الإعلام ملوّثة. اللغة الإعلامية أكبر ما تعاني منه الكرة الأرضية من تلوّث. الإعلام العراقي منتصر بقدر ضحاياه، والإعلام الغربي يجرّعك السم بالشوكولاته والدواء والحلوى. اللغة الإعلامية أكبر ما تعاني منه الكرة الأرضية من كوارث. أكبر من كل كارثة حتى ولو نزلت ببلدٍ بكامله، ومن كلّ وباء حتى وان التهم مدناً ومعابد ومواشي. أين أجد «فسحة الأمل» يا طغرائي؟

قلتُ متابعة نشرات الأخبار، كالسير في حقل ألغام. النجاة مرّة

مكتبة الفكر الجديد

ليست نجاة ١٠٠٪ . لابدَّ من مخرج.

تعوّدت منذ سنين طويلة، كما قلت سابقاً، كلما ألمّت بي ملمّة ألجأ إلى حيلة، ربما عادت عليَّ بفائدة من حيث لا أدري. كنت ألجأ إلى قاموس «تاج العروس» وأقرأ صفحات لا على التعيين. قراءة شاقة كما تبدو لأوّل وهلة. وهي كذلك، لأن لا وجود فيها لترابط الكلمات، وبالتالي لا ترابط في المعاني. وهذا بالضبط ما أردته من وراء القراءة الشاقة، لنسيان همومي الصاكّة.

لكن حروب العراق هذه المرّة، على شاشات التلفزيون بالألوان. الدم موثّق بحمرة قانية على التراب. الاطراف المقطوعة موثّقة بنمالها، الرؤوس المفلوعة موثّقة بكسر جماجمها. الأفواه مكسورة بالطول والعرض. وراديو بغداد في عرس من الانتصارات.

أضفت إلى قاموس «تاج العروس» قاموس اكسفورد فلم ينفع. قلت لأجرّب هذه المرّة الترجمة، ابتدأت بمكبث وهاملت. شدّتني قيم شكسبير وتعمقاته في السلوك البشري. ثم انتقلتُ إلى ترجمة يوليسيس لجويس. رواية شاقة بلا رحمة. أنانية لأنها تتملكك، ولا فكاك من أسرها. وجدتُ فيها كما يجد الجندي الأسير منجاة من نوع ما، حين يقع أسيراً.

لأعترفْ انني لستُ مترجماً. لم أحلمْ في يوم ما أن اكون مترجماً. ما قمتُ به لحدّ الآن كان اضطراراً. لأعترفْ أكثر انني لستُ موهوباً بهذا الفنّ الصعب. ليستْ لي قابلية على تقمّص روح الكاتب الأصلي بلغته الامّ، لأعيدها حيّة في لغتي الامّ. كنت مثل بنيلوب تحوك من الصباح إلى المساء، وفي الليل تحلّ خيوط ما حاكت. مجرد حيلة للنجاة. كذلك كانت الترجمة بالنسبة لي حيلة للنجاة. هل نجوتُ؟

مكتبة الفكر الجديد

ماتت والدتي بالسرطان والترمّل الطويل.

مات أخي الكبير بتشمع الكبد. يشرب الخمرة من اوّل تمغط في الفراش. قال لي على الهاتف ما من فائدة. قررت أن أموت. إرادة عجيبة لم أصدّقها. ظننته عاجزاً يستدرّ العطف كالعادة. كانت أخبار ابنه في الحرب قاتلة لأي توازن: ابنك مفقود، ابنك أسير، ابنك: البقاء في حياتك. البقاء في حياتك، ابنك أسير، ابنك مفقود. تشبّع دماغه بالفقدان والأسر والموت. ثلاث مطارق فتحت ثلاث ثغرات في دماغه. قررتُ أن أموت. تشمّع الكبد. مات فعلاً بإرادته. شعرت وأنا أفقد والدتي وأخي، أن آخر جذرين لي بالعراق كسرا. أصبحتُ كطائرة ورقية انقطع خيطها. تتقلب على غير هدى، وبلا إرادة، وأنا بغير إرادة وعلى غير هدى أقلّب صفحات الكتب والوجوه بلا فضول. حتى مشيتي تغيّرتْ. أمشي ببطء، ولا أتفرّس في المارّة. لا أتلهّف لشيء. كمنْ جفّت كبده من العطش وظلّت خطواته بطيئة، لأنه عرف أن النهر جفّ، فلم العجلة؟

إذا وقعت السكينة على الرقبة، فهل يقلق الخروف: كيف يُطبخ أو مَنْ سيأكله؟

هل أنتمي إلى انتصارات العراق الموهومة، أم إلى اندحاراته المأساوية؟ أين العراق؟ في الذاكرة، أم في خريطة أطلس؟ مدنها نقاط بلا شوارع، وأنهارها خطوط متعرّجة بلا جريان ولا نوارس؟ هل العراق بطاقة بريديّة، أم تراب وماء وشجر وبشر؟

بين عشية وضحاها، بتُّ مثل مقامر ساذج. تزينت في نفسه الارباح. وحين خسر كل شيء تنمّل ولم يغادر المكان. راح يراقب بقيّة اللّعب إلى آخر الشوط للا سبب، وبندم جارح. كذا أراقب المقامرين إلى آخر الشوط، وقد خسرت كل شيء. ثم ماذا بعد

مكتبة الفكر الجديد

ذلك؟ هل أنني أعيش لأنني أخاف من الموت؟ نحن العراقيين لا نحبُّ الحياة، ولكننا نخاف من الموت فنعيش على مضض.

يضيق الوطن إذا أصبحت الحياة فيه مقامرة على إنسانيتك، وكينونتك. ما من ربح في هذه الحالة، والهرب من الحدود هو ربحك الوحيد.

لغاتي تتكاثر في داخلي بصمت. أدخل إلى السجن مع كل سجين، وأدمع مع كل امرأة يموت وليدها بين يديها، أجوع مع كل جائع لم يتعود على التسوّل، واكفر مع كل فتاة تترزّق من جسدها لأوّل مرّة. أقف مع طوابير النساء الحوامل على قرصة أو حبّة دواء. لغاتي تتكاثر في داخلي بصمت، وأنا أضمر. أضمر واشحب، وثيابي مهدلة. أزراي مهملة. صرت سجني وأنا طليق بلا تاريخ. اللغة الإعلامية طاحنة ساحقة ماحقة ضروس. وباء يأتيك في كل الاتصالات السلكية واللاسلكية والفضائيات، تتنفسه وأنت تعرف نتن تلوّثه. الهواء موبوء من أقصى القطب إلى أقصى القطب، وينتشر بأسرع من دوران الشمس والقمر والأرض. والإعلام العراقي متسيّف وغبي. لغته أميبيا، تمتصُّ روحك كقرادة. اللغة الإعلامية قرادة بالكامل، تشفط وتمتص وتبقى قرادة، حتى لو جاءت على شكل شكولاته أو حلوى.

مرَّ على بالي ما قاله صديقي الروائي العراقي: لم أعدْ أصدِّق أي شيء أقرأه باللغة العربية حتى لو كان صدقاً.

في الواقع فزعتُ من كلِّ الكلمات التي لا تأتي بالعلاج الفوري للعراق. فزعتُ من كلِّ الكلمات التي ليست لها قوة السحر، نأخذه أقراصاً في الليل، ونستيقظ في الصباح ونحن فاقدو الذاكرة. كأن الماضي لم يكنْ. كيف حدث ما حدث؟ لا يمكن

مكتبة الفكر الجديد

أن يحدث. أين كان ملايين البشر حينما حدث؟ أين الجامعات والاساتذة والسياسيون والفقراء والجنود؟ مَنْ يصدِّق ما حدث؟ هل سيُكتب في التاريخ وتقرأه الأجيال القادمة في الكتب المدرسية؟ أيتها الأجيال القادمة العنونا صباح مساء. نستحقّ الرجم والاحتقار. نحن مقطوعو الصلة بالماضي والمستقبل. نحن جيل طارئ راضخ، خلقنا من نطفة لا بشرية، ومن علقة وحوش كاسرة، مَنْ لم ينتحرْ أو يفخخ نفسه، فهو خائن للحياة.

اللغة الإعلامية المعارضة، هي الذراع الأخرى للكماشة. تبدأ بالعراق فتصوّره سجناً كبيراً وقواويش رطبة مظلمة، ولا تنتهي بأدق تفاصيل قلع العيون والاظافر والاغتصاب الجماعي وكسر الأذرع والأعمدة الفقرية. ما من سماء ونجوم وعشاق في العراق. ما من نهرين وضفاف وقمر. ما من ثمر وهديل وفسائل. اللغة الإعلامية المعارضة قاتلة بصدقها. يا رب اجعل صدقها مجرد إشاعات. مَنْ يصدِّق ما حدث؟

ليتني ألمّ نفسي وأرحل. أين أُولّي من السماء والأرض، يا معرّي؟ في مكان قصيّ لا يعرفه أحد. آخذ قرصاً في الليل وأستيقظ في الصباح وأنا فاقد الذاكرة. ليتني أنسى كل لغة، ولغتي الصمت. قُتِل الصمت بالعراق. نتخاطب عادة بالكلمات، ولا يمكن لنا أن نتفاهم إلاّ بالصمت. الصمت مملكة الإنسان السريّة الداخلية، وهو أكبر المناجم. وبالعراق قُتل الصمت. ألدُّ اعداء السياسيين، الصمت، لأنه مملكة الإنسان السريّة الداخلية. ينزعونه منك بالتعذيب. بقلع العين والظفر والاغتصاب.

فلنبشِّرْ بالصمت، ونرجم أنفسنا. نرجم أنفسنا ونبشِّر بالصمت، وليكن ندمنا جارحاً حدَّ النزف. جارحاً حدَّ النزف.

مكتبة الفكر الجديد

لنبشّر بالصمت ونجعله أغلى طقس ديني. حصة للصمت في اليوم في المناهج الدراسية. الغناء ترتيل الصمت. الموسيقى أوتار الصمت، الرسم قوس قزح الصمت. الشعر عصارة الصمت. الفن أصلاً لا يكون أصيلاً وخالداً ما لم ينبت في الصمت أوّلاً. وفي العراق قُتِل الصمت، والكلمة التي لا ترضع من الصمت لا تكون شجرة طيبة. والشعر بلا صمت نظم ودندنة وضوضاء. في أحد الايام بالناصرية، مُنِع التجول بسبب إحصاء النفوس. كان نهاراً فريداً في حياتي. رأيت الصمت من النافذة يسور المدينة. لأوّل مرّة رأيت المدينة بجلال مهيب لم أره من قبل. سمعت الصمت كما لم أسمع شيئاً مثله. الشوارع تمتدُّ وتنعطف، وعند كل عكسةٍ تتلاقى، تتزاور وكأن بعد فراق طويل. الأشجار تتحدث برقة فيما بينها وتضوع. هديل الطيور نواقيس في معابد. المدينة معابد مدّت اعناقها إلى السماء بخشوع. بالصمت أصبحت المدينة طازجة ولها اجنحة الشقراق.

لنحتفلْ بالصمت، وفي الروزنامة نرسمه بأجمل وحي. تبارك الصمت.

بعد ثلاثة أسابيع من الحمّى والسعال، عدتُ إلى ما كتبتُ عن الصمت أعلاه. رأيتُ فيه شططاً، ورأيت فيه ميوعة. شطبت على الفور عشرات الجمل. نقلته مجدداً، مزّقت المسوّدة ورميتها في سلّة المهملات وندمت. لماذا فعلتُ ذلك؟ هل لأحسّن صورتي لدى الآخرين؟ هل كلّ ما كتبته في هذه السيرة خديعة وتضليل؟ رحماك يا ربّ.

مضت عدّة أشهر وأنا أتفادى اللغة: صحيفةً ومذياعاً وشاشةً وأصدقاء. مَنْ كان يدري أن اللغة التي صرفتُ من أجلها كلّ

مكتبة الفكر الجديد

لهثتُ فزعاً. «صارت عيوني بالطول» دهشة. ما من أثرٍ لسومر. تكلّم نوح لغتها. ابتدع قومها الكتابة. صنعوا الآلهة والبيرة وجعلوا للمعابد والزنى الحلال طقوساً وأقانيم. اكتشفوا علم الفلك وقسموا الحياة إلى سنين والسنين إلى أشهر... إلى يومنا هذا. رأيتُ الكتابة السومرية مذ كنت صغيراً بعيني هاتين. لمستُ الألواح والرقم بيديَّ هاتين. سرتُ بين جدرانها، وخفت من ظلام سراديب قبورها. امبراطورية امتلكت الأرض وليس لها أثر في قاموس تاج العروس. مازالت بعض كلماتها شائعة بيننا بالناصرية وأين أور؟

أور

أور

(والأُور، بالضمّ: صقع من أصقاع رامَهُرْمُز ذو قرى وبساتين). أهذا كل شيء يا سيّد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي؟ أين رامَهُرْمُز هذه؟ أعرف يا سيدي كم تعبتَ في جمع قاموسك، لكن هل تدري اننا نشمّها، نشم أور كلما كانت الريح شمالية؟ حين نتعب من اللعب نستريح تحت جدرانها؟ سفرات مدرسية على مدار السنة. ملء أفواهنا الأناشيد، وفي حقائبنا رائحة الخبز والمخللات، وما ألذَّ البيض في السفر! كيف انسحب نهر الفرات عن أور أميالاً؟ هل ماتت عطشاً؟ أم قُتِلتْ أولاً وفزع الماء وهرب؟ صمد أسد أريدو بكامله، فانتُثِل من تحت التراب. يقف الآن إلى الجانب الأيسر من سراي الحكومة بالناصرية، وملء وجهه حيرة؟ ما الذي حدث؟ لا يمكن أن يحدث ما حدث.

كان تمثال أسد أريدو أوّل تمثال أراه في حياتي.

أصبحتْ حياتي نهباً لأفكار متضاربة، أحب الشيء وأنقضه، ما

مكتبة الفكر الجديد

تمتعت بصحبة إلا وكان الندم عاقبتي. كان الشاعر الانكليزي تنيسون يتلذذ بما يحب اليوم ويكرهه في الغد، لكن موقفه المتناقض هذا لا ينم إلا عن ترف فكري، ووفرة ما لديه من خيارات. كان ينتقل من فكرة إلى فكرة كما تنتقل فراشة في جنينة، وانا لا اتنقل إلا من كرسي إلى كرسي في عيادة من شدة الملل؟ هل فقدتُ قابلية الحسم والجزم كفريق يتخبط ولا يعرف السباحة. لأكن مريضي وطبيبي، ورأسي وعيادتي، هجرتي الى داخلي، ولأتعرف علي، أولاً، وعلى جذوري الخفيّة.

زارني صديق كان قادماً من بغداد، بمنتهى الفطنة والألمعية. له قدرة عجيبة على الضحك على نفسه وإن بدا، حضارياً ، لم يخلُ من هستيرية، وهو الى ذلك متعتع كأثاث جديد لم تُشد مفاصله بإحكام. من أول قصيدة قرأها عليّ، أدركتُ ان ملكته الشعرية أعلى مني. أخرج من جيبه الأيمن قصيدة في مدح رأس الحكم بالعراق. استغربتُ من قوة القصيدة وصلافتها بالقياس إلى ما سرده عليّ من متاعب على يد ذلك الرأس. لم أحرجه. قال اسمع: وضحك تلك الضحكة الهستيرية إيّاها: أخرج من جيبه الأيسر قصيدة أخرى، أظن كان عنوانها «بشرى» وهي من اجمل ما سمعتُ من خلابة وذرابة في الشعر المشحون بالرفث والهجاء لنفس رأس الحكم بالعراق.

ضحك ثانية ضحكته الهستيرية وتوقف، ثم قال: هذا هو الوضع: صنع منا قروداً، وإلاّ كيف نعيش؟! رشّ على وجهي غيمة دخان أسود .

قصيدة «بشرى» صوتية على لسان مذيع يبشر مستمعيه بأن رأس الحكم سيأتي الى الإذاعة ويعلن للشعب عن بشرى. يتابع

مكتبة الفكر الجديد

المذيع بصوت فرح متشنج موكب رأس الحكم من القصر الجمهوري، من شارع إلى شارع ومن منعطف إلى منعطف، وهو يكرر بشرى، أعظم بشرى، نزف لكم أعظم بشرى، إطلاق نار، بشرى، أعظم بشرى، لقد اغتيل رأس الحكم، بشرى، هذه أعظم بشرى، هلّلوا وكبّروا، بشرى.

خرابنا في داخلنا وهذه أتعس طامة، أصبحنا كالخشب المأروض. لأكنْ مريضي وطبيبي، رأسي عيادتي. لأتعرف عليّ، أولاً، وعلى جذوري الخفية.

اندفعت وكأنْ بقوة غيبيّة إلى دراسة تاريخ السومريين، ولم تكن متيسرة بين يديَّ إلا المصادر باللغة الانكليزية. في الواقع هناك عشرات الكتب والمجلات المتخصصة باللغة العربية، ولكني فضّلتُ المصادر الأجنبية حتى يسهل عليَّ التباهي أمام الأجانب. كيف أتخلّص من هذا الحسب والنسب، والتنابز بالأصل والفصل؟ كذلك ما قلته قبل أسطر من أنني (اندفعتُ وكأنْ بقوّة غيبيّة إلى دراسة السومريين) لا يخلو من صبيانية ومبالغة. لا أدري لماذا استعمل كلمات لا أعنيها. نبّهني المعلم في درس الإنشاء مرات عديدة على هذه العادة.أمرني مرة: لا تكتب أشياء لا تعنيها؟ ما الذي قصدتُه بالقوة الغيبيّة، لا أدري.

المسألة ببساطة، أنني فكرت بجدية، أن مشاكل العراق لا يمكن أن تفهم ما لم يفهم ماضيه. لابدَّ من وجود صلة أو صلات. ربما أن العراق: شطر صحراء، وشطر نهر، إذن لابدَّ لي من دراسة أدب الرمال، وأدب الماء والطين المفخور. لكني شعرت من قبل بغربة في الصحراء. لا حيواناتها ما أَلِفتُ، ولا نباتاتها ـ إن وُجِدت ـ ما عرفت. صليل سيوفها أحمق الأصوات، وفخرها مخزٍ.

مكتبة الفكر الجديد

مرّة أخرى أجد نفسي أهرف وأهذي. لم تكن المسألة بتلك البساطة، ولم يكن همي إيجاد الصلة أو الصلات بين ماضي العراق وحاضره. لستُ مصلحاً، ولا رائداً ولا قائداً. ما جرّني إلى قراءة السومريين، لا علاقة له بأحد غيري. كنت أتشبث بالحياة بعنف على عكس ما أتظاهر به. وخشية انهياري أمام الأنباء المفزعة الهابة من العراق، أردت أن أشغل نفسي عنها. أُصيب كثير من أصدقائي بالانهيار العصبي، وضغط الدم وتصلّب الشرايين والسكتات القلبية. ذبلت وجوههم ونشفت من جراء تلك الأنباء. نصف مليون قتيل. مليون قتيل. مليون ونصف قتيل. ثلاثة ملايين يعبرون الحدود. عمارات مكسورة الأرجل باركة على الأرض وشبابيكها مسخمة بلا زجاج. شوارع بكاملها تتسول. أردت أن أحمي نفسي من الانهيار، فاختبأت بجبن وأنانية بين عاديات سومر ورقمه وألواحه. وحتى أضفي على نزعتي الجديدة مبرّراً منطقياً، رحتُ أتساءل ماذا يعني أن تبني حضارة وتندثر؟ امبراطورية وتندثر؟ أن تصوغ لغة يتحدث بها مئات مئات الآلاف من الناس وتندثر؟

كنت طيلة حياتي، كغصن مطعّم في شجرة غريبة. هل يمكن لذلك الغصن أن يعود إلى جذوره السومرية الأصلية؟ ما الفائدة ؟ في الواقع لم اكنْ أفتش عن جذوري الأصلية بقدر ما كنت أملأ فراغاً.

حقاً، كنتُ أشعر بغربة حتى في أكثر الاجواء حميمية. مَنْ يصدِّق أنني كنتُ غريباً حتى عن والدي وإخوتي. أتلذذ بعاطفة أمّي وأشعر بغربة، أتمتع بصحبة اصدقائي واشعر بغربة، أحبُّ الناصرية واشعر بغربة، وببغداد كانت الغربة جارحة.

مكتبة الفكر الجديد

أردت أن أعرف سبب هذه الغربة الغامضة، فلم أفلح. كلما فكّرت بها ازدادت غموضاً. لماذا حزني منذ الصغر أكبر من كل بيت، وأطول من كل شارع؟

ثمة شيء مفقود في حياتي، لا أعرف كنهه. أكتب قصيدة بانفعال ساخن أو بانفعال بارد، وثمة شيء مفقود فيها. مثل ظامئ يروي غليله بقدح ماء. ينتعش في حينها، وبعد ساعات يعطش كأن لم يشرب ماءً في حياته. هكذا كنت أكتب الشعر أنتشي ثم أشعر بشيء مفقود. هل كنتُ أفتش عن حلّ دائم؟ عن جرعة ماء تصبح نهراً دائماً في صدري؟ أقرأ دستويفسكي ويتورم جسدي من الألم، وثمة شيء مفقود. أقرأ لوركا على ضوء ظلامه الأخضر، وثمة شيء مفقود. اقرأ المتنبي وأعلّم على تعابيره المحكمة بالسيف، وثمة شيء مفقود. أقرأ شكسبير، وأسوح في النفس البشرية، وثمة شيء مفقود. صعدت مع دانتي في فردوسه وجحيمه، وثمة شيء مفقود.

هل لا بدَّ للغصن المطعم في شجرة غريبة من عودة إلى جذوره الاصلية؟

«على هونك» قلتُ لنفسي. لماذا كلُّ هذا الركض واللهاث وراء شيء قد لا يكون حقيقياً؟ ربما هذه هي الحياة، وليس ثمة شيء مفقود، إلاّ أننا نحن الادباء نحاول أن نضفي عليها أشياء غير موجودة، فنخترع آراء وهمية نصبح أسرى لها طيلة حياتنا. تمرّ على الإنسان سنين ومراحل، وكلّما ابتعدت، حنَّ إليها.وكلما كان المستقبل غير آمن، ازداد حنينه إلى السنين الأولى، من الرحم إلى الإرضاع إلى الحضن. تصبح السنين الأولى ملجأ وفردوساً مفقوداً في آن واحد. لكنَّ الام تشيخ، يعقم رحمها، وينشف نهدها،

مكتبة الفكر الجديد

ويتكرمش. عندئذٍ لا تعود ملجأ أو مفزعاً. مع ذلك يبقى الرجوع إلى السنين الأولى، الحلم المستحيل. نغمض عيوننا، فنراه. نفتح عيوننا فلا نرى سوى بقية جدران وزقّورة مثلّمة ورُقُم وألواح. يصيبنا الاطمئنان بأننا عثرنا على الشيء المفقود. سعادة وهمية لا تعدلها سعادة.

لكن ماذا لو حلّت ساعة النشور وقام السومريون بكامل هياكلهم ولحمهم ولحاهم وقلائد نسائهم، ألا نختلف معهم الآن؟ ألا نتنابز ونتقاتل. يبدو أن الإنسان مدفوع بالغريزة على العثور على الشيء المفقود، على اللقاء. وما همَّ بعد ذلك كيف سيكون الوداع. مع ذلك نقرأ في كلّ آجرة سومرية سحراً، حتى لو كانت في الأصل في جدار سجن. ونسمع في كل بلاطة حمّام نسائي كركرات وغزلاً مكشوفاً عميق الإثارة. بعثات لا تنقطع، ينظفون الحجارة بفرشاة رقيقة. سعادة وهمية لا تعدلها سعادة. ولأننا لا يمكن أن نضفي على مخلوقات الحاضر، وموجوداته، تخيلاتنا، نلجأ إلى الماضي، فنلبسه أجمل زينة سعادة وما ضرَّ إن كانت وهمية.

حينما زرت بغداد، بعد غياب حوالي عشرين عاماً، شعرت وكأنْ قام السومريون. انحنيت، أخذت حفنة تراب في المطار، شممتها وقبلتها. وعند عودتي إلى لندن حملت حفنات من تراب ورششتها في أرجاء حديقة البيت. ما الذي دفعني إلى ذلك؟ ملأت رِئتيَّ عن آخرهما بهواء بغداد، فشملتْ كل حجيرة في جسدي، ثملت حقاً. كل حجيرة استعادت تاريخها بحيوية. هل كنتُ أتنفس هواء غريباً بلندن؟ هل كنتُ أشرب ماءً غريباً بلندن؟ ما مرّة تصوّرت نهر التيمز ينبع من عروقي ويصبُّ في عروقي،

مكتبة الفكر الجديد

كما كان الفرات ودجلة. لم أرَ يوماً أمواج التيمز نهوداً وصبايا، ولا الضفاف موّالات ريفية، تعكس رؤوس النخيل المعمّمة بالدين الأخضر. الشجر بلندن لا ينمو في صدري كشجر الخابور. أتعرّف على أشجار لندن، كما أتعرّف على رفاق سفر في قطار. صداقات مؤقتة مهما كانت عزيزة.

أحببت في طفولتي فحولة الفرات، وحين انتقلتُ إلى بغداد، أحببت أنوثة دجلة. تصوّرت الفرات أباً كاداً يحمل الغرين والخصب ويحث على العمل والحيوية. ويغضب كما يغضب أب مُتعب يتصبب عرقاً. الغريب كنت اسبح في ماء الفرات مرتين وثلاثاً في اليوم الواحد اثناء الصيف. لا أذكر انني سبحتُ في دجلة مرّة واحدة. ولكن حينما أكتب، اول ما يخطر على بالي دجلة وأعني به الفرات، واذا ذكرت بغداد، اعني بها الناصرية.

كان الأصيل بمدينة الناصرية أكبر مشهدٍ للحنان. تتوهج الشمس بحمرة واسعة، ومن بين سعف النخيل تمدُّ أياديها بوداع أنيس، بوداع ناعم، ساحبة ستارتها الحمراء عن سماء لاغطة بالنجوم.

رجع الزمن دهوراً وكأنَّ شيئاً لم يكن. ها هي سومر تستيقظ أمام عيني، بكل أناسها وبيوتها ومعابدها، وأسواقها مزدحمة. افترقنا دهوراً، وها نحن نلتقي وكأنَّ شيئاً لم يكنْ. أتعرّف على وجوه المارّة كما أتعرّف على مخطوطات، والشوارع متاحف بشرية حيّة. قررتُ أن أقطع شارع الرشيد من باب المعظّم إلى الباب الشرقي. سأجلس في مقهى الزهاوي وحسن عجمي والبيروتي.

مررتُ بمقهى الزهاوي، واجتزتُ مقهى حسن عجمي ولم

مكتبة الفكر الجديد

أتوقف. هرِم شارع الرشيد، وما في هرمه وقار. مجرّح بلا تضميد. فقد الحكمة التي كثيراً ما ترتبط بالشوارع العريقة. رائحته داكنة وأعمدته متثلمة. يدوسه المارّة بلا اكتراث، وتشقّقه الجرّافات بلا تضميد. نسيت أن ألتفت إلى مقهى البيروتي. ما حدث؟

المدن العظيمة تولد كلّ يوم. تتجدد كلَّ يوم، فننظر إليها بشغف. المدن العظيمة تثير الفضول. المدن التعيسة تولد لمرةٍ واحدة، ثم تكرر نفسها مئات السنين. شوارع ممددة باسترخاء. كابية. لا تبلغ الشوارع سعادتها، إلاّ إذا باتت كالجسور على الأنهار، حيث السماء تتغير باستمرار، وحيث الأمواج تتغير باستمرار، وحيث البشر يمرّون بأمزجة ويعودن بأمزجة. التغيّر ولادة جديدة للحواس. والشوارع لا تسعد إلاّ بواجهات المخازن على جانبيها، ولا تسعد واجهات المخازن إلاّ بعروض سلعها الجديدة، ولا تسعد السلع إلاّ بما تثيره من فضول لدى المارّة. وشارع الرشيد كامد. رائحته داكنة. فقد حكمته وكرامته.

الصائغ الخبير يقيس الماسة بثقلها النوعي وحجمها، والشاعر يقيسها بأشعتها أولاً وببهجة صدور النساء. كذلك شارع الرشيد لا يقاس بكيلومتراته القليلة، وحجم مخازنه. حتى المطاعم الراقية لا تُقاس بمأكولاتها فقط، ولكن بما تثيره من شهية وبهجة. شارع الرشيد ماسة أضاءت التاريخ. تفرعت كشجرة وفروعها في كل كتاب تاريخي، وفي كل مدرسة على الأرض. يكبر مع مرور الأيام في الكتب والمدارس. رأيته يشيخ بآلاف التجاعيد، ويكمد ورائحته داكنة. آلاف العيون بنفس الاستطلاع الذي تركته قبل حوالي عشرين عاماً، وما من ابتسامة على الوجوه. نحن العراقيين لا نعرف كيف نبتسم ولو كنّا أسعد الناس بالمال والبنين

مكتبة الفكر الجديد

والمستقبل. نضحك ضحكاً هستيرياً من قعر البطون ولكننا لا نبتسم.

دخلتُ مطعم «تاجران». كان فمي يتحلّب كلما ذكرته بلندن. ليته بقي حلماً. لذّة اللقمة مع الفقر لا تستعاد. عرق الوجوه يتصبب على الصحون. لم يعد لضوضائه معنى الترحيب اللاغط. الزبائن يأكلون بشهية ولكن بلا بهجة. غصصت بالضوضاء والمرايا الصدئة.

فاجأني في وسط الساحة تمثال الرصافي، بلغديه المنتفخيْن. لا أدري لماذا حزنت من أجله. استدرت إلى سوق السراي حيث الكتب القديمة النادرة. في منتصف الطريق شعرت بذنب، لماذا نسيت أن أصافح الرصافي؟ يا لتعسي! التفتُّ إلى الرصافي. ملأني حزناً وعتاباً. رجعت إليه وتأملته بإمعان. كان حائراً. يقف وقفة من ضلَّ الطريق. تدور حوله السيارات كدواليب الأعياد. أتدري يا سيدي معروف أنت «يتيم في العيد» كذلك:

على كثر قرع الطبل تلقاه واجماً
كأنْ لم يكنْ للطبل ثمّة مقرعُ
كأنَّ هدير الطبل يقرع سمعه
فلم يلف رجعاً للجواب فيرجعُ
يردُ ابتسام الواقفين بحسرةٍ
تكاد له أحشاؤه تتقطع
ويرسل من عينيه نظرة مجهشٍ
وما هو بالباكي ولا العين تدمعُ

كنتُ مثلك في طفولتي. أنا ذلك اليتيم في العيد يا سيدي

مكتبة الفكر الجديد

معروف. وها أنا أمامك بلحمي وعظمي وانت بملابسك البرونزية. خبّرني عنك كيف حالك؟ أعطني عنوانك سأكتب لك حين أرجع إلى لندن. أتعبك الوقوف، وأنهكني الترحال والغربة. غريب عليَّ أنت الآن. كنت أقرأ شعرك أمام الطلاّب بتلوّع يتيم في العيد. لكنْ حتى شعرك أصبح غريباً عليَّ الآن. عاطفتك أصدق من فنّك، وموضوعك أجلُّ من أسلوبك.

ما الذي حدث؟ هل جَعَلتني الغربة شبحاً أجوس في الأطلال؟

كفلاّح صينيّ وازنتُ العصا والسلّتين على ظهري. سومر بكفة وبغداد بكفة وعدت إلى لندن. رششت التراب الذي حملته من العراق على طول حديقتي. لماذا فعلت ذلك؟ لا أدري.

إذا كان ثمة معنى لتعبير «خالي الوفاض»، فإني عدتُ من بغداد خالي الوفاض تماماً مثلما غادرتها لأوّل مرّة قبل عشرين عاماً، مخذولاً ومكسوراً. رأيتُ نشور سومر أمام عينيَّ. عاد البشر إلى الحياة بكامل أجسامهم. عادت البيوت بكامل غرفها. عادت المعابد بكامل تراتيلها، وعادت الحقول بكامل أزياء الغلة. هدلت الطيور. رأيت نشور سومر أمام عينيَّ. على قارعة الطرقات أطفال يتسولون، وفتيات يعرضن نهودهنَّ بثمن صبغ حذاء. سجون بحيطان عالية، ونوافذها بحجم رقبة ذليلة.

منذ مئات السنين، لم يتغيّر شيء في سومر. نفس الوجوه المتأزمة، نفس الأحاديث الشاتمة والعنجهية، نفس الغرور المزهوّ بذاته، وفي الإحباط هم قصيرو الرقاب يلوذون كحيوانات منهورة ووجوههم كامدة كخيم محترقة.

لغتنا واحدة، وكم كان التفاهم بيننا عسيراً. رحتُ اكرر تلك الجملة الرهيبة في سيناريو فيلم «هورشيما حبيبتي»: «لم ترَني شيئاً،

مكتبة الفكر الجديد

لم ترني شيئاً». ما من أحدٍ رأى ما رأيتُ. غصصتُ باللغة، وللكلمات ألم عظام سمكة في اللهاة.

هل كان فراقي موتاً مؤقتاً، فبُعثت شبحاً في أطلال سومر؟

رجعتُ إلى لندن شبحاً، ورأسي ممتلئ بالضباب. الضباب ملء رأسي لأشهر أو لسنين. مازال رأسي ممتلئاً بالضباب. كيف حدث ما حدث؟ لا يمكن أن تصدّقه حتى سحليّة.

نُفِخ في الصور وقامت سومر بلا أدنى خدش. اللبلاب على أسوار بيوتها ورائحة الجوري فاغمة. كما كانت عادتُ، كما كانت تماماً. القمر يسكب حليبه على كلّ النهر، كما كان تماماً. لا تدري أماءً تشرب أم حليباً؟ وبين الحين والحين يمرقُ سرب سمك سعيد. كما كان تماماً؟

تصورت ستبدأ سومر حياة جديدة. ما كنت أدري أن أمواتها الذين بُعثوا سيواصلون عداواتهم السابقة، على نفس الوتيرة قبل الموت.

تصوّرت أن تراب القبور الثقيل، وتراكم النمل لأكل العيون والأفواه، تصوّرت أن الوحشة في باطن الأرض، ستجعل سومر حكيمة متواضعة متحابّة. وسومر، ستقطع صلتها بماضيها وتحرّم العداوات السابقة. سومر لم تتعظ. عسكريّها متكبر ومستعد للإطاحة بالبلد. سياسيّها بنفس مصلحته الشخصية، متديّنها يهيّئ للكهنة الزنى المقدّس. ديّوثها يراقب نمو الفتيات بأبواب المدارس. مراييها يعوّض ما فاته في سنوات الموت. المدينة تتمزق من جديد.

رجعت إلى لندن مندحراً مكسوراً ومخذولاً. رأسي ممتلئ بالضباب. أجوس الشوارع ورأسي ممتلئ بالضباب، وفي قلبي وجيف مرعب.

مكتبة الفكر الجديد

كيف بُعثت شبحاً؟ له كل الأشكال ولا شكل له. أخذ الحزن سمة الحذر ينتشر في كلّ أجزاء الجسد. بكاء صامت في كلّ أجزاء الجسد. عدتُ إلى القراءة بعد انقطاع أشهر، لا لغايةٍ ما، مثل عانس تعتني بجسدها وما من أملٍ في الزواج. مجرد عادة. لكنْ فتَرتُ عن ملاحقة الجديد لجِدّته فقط. اعتقدتُ أن الجدة كأحواض السباحة الحديثة مهمة، ولكن الاصالة كالأنهار تاريخ عريق يجري بين المدن والحقول والبساتين. كالأنهار صور زيتيّة تتجدد بمشاهدها ولا تكرر نفسها. عدت للانهار.

عدتُ لما قرأت في السابق، ابتداءً من الشعر الجاهلي وامرئ القيس، إلى أحمد شوقي. توقفت بارتجاف أمام دستويفسكي وشكسبير وجيمس جويس. كأنها جديدة كلّ الجِدّة. اكتشفت فيها ميادين كنت غافلاً عنها.

القراءة مراحل. في كلّ مرحلة يعطيك الكتاب ـ نفس الكتاب ـ أشياء مختلفة. لابدَّ أن تكون القراءة بطيئة سطراً سطراً، كالأكل تماماً. لقمة بعد لقمة. وأعظم طرق القراءة، ما تكون بمثابة ترجمة. القراءة العظيمة ترجمة عظيمة.

في هذه المرحلة بالذات، لم أعدْ أفتش في القراءة عن علاج ولا حتى عن جمال. انشغلت هذه المرّة بالتقنية. ما الذي يجعل نصّاً ما عظيماً، ونصّاً آخر مرحلياً مهما علت جودته؟ لماذا تختلف التقنية من كاتب إلى كاتب؟ ومن بلدٍ إلى بلدٍ؟ هل الاختلاف معيار للجودة والرداءة؟ هل التقنية عفوية؟ لماذا أنفعل بنفس الدرجة تقريباً بقصيدة سومرية وأغنية شعبية ومنولوج شكسبيري؟ براقصة ريفيّة، وراقصة باليه؟ هل الإنسان طبقات ومراحل مخزونة؟ هل الإنسان أمزجة كامنة؟

مكتبة الفكر الجديد

كنت في فترة ما بعد زيارة بغداد ونشور سومر أعيش إحباطاً خاصاً، كمنْ يصعد زقورة ليؤذن يومياً، إلا أن صعوده لا يمكن أن يدخل في أيّ حقل من حقول الرياضة. ما الذي أفعله بكلّ ما أقرأ؟ كالعانس ما الذي تفعله بحليب نهديها، ولكن كالعانس تحبّ الاطفال لدرجة القرص والعضّ، وأنا أُحبُّ الأدب بنفس الشاكلة، وكان أَحبّه لي في هذه الفترة الشعرُ السومري.

قرأته ـ أوّلاً ـ باللغة الانكليزية. فاجأني رغم لغته الغريبة بألفة رحمية. كأنني سمعته من قبل؛ إيقاعاته لا تخطئها الأذن .التكرار والتكرار والتكرار ؛ هذا بالضبط اسلوبنا في روي القصص .كأنني كتبته منذ مئات السنين، ثم نسيته. وها هو يعود إلى الذاكرة. قلت هذا أنا! الشعر مكتوب بنفس الطريقة التي يتحدث بها أهل الناصرية. سومر تعود إلى النشور من جديد، بأسلوب مختلف وودّي ! نروي قصة زائر مثلاً. لا نذكر مَنْ هو ولا اسمه. نقدّم له مقدمة احتفالية، نكرر ما نقول لشدّ السامع، ولإطالة تلهفه وتمديد فترة الاصغاء، نغيّر وجهة الاحداث مؤقتاً، ونعود إلى مقاطع سابقة، نرويها ثانية بكاملها. قرأت الشعر السومري عدّة مرات، أحسست الأنهار الجافة في صدري تعرش بالأمواج من جديد، سمعتُ أجراساً افتقدتُ رنينها منذ طفولتي. (ترجم الاستاذ علي الشوك فيما بعد من روائع الشعر السومري ومنه اقتبس الأمثلة): شجرة الحلاف:

(في الايام الأولى، في نفس الأيام الأولى
في الليالي الأولى، في نفس الليالي الأولى
في السنوات الأولى، في نفس السنوات الأولى،

مكتبة الفكر الجديد

في السنوات الأولى عندما جيء إلى الوجود بكل متطلبات الحياة

في الايام الأولى عندما أُعدت متطلبات الحياة على أكمل وجه

عندما خبز الخبز في معابد البلاد

وتمّ تناول الخبز في منازل البلاد،

عندما انفصلت السماء عن الأرض،

وابتعدت الأرض عن السماء،

وتم تحديد اسم الإنسان،

عندما حمل إله السماء، «آن» السماوات،

وحمل إله الهواء «إنليل» الأرض،

عندما أوكلت لأريشكيخال ملكة الأسفل العظيم

مهمة الإشراف على العالم الأسفل،

أقلع شراعه، الأب أقلع شراعه

انكي، إله الحكمة، أقلع شراعه إلى العالم الأسفل الخ)

يقدم الشاعر السومري أعلاه ظهور أنكي بموكب احتفالي من عمق التاريخ. تتضخم موسيقاه بالتكرار، وكأن الشاعر يصوّر تعاظم طوفان من نوع ما. يشدّك في الابيات الثلاثة الأولى إلى «سفر التكوين» الأول، ولكنه لا يفصح عن شيء، لتأزيم السامع أكثر فأكثر.

في المقطع الثاني يواصل الشاعر، تكوين الطبيعة والإنسان من أبعد نقطة، ومن أوّل تشكيل لهما. لم تكمل حياة الإنسان إلاّ بالزراعة والمعبد وتوزيع مهام الكون على الآلهة.

مكتبة الفكر الجديد

وحتى حينما يتمُّ الكون بتلك الصيغة المتكاملة، لا يدخل أنكي رأساً. أراد الشاعر أن يشدَّ إليه الاسماع أكثر فقال:

«أقلع شراعه، الأب أقلع شراعه»

مَنْ الذي أقلع شراعه؟ لابدَّ أن الاصغاء قد بلغ أقصى فضوله، لاسيّما بعد أن صوّر الشاعر قبل ذلك ظواهر كونية كبرى، ولا ننسَ أن الشراع هنا يوحي بطوفان. حين قال الراوية: «الأب أقلع شراعه»، كأنما أراد بكلمة الأب إيجاد صلة قرابة بين الأب والمستمعين من ناحية، وطمأنة النفوس الهلعة.

لكن إلى أين أقلع شراعه؟ ومن هو ذلك الأب؟ الهواجس مستوفزة والرؤوس مشرئبة الاعناق.

بعد كلِّ تلك الاحتفالات الكونية يدخل «أنكي» إله الحكمة إلى مسرح الأحداث. بالإضافة إلى ذلك يأخذ «انكي» أهميته الاستثنائية، وكذلك عظمته من الظواهر الغرية التي مهّدت لظهوره.

لا ريب أن الشاعر الأصيل مَنْ يُحسنُ توقيت الحدث وتدرج نموّه بتوقيت الكلمات المنتقاة. أكثر من ذلك أثار الشاعر من جرّاء غموض الأبيات الثلاثة الأولى فضول القارئ، وبدون هذه الحيلة الشعرية، قد لا يتحقق التجاوب ولا التفاعل المنشود بين النصّ ومؤلفه ومتلقيه، وهو ما يُرجى من وراء كل عمل فنّي.

إذا تمعنّا في المقطع أعلاه نراه دائرة، بدأ بنقطة، ثم عاد إليها. إلاّ أنَّ الشاعر السومري ـ كما يبدو ـ أذكى وأحذق من أين يبقى في محيط الدائرة سائحاً. ابتدأ من مركز الدائرة ـ وهو أبعد نقطة فيها، ليوحي ببعد لا متناهٍ للتاريخ، ببعدٍ لا وجود له في التقويم الزمني رغم وجوده نظرياً وبالضرورة.

هكذا فعل المؤلف الاوبرالي الايطالي بوتشيني بتلك التصويتة

مكتبة الفكر الجديد

ARIA التي تغنيها مدام بَتَرْفلايْ (الفراشة) اليابانية، وهي من أفضل التصويتات الاوبرالية وأكثرها شعبية.

كان قد مضى على زواج بَتَرْفلايْ ثلاث سنوات. وهي تنتظر مع خادمتها سوزوكي على التلّ عودة زوجها الامريكي.

بلغ اليأس بالخادمة مبلغاً جعلها تبكي، إلاّ أن مدام بَتَرْفلاي لم تفقد الأمل، فتصورت أن الباخرة التي تقلّه، ها هي قادمة من أبعد نقطة في الأفق:

في يومٍ جميل سنرى
خيطاً من الدخان يصعد
على أبعد
أفق على البحر
وبعد ذلك تظهر الباخرة
وبعد ذلك تدخل الباخرة البيضاء
البحر
صافرة تحيّتها العسكرية
ألا ترين؟ لقد جاء!
لن أنزل من التلّ لملاقاته
لا، سأقف على حافة التلّ وانتظر
وانتظر مدّة طويلة ولا أسأم
من الانتظار الطويل
ومن بين المدينة المزدحمة، هناك
يأتي رجل ــ بقعة صغيرة ــ

مكتبة الفكر الجديد

ويصعد على التلّ

مَنْ سيكون؟ مَنْ سيكون

وحينما يصل،

ما الذي سيقوله ما الذي سيقوله

سينادي: بَتْرَفْلاي من بعيد الخ

هكذا تبدأ هذه التصويتة من أبعد نقطة في الأفق على شكل خيط من الدخان، ثم يكبر إلى باخرة. ولكنَّ نموّ ذلك الخيط إلى باخرة يستغرق وقتاً يقطّع النياط ويزيد من اللهفة المتوقدة. كذلك تفعل صورة الزوج المنتظر. وهو يبدو أول الأمر على شكل بقعة صغيرة في زحام. وحين تقترب البقعة اكثر فأكثر، تكتمل رجلاً تدريجياً. وحتى يزيد ناظم الكلمات من تلهفات اللقاء جعله يصعد تلاً، فأبطأ اللقاء الموهوم بينهما.

تبدأ تصويتة المغنية، بصوت دقيق بعيد كأنه يخرج من أبعد نقطة في الأفق، ثم يصعد ويصعد ويقترب مع اقتراب الباخرة.

في الواقع إن شخصية بَتْرَفلاي نفسها تنمو وتتطور على نفس المنوال، حيث تظهر في البداية فتاة شابة بريئة، وساذجة. ثم تنتقل إلى المرحلة النسوية اثناء غناء اللحن الثنائي الطافح بالحب. امّا في الفصل الثاني، أي بعد ثلاث سنوات تصبح أمّاً، مع شعور بالنضج والاعتداد بالنفس. ولا تبلغ كمالها الإنساني إلاّ بانتحارها.

على أية حال ان أهم ما يميّز تلك القصيدة السومرية، التكرار اللفظي والبناء المعكوس للصورة الشعرية.

ألا يذكّر التكرار اللفظي الذي لجأ إليه الشاعر السومري بـ«بوليرو» رافل RAVEL ، المؤلف الموسيقي الفرنسي؟ حيث يعاد

مكتبة الفكر الجديد

اللحن الشرقي الواحد من بداية ألـ «بوليرو» إلى نهايته، إلاّ أنه يكبر حجماً قليلاً قليلاً مع كل إعادة إلى أن يملأ القاعة وتمتلئ الحواس برهبة حسيّة وارتجاف لاهث.

الراقصة نفسها تؤدي حركة واحدة لا تتغير لمدّة أربع ساعات. يداها ممدودتان أمامها تتحركان ذهاباً وإياباً. تبدو الراقصة التي تقف على منصة دائرية، ومن جراء تكرار حركة يديها وخفوت الضوء الأحمر عليها، وكأنها على صهوة حصان طائر. ساقها اليمنى ثابتة، بينما ساقها اليسرى متقدمة قليلاً. الاولى ثابتة، والثانية تؤدي حركة واحدة لا تتغير وكأنها لقطة جانبية لساق فرس مبحرة. الثوب منحسر عن فخذها الأيسر . يتوقد الضوء الأحمر على الراقصة قليلاً قليلاً، وعلى الفخذ المحسور الثوب اكثر ويبلغ أشدُّ توهجه حين يحيط بها الراقصون وقوفاً، فيظهرون جميعاً وكأنهم شموع ولهب أحمر. كأنهم شعلة.

يُؤدى اللحن الشرقي هذا، بضربات على طبل جانبيّ مطوّق. هي هي. إلاّ أنها تتضخم تدريجياً فتصلُّ وتجزّ وتثير أعمق الحسيّات والشبق. يتردد هذا الايقاع الواحد مائة وتسعاً وستين مرة، دون أدنى إملال، لأنه نامٍ.

لكن البناء المعكوس للصورة الشعرية لا يقلُّ أهمية عن التكرار في القصيدة السومرية. أي يبدأ الشاعر بالتصوير من النهاية إلى البداية. احتفالية تمهيدية لتخدير الحواس واستنفار أدق للإصغاء.

هذه العادة في التأليف السومري، ماتزال شائعة حتى اليوم في الأغاني الفولكلورية في جنوب العراق:

شـفـت الـضـوة مـن بـعـيـد

كـلـتْ احـتـركـنـا

مكتبة الفكر الجديد

تــــاريــــهـــا شـــهـــلا الـــعـــين

ومـــــســــيــــره عــــدنــــا

(أي : رأيت الضياء من بعيد فقلت احترق البيت فاذا بشهلاء العين ضيفة عندنا)

رغم ما يرافق العقلية الريفية من مبالغات، إلاّ أنها ـ على سخفها ـ غير منفّرة، إذا لم تؤخذ جدياً. رأى الشاعر أولاً ضياء، فتصوّره حريقاً. لابدَّ أنه أُصيب بفزع، لاسيّما وان الحريق في بيوت البردي والحصران، أسرع إلى التلف. لكن حين تيقّن أن حبيبته الشهلاء العين هي بالذات، مصدر الضوء، كانت بهجته أضعافاً مضاعفة، خاصة وان الشاعر مهّد للضياء ـ الحريق. بمسافة بعيدة. بكلمات أخرى، كان عليه أن يقطع المسافة لاهثاً وقلقاً. ما اعمق رحلة الإنسان من الخوف والتطيّر إلى المسرّة. لكن هذه الطريقة في النظم الشعري، لا تقتصر على الشعر السومري، أو الأغاني الشعبية العراقية، بل أصبحت أساساً شديد المفعول في بعض صور شكسبير ـ ولكل حادث حديث ـ. وهي بلا ريب تختلف عن المقدمات الطللية في الشعر الجاهلي وحسن التخلص.

على أية حال، ذَكَرَتِ المغنية الاوبرالية الإسبانية «فكتوريا دي لوس انخليس»، صعوبة ما تلاقيه المغنية البالغة، من عناء في غناء المراحل الزمنية والنفسية التي مرّت بها مدام «بَتَرْفلاي»، من السذاجة إلى النضج والبلوغ والكمال فالانتحار. لابدَّ من أوتار صوتية قادرة على التقمص وتصوير الادوار من أقصى الفرح إلى أقصى الحزن، ومن أنعم حلم يافع، إلى أقسى مفاجأة قاتلة ماحقة.

لكنني لم أكنْ أمثّل مراحل حياتي. كنت أعيشها متداخلة،

مكتبة الفكر الجديد

بوتقة خليط، وكأنها عنصر واحد، رغم تعدد عناصرها، وزمن واحد، رغم تعدد أزمانها. ما وقع لي في طفولتي، لم ينقطع. نما وتفاعل وتداخل. بدأ ولم ينتهِ. بوتقة خليط. ربما لهذا السبب، استغنيت عن التواريخ في هذه السيرة لأنها تاريخ واحد متواصل لا يمكن تجزئته إلا مجازاً. أسمع موسيقى لكن بكل تواريخي، وأقرأ كتاباً لكن بكل تواريخي، وأنظر إلى لوحة رسم بنفس المثابة. هكذا أصبحت ردود أفعالي، بعيدة عن الآنيّة، فلا تعنيني اللذات العابرة. أستعذبها وأندم. هل ندمتُ؟

ما الفائدة من كلّ هذا؟ الشيء اليقين في حياتي الآن هو الحيرة. الحيرة حتى من قابليتي على الكتابة. الحيرة رافقتني مع أوّل كتاب مدرسي. الحيرة ميراثي الأول والأخير. فتّش كلكامش عن الخلود، فأصابنا بعدواه. في الواقع لا أفتش عن الخلود، وإن كنتُ أعشقه. فتشت في البداية عن لقمة العيش وكأنها الاكسير، واليوم أفتش عما ينسيني حيرتي التي تزداد وتستفحل بمرور السنين. سأخرج من حلبة الحياة بحيرةٍ أكبر. الحيرة ميراثي الأول والأخير، فأتخبط:

في كلّ آلة موسيقيّة، آلاف الأنغام لم تكتشف بعد

في كل شجرة، أصباغ بقدر عيدان الأعشاش

في كلّ صخرة، عدد لا حصر له من تماثيل لم تُنحتْ بعد

يولد الإنسان وفي صدره مدن مطمورة

في حنجرته لغات مدحورة. لغات منقرضة

لغات في تابوت. لغات في زفاف.

ملامحه ليست ملامحه

مكتبة الفكر الجديد

ويداه مجدافا نوح دائماً

هل نحن الحقيقة أم الصورة؟ أم صورة الصورة إلى ما لا نهاية

هل نحن أشجار مطعمة في أشجار غريبة؟

* * *

قال لي معلّم الإنشاء بتأنيب مرّة: «لماذا تستعمل كلمات لا تعني شيئاً؟».

لندن

29/ 6/ 2000

مكتبة الفكر الجديد

غصن مصلعم بشجرة غريبة

كانت أمنيتي الوحيدة لا الوصول إلى لندن ، لا العيش فيها ، ولكن الموت في مكان آخر ، الموت بإرادتي ، أردت «أن أحسّ اللذة السوداء في الوفاة» . . أردت أن أختار نوع موتي ، كما اختار السهروردي مونه . كان أشقّ شيء عليّ أن يشفي قاتلي غليله ، أن أموت تحت قدميه والات تعذيبه مهاناً مذلاً ، أمنيتي أن أحرمه من اشباع حقده .

غمرتني النشوة ثانية ، حسنما تفتحت أمامي أوروبا خضراء شاسعة . إذن – قلت لنفسي – هذه أوروبا وكلها قبر لي ، ومرّة واحدة شعرت بلذة الانتصار ، كَمَنْ يخاف المشنقة فيتلذذ بقرص للموت . الآن أستطيع أن أقرر مصيري في أية لحظة . أصبحت إرادة موتي بيدي ، وهو من لا أريد لأحد أن يفرضه عليّ بالتجويع والتعذيب والإذلال ، قررت أن لا ألتفت إلى الوراء بعد اليوم ، أحببت القطار لأنه كان يخبُّ بقوة إلى الأمام ، يدخل في الأنفاق الجبلية المظلمة ويخرج بقوة إلى الأمام . هديرك أيها القطار أجمل تهويدة أمّ في أذني اليوم .

مكتبة الفكر الجديد